أسعد الخطيب

البطولة والفداء عند الصوفية

دراسة تاريخية

تقديم

الدكتور عبد الكريم اليافي

الشيخ ياسين الخطيب

الأستاذ محمد هشام برهاني



البطولة والفداء عند الصوفية

بسم الله الرحمن الرحيم

أسعد الخطيب

البطولة والفداء عند الصوفية

دراسة تاريخية

تقديم

الدكتور عبد الكريم اليافي

الشيخ ياسين الخطيب

الأستاذ محمد هشام برهاني

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

الناشر: المؤلف

طبع في مطبعة الشام

عدد النسخ: ١٥٠٠

رقم الموافقة: ٢٦٢١٤

تاريخها ١٩٩٥/١٠/٢٣

توزيع مكتبة الغزالي

دمشق - حلبوني - شارع خالد بن الوليد - ص.ب ٤٤٨

هاتف ٢٢٣٥٠٥٢

يطلب من

- المؤلف على عنوانه:

تدمر - مكتبة ابن خلدون - لصاحبها عدنان الخطيب

هاتف: ٩١١٧٨٩ - ٩١٢١٨٤ - ص.ب: ٩٩

- دار الكتاب النفيس: حلب - أتيول.

إهداء وشكر

إلى العارف بالله تعالى، فرع شجرة النبوة الطاهرة، السيد الشيخ ياسين الخطيب.

إلى من شجعنا منذ البداية، على البحث في هذا الموضوع، الأستاذ الكبير الدكتور عبد الكريم اليافي.

إلى جميع من أشار لنا بتصنيف هذا الكتاب، علماء دمشق الأفاضل.

إلى أهل الصفاء والنقاء، وقليل ما هم. . .

إلى كل من أراد أن يعرف موقعه من الرجال.

إلى الشباب المؤمن المتعطش للحقيقة مجردة عن الأهواء.

إلى كافة العاملين في «مكتبة الأسد الوطنية»، وخاصةً منهم في «المخطوطات».

إلى والدتي الحنون، التي ربتني على حب الأولياء والصالحين.

إلى الدارسين الذين يريدون إكمال ما بدأناه، وإلى كل من يزودنا بملاحظاته.

إلى كل من قدَّم لنا يد العون والمساعدة، لإخراج هذا الكتاب إلى النور، وأجرهم في ذلك على الكريم سبحانه.

أقدّم هذا الجهد المتواضع.

أسعد الخطيب

الرموز والاصطلاحات

ص : صفحة .

ج : جزء .

ق : قسم .

هـ : هجري .

م : ميلادي .

ت : تحقيق .

خ : مخطوط .

أ : وجه الورقة .

ب : ظهر الورقة .

د . ت : دون تاريخ .

ن . م : نفس المصدر أو المرجع .

« » : كلام مقتبس .

( ) : كلام مقتبس (ملخصاً) .

[ ] : كلام من وضعنا للتوضيح .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

د. عبد الكريم اليافي

السيّد أسعد الخطيب باحث مثقف مولع بالتراث العربي الإسلامي. ولد ونشأ في تدمر وتعلم في مدارسها ثم انتسب إلى قسم التاريخ بكلية الآداب في جامعة دمشق وتخرج فيه، ثم آثر أن يعمل في مدينته عروس الصحراء مدينة زنوبيا.

نشأ على سماع أخبار التراث من شعراء وعلماء وأدباء وصوفية وأبطال، واسترعى انتباهه هذا الغنى الزاخر في أمجاد التراث.

وفي تدمر كما في سائر البلاد العربية صغيرها ومتوسطها وكبيرها لا تزال الأسر العريقة والمتوسطة تتعهد في مجالسها أخبار ذلك التراث الغني.

ثم إن في تلك المدن مجالس يجلسها المثقفون ورجال الفكر يأخذون بينهم بأطراف الحديث في شؤون الفكر والثقافة.

ولا بد للشاب أسعد الخطيب قبل تخرجه وبعده من أن ينضم إلى تلك المجالس التي يختلف إليها أقرانه، والتي غالباً ما يتصدرها بعض المسنين من العلماء الذين لهم أسهم وافرة في الاطلاع والمعرفة.

ومن خلال دراساته الجامعية ومجالسه العلمية شعر أن جوانب التراث قد غطى وجوهَها المشرقة المضيئة غبارُ الزمن، وحجب لألاءَها ظلامُ المحن، وتَوَزَّعها تفرق الآراء، وتشتت النزعات، وخامرت بعضها الأوهام والترهات، فغدت مظانّ الاتهام، ومواطن القيل والقال وكثرة السؤال، مع أنها في أصولها نقيّة جليّة، وسنية بهية، يغبطنا عليها تراث الأقوام، وحضارات العصور والشعوب.

من هذه الوجوه المضيئة الرفيعة تيارات التصوف التي ابتعثتها قلوب مرهفة مؤمنة، وجدت في الإيمان العميق حياتها الباقية، وتلمحت فيه قيمها السامية.

وقد شاركت طوال عهودها الزاهية في رهافة الحدس، واعتماد الفكر، ورشاقة التعبير، والاستشراف نحو مقاصد إنسانية عليا من امتياز السلوك، وإيثار الغير، وتمثل حياة الرسول الأعظم، والتبشير بسعادة الإنسان في دنياه وأُخراه والإقبال على تفهم أسرار الكون، والدفاع عن الفكر والحمى والأوطان متى تهددها فجور أو بغي أو طغيان.

لذلك تحرّى أسعد أخبار الصوفية المشاهير وتبيّن نماذج حياتهم الخالصة المؤمنة الرفيعة، واطلّع في بطون الكتب والأسفار، وغوامض السير والأخبار، على ملامح التصوف الحقيقي، ومعالم الإنسانية السامية، ثم عمد إلى كتابة مقال في هذا الشأن نشره في مجلة التراث العربي (العدد ٥٣) عنوانه: «الإطار الدفاعي عند الصوفية» ردَّ فيه ما شاع عن الصوفية من خمول وكسل ومن مظاهر الضعف والتواكل، وأبان ما في حياتهم من بذل الجهد في مدافعة الشر، واستجلاب الخير، وفي جهاد النفس، والجهاد القتالي، وما عندهم من فروسية واستعمال السلاح في ساحات الوغى ومعارك الالتحام.

وقد لقي المقال قبولاً لدى كثير من الأوساط الفكرية واستحساناً عند

محبي التراث وأنصاره، ورأوا فيه تعديلاً مناسباً وصحيحاً لما شاع من الأوهام في شؤون الصوفية وحياتهم.

لسنا بحاجة إلى التذكير بمجالس تدمر الشتوية الداخلية الطويلة، ومرابعها النشيطة الغضيرة، وآصال خريفها اللطيفة البديعة، وآناء لياليها الصيفية، تحت مواكب النجوم الساهرة لدى أجمل سماء صحراوية، وتلقاء مجالي القمر أميراً بين النجوم والكواكب، هلالاً وتربيعاً أول، وبدراً وتربيعاً ثانيا، ثم متوارياً حين يختفي عن أحبابه الكثر من كواكب ونجوم ويتيح لهن التألق والتباهي والتباري في روعة التلألؤ وتمام التألق، وجلال المشهد.

كان بعض المجالس التي ضمت إليها المؤرخ الناشىء تستعيد أطرافاً من المقال، وتتناقش فيما ورد فيه من أخبار وأحكام. وقد حفّزت تلك الأجواء الفريدة الكاتب على أن ينعم النظر، ويستجمع الهمّة، ويستقصي الآثار، ويستنطق السّير والأخبار، ويقرن بعضها ببعض، ويصل بين ما هو عِدٌّ[(١)] منها وما هو بَرْضٌ[(٢)]، ويتجاوز ما يتخللها من حَرَضٍ[(٣)]، ويؤكد ما يستحق العلن والعرْض، فإذا به أمام سيل من المعلومات رأى من الفائدة التاريخية والتراثية أن يتحمّل مسؤوليتها، ويعرضها للمطالع الذي يهتم بشؤون الصوفية، وبمكارم أخلاقهم، ونوادر سِيرهم، ومطوي بطولاتهم، وأن ينشر ما طاب من أريج أخبارهم، وأشذاء سلوكهم، ونشر سجاياهم، وبديع أعمالهم، ومستجاد وصاياهم.

للصوفية فوق ذلك جوانب كثيرة عليّة، ومزايا سنيّة إنسانية، وهي ما عمد إليه المؤرخ المدقق في بيان بطولاتهم تلك، ونشرهم لنور الإسلام

(١) عِدّ: كثير.
(٢) برض: قليل.
(٣) حرض: فاسد.

في مجاهل إفريقية، وأواسط آسية وشرقيها، وبين شعوب كانت وثنية تائهة فاهتدت، ومخرّبة فَبَنَتْ وشادت، وجاهلة فتعلمت وسادت.

ولكن من المناسب أيضاً أن يعمد أديب بارع إلى بيان الأدب الصوفي الرفيع نثراً وشعراً.

أما الشعر الصوفي فقد سما أي سموّ في الأدب الفارسي.

وأما النثر فلا يكاد يعلو نثر على ما جادت به قرائح الصوفية الذين كان بيانهم الأول بالعربية سواء كان ذلك فقرات غنية بالمعاني كأنها قوارير عطر مكثف فاغم عجيب من كل لون ونوع ومذاق، ومن كل تجربة نفسانية عميقة، أو كان ذلك كتباً وسيراً مطولة، تدهش وتعجب وتربيّ وتهدي أَلَّفها طائفة من المؤلفين البارعين أمثال: أبي حامد الغزالي ومحيي الدين بن عربي وغيرهما الكثيرين.

كذلك ينبغي ألاّ نُغْفل ثمرات التفكير الروحي الفلسفي عند ابن عربي هذا صاحب الفتوحات المكية وفصوص الحكم والرسائل الكثيرة العجيبة، وعند مريده وتلميذه الإمام عبد الكريم الجيلي صاحب كتاب الإنسان الكامل، وعند الفيلسوف الرباني الكبير صدر الدين الشيرازي بحر العرفان.

كم يحتاج كل جانب من جوانب التراث بل كل خزانة من خزائنه العامرة بالجواهر واللآلىء إلى بحوث جديدة، تجلو غبار السنين عنها وتعرضها عرضاً مُونِقاً، موفَّقاً، ممتعاً، مفيداً، وموجهاً أبناء الشعوب نحو التعارف والسلام ومكارم الأخلاق والعلو في الدارين: الدنيا والآخرة.

والحق أننا ما زلنا بُعداء عن هذا الشأو، ولكننا كُلّنا أمل يحدو، ولسان يشدو، وهمة تستوفز، وعزيمة تنهض و «لا بدّ من صَنْعا وإن طال السفر».

أفضل الختام لهذه المقدمة المقتضبة طاقة ملونة وخالدة من أقوال فريق من الصوفية توضح شأو أحوالهم، وغاية جهودهم، وعلو مقاصدهم

الإنسانية. ونحن نقطف أزهار الطاقة من الرسالة القشيرية:

يقول الجنيد: «التصوف عنوة لا صلح فيها».

يريد أنه مكابدة دائمة في التغلب على نوازع النفس والوصول إلى نقاوة روحية. ويقول أيضاً:

«الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح». ذلك أنه إذا نَقِيَت النفس وتخلّصتْ من آفاتها غدت موطناً للأعمال الصالحة كأنها الأرض تُخْرِج من التراب بندى الصفاء، ومعين النقاء، أزهاراً ناصعة وثمرات يانعة. ثم إن التصوف حلبة مباراة في التسامي الخلقي.

يقول أبو بكر الكتاني: «التصوف خُلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء».

ولا يكتفي الصوفي بصفاء نفسه بل يعمل على صفاء غيره.

يقول أبو تراب النخشبي: «الصوفي لا يكدره شيء ويصفو به كل شيء».

والصوفي يسعى دائماً نحو الأحسن فقد قيل: «الصوفي من إذا استقبله حالان أو خلقان كلاهما حسن كان مع الأحسن».

بل إن أحدهم مع هذه الأوصاف ليخشى أن يوصف بأنه صوفي فيكون له في ذلك امتياز أو نعت يميزه من غيره.

سئل الشبلي: لم سُمُّوا بهذه التسمية؟ فقال: «لبقية بقيت عليهم من نفوسهم. ولولا ذلك لما تعلّقت بهم تسمية».

على أن الصوفي يدرك ما في حياة الناس أحياناً من خلاف وقبح وشرور، فهو قد يضيق بها ذرعاً، أو يواسي من أصابه نصيب منها، وقد يكون تنديده بها أبلغ من قصيدة هجاء للبشر. نجد في «طبقات الصوفية»

للسلمي مخاطبة أبي الحسن علي بن إبراهيم الحصري (ت ٣٧١ هـ) للناس تعتمد طرافة التمثيل:

«ألستم أولاد آدم الذي خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، ثمّ أمره بأمر فخالفه فيه ؟ إذا كان أوّلُ الدَنِّ دُرْدِيًّا، كيف يكون آخره ؟!».

د. عبد الكريم اليافي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الشيخ ياسين الخطيب

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آله وأصحابه والتابعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

وبعد: فإن أشد ما يحتاج إليه المسلم، في هذا العصر الذي طغت فيه المادة، هو العناية بالجانب الروحي، الذي أشار إليه الحديث الشريف بمقام الإحسان: وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

ومقام الإحسان هو أحد مراتب الدين الثلاث وهي: الإسلام، والإيمان، والإحسان، التي يجب على المسلم أن يؤديها بشكل متكامل، ليصل إلى كمال دينه. وقد تهيأ ذلك للصحابة رضوان الله عليهم، لأنهم استمدوا مباشرة من فيض النبوة، فكانوا أكمل الناس ديناً. واستمر التابعون على نفس النهج، لقربهم من عهد الرسالة، فهم خير خلف لخير سلف. وما زال الأمر كذلك، إلى أن فشا الإقبال على الدنيا، في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مفاتن الدنيا، فاختص المقبلون على الدين بمراتبه الثلاث باسم الصوفية، كما أوضح ذلك ابن خلدون. وسموا بالصوفية لصفائهم عن الأكدار، والشوائب التي لحقت بغيرهم. وهم الفئة

التي أخبرنا عنها النَّبي ﷺ بقوله: «لا تزال طائفة من أمتي قوامة على أمر الله، لا يضرها من خالفها». . .

وفي أصل الطريقة يقول ابن خلدون: «إن طريقة هؤلاء القوم، لم تزل عند سلف الأمة، وكبارها من الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم، طريقة الحق، والهداية، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف (مفاتن) الدنيا. . . وكان ذلك عامّاً في الصحابة والسلف». . . وعن تدوين علم التصوف قال: «فلما كُتبت العلوم، ودونت، وألف الفقهاء في الفقة وأصوله، والكلام، والتفسير، وغير ذلك كتب رجالٌ من أهل هذه الطريقة في طريقهم». . . وفي بيان المصدر الذي اعتمدوه في علمهم، قال الجنيد رحمه الله: «طريقنا هذا مضبوط بالكتاب والسنة. إذ الطريق إلى الله تعالى مسدود على خلقه، إلا على المقتفين آثار رسول الله ﷺ».

ثم استلهم رحمه الله من مقام الإحسان، تعريفاً عملياً للتصوف، بأنه: «الدخول في كل خلق سني، والخروج من كل خلق دني». ولما كان التزام هذا الأمر شاقاً على النفس البشرية، لأن النفس أمارة بالسوء، فقد انفردت به طائفة من الذين أسلموا قلوبهم لله تعالى، بعد أن جاهدوا في سبيل ذلك الجهاد الأكبر. فكانوا بذلك ورثة النَّبي ﷺ على مرّ العصور. .

وفي التصوف قال العلماء العاملون ـ وهم أحق من اتصف بهذه الصفات ـ

الإمام مالك: «من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق».

ـ وما نقل عن **الإمام أبي حنيفة**: «أنه كان محباً للصوفية، محترماً لمكانتهم».

ـ **الإمام الشافعي**: «هؤلاء عندهم رأس الأمر كله، وهو تقوى الله ومحبته».

ـ **الإمام أحمد**: «إنهم زادوا علينا بكثرة العلم، والمراقبة، والخشية، والزهد، وعلو الهمة».

ـ وقد أجاد حجة الإسلام (الغزالي) بوصفهم حين قال: «لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم، وأخلاقهم، بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً. فإن جميع حركاتهم، وسكناتهم، في ظاهرهم، وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة». لذلك اعتَبر أن سلوك طريق التصوف، فرض عين.

قال الإمام الشاذلي: «من لم يتغلغل في علمنا هذا، مات مصرّاً على الكبائر، وهو لا يشعر». هذا هو التصوف الحقيقي، الذي ينطبق على كل علماء المسلمين الصالحين، وليس المتشبهين، لذلك ولما كان مقامهم أعلى المقامات، حسدهم الأدعياء الجهلاء، والسفهاء، وألصقوا بهم تهماً هم منها براء، فكانوا بذلك يحققون هدف الأعداء، بضرب الإسلام عن طريق التشكيك بالعلماء الصالحين.

بعد هذا التعريف الموجز للتصوف بشكل عام، ننتقل إلى صفحة مشرقة، تمثل جانب البطولة والدفاع عند الصوفية. هذا ما سنراه في كتاب الأستاذ أسعد الخطيب «البطولة والفداء عند الصوفية». والذي أجاد فيه الدفاع عن أهل الحق، بالأدلة الناصعة، والبراهين الساطعة، وأفاد وكشف عن حقائق كانت مستورة عن أنظار كثير من الناس فجزاه الله خير الجزاء، ووفقه لما فيه رضاه. وإذا تبين الحق ووضح، فلا مفر للعاقل إلا أن يرجع إلى الصواب، لأن الحكمة ضالة المؤمن، أنَّى وجدها التقطها.

ونسأل الله تعالى، أن يجمع كلمة المسلمين على الحق المبين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

ياسين الخطيب

تدمر ١٤١٦ هـ

١٩٩٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الأستاذ محمد هشام برهاني

أحمد الله الذي وفق عباده المخلصين لتوحيده وحسن عبادته، والصلاة والسلام على إمام أهل الحق سيد الأنبياء والمرسلين وقدوة الهداة المصلحين. وعلى آله الأطهار وأصحابه الأخيار الذين ترسموا خطاه، واهتدوا بهداه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فإن الصراع بين الحق والباطل قديم، ومظاهره كثيرة، وملاحمه متواصلة دائمة، لقد بدأ منذ عصى إبليس ربه فأبى السجود لآدم أبي البشر، وخرج بمكيدته ووسوسته من الجنة، ثم هبط بفعلته إلى الأرض.

فلا غرابة أن يتصدر الشيطان ـ وقد أكل الحسد قلبه ـ معسكرَ الشرّ والفساد، ويتزعّم جبهة البغي والإفساد، وجنوده المنقادة لأمره، وأعوانه الموظفون لحساب مخططاته بلا عدد ولا حصر، ولكنهم يرجعون في الجملة إلى عناصر المتع واللذائذ والشهوات المسخرة لأسباب الدنيا ومطامع النفس وسبل الهوى ومن هنا جاء قوله صلى الله عليه وسلم «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات» (متفق عليه).

واقتضت رحمة الله تبارك وتعالى بعباده، ورأفته بخلقه ألا يتركهم فرائس لأحابيل الشيطان وحزبه، وأهدافاً مكشوفة لسهامه وحرابه، فأرسل

رسله وأنبياءه، صلوات الله وسلامه عليهم، على رأس المعسكر الآخر، معسكر أهل الخير وطلاب الهدى والاستقامة، بدءاً من أبينا آدم عليه الصلاة والسلام أول الأنبياء وختاماً بالمصطفى المختار محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الرسل الأصفياء تجمعهم وحدة المنطلق، ووحدة الهدف وإن اختلفت شرائعهم تبعاً للتطور البشري، والنضج الحضاري.

ففي وحدة المنطلق والهدف قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

وفي اختلاف الشرائع قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة: ٤٨] يشير قوله تعالى: (ومهيمناً عليه) إلى امتياز الشريعة التي جاء بها الرسول الخاتم ـ ﷺ ـ على سائر الشرائع السابقة، وتمامها واستيفاء كل مصالح الخلق بها إلى قيام الساعة، تأكد هذا بقوله تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣] وبقوله ﷺ فيما رواه جابر رضي الله عنه في الصحيح: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمَّها وأكملها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون: لولا موضع اللبنة، قال ﷺ: فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء» رواه مسلم ح (٢٢٨٧).

وإذا كانت الخصوم تستهدف أول ما تستهدف الحصون والمعاقل، لتأتي على أعدائها من الأساس وتضربهم الضربات القاتلة، فإن معسكر الشر الذي يقوده الشيطان استهدف في حربه مراكز القوة في الإسلام، وتوجه إلى الكثير من قواعده وصروحه المتمثلة: بالقرآن والسنة والفقه أولاً. وبالأعلام والرموز والقيادات التاريخية ثانياً، وبالمبادىء والقواعد

والمثل العليا ثالثاً. . ولكنه وبفضل الله تبارك وتعالى الذي اصطفى هذا الدين، واختاره منهجاً لعباده وسبيلاً للوصول إلى مرضاته.

وبفضل تحصينه وعصمته وحفظه من التبديل والتغيير: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]. وبفضل الإعجاز والتفرد والسبق في منهجه السوي الناظم لشؤون الإنسان والكون والحياة على اختلاف العصور وكر الدهور. . . ارتدت كل محاولات أهل الباطل خائبة مدحورة وظل الإسلام شامخاً رافع الرأس، كالطود الراسي يتحدى الأعاصير ويهزأ بالعواصف ويصد الأمواج المتلاحقة (كالسماء فوق الأرض، لو تحول الناس كناسين يثيرون من غبار هذه على تلك، لما كان مرجع الغبار إلا عليهم ولبقيت السماء صافية تتلألأ)(١).

والتصوف الذي يعتبر روح الإسلام الحقيقي وسر حياته، وواحداً من أعظم حصونه وقلاعه، كان نصيبه من سهام أعداء الإسلام وافتراءاتهم الحظ الأوفر، لأنه ينتهج مناهج الإحسان، ويحرص على كمال العبودية للرحمن، ويربط بإحكام بين أعمال الإسلام الظاهرة وقواعد الإيمان الباطنة، فلا ينفك أحدهما عن الآخر، ويرسم الطريق العملية التي توصل الإنسان إلى أرقى درجات الكمال عقيدة وخلقاً وسلوكاً ويخلّص سره من الأمراض المهلكة والآفات المردية، ويغرس الرأفة والرحمة والشفقة على الخلق باعتبارهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، فلا عتو ولا استكبار ولا انحراف ولا عصيان، ومن هنا قلنا بكل ثقة واعتزاز إن التصوف روح الإسلام وقلبه النابض، لا يقبل من الأعمال ظاهرها مجرداً عن بواطنها ويرفض الحركات الشكلية التي لا روح فيها ولا حياة. ومن هنا ـ أيضاً ـ كان الجهاد الأصغر الذي يضع المسلم في خط المواجهة أمام

(١) عبارة مستعارة من كلام الرافعي رحمه الله في وحي القلم ـ قصة زواج وفلسفة المهر ـ.

خصومه وأعدائه متأخراً عن الجهاد الأكبر الذي يتناول عيوب النفس وأمراضها الباطنة فما لم يحطم الإنسان أصنام الشهوات والهوى المنصوبة بكثرة على عرش قلبه، فإنه لا يملك أن يتحرك خطوة واحدة لتحطيم أي صنم من الحجارة يعبد من دون الله على أرضه، وما لم يغير المنكر المستعصي في داخله فلا يستطيع أن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر في ظاهره ومن حوله.

ونقول أيضاً:

بالحكمة والأخلاق والمعاملة الطيبة والقدوة الحسنة وبالرفق بالعدو قبل الصديق دخل الملايين من عبّاد الأوثان في إفريقيةالإسلام طائعين مختارين...

وبالصدق والإخلاص والمحبة والإشفاق على عباد الله وخلقه أقبل الملايين من أهل الشرك على الإسلام في شرقي آسيا...

وبمثل هذا وذاك يقبل المئات بل الآلاف من الأوربيين والأمريكان اليوم على الإسلام...

وإذا كان عدد المسلمين في العالم اليوم يتجاوز المليار والربع، فإن أكثر من نصفهم إنما دخل الإسلام بالكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة وصدق المواقف والتعامل...

وإذا كنا نرى اليوم تراجعاً في أحوال المسلمين، وضعفاً في مواقعهم، وتمزقاً في وحدتهم، وجهلاً متفشياً في أوساطهم، وتخاذلاً في مواقفهم، فلأنهم فقدوا روح الإسلام وجوهره، ولم يبق فيهم إلا الانتساب الشكلي والولاء الاسمي له. وكل ذلك بسبب الحملات العنيفة، والمكائد الخبيثة، والهجمات المتوالية على منهج التصوف وأهله.

ولا غرابة أن يحمل راية هذه الحملة الظالمة المسعورة الكفرة والمشركون، لأن هذا شأنهم وتلك طبيعتهم بَيَّنَها لنا المولى سبحانه

بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

ولكن الغرابة كل الغرابة أن ينضوي تحت لواء هذه الحملة جماعة من المسلمين أنفسهم، سلّوا سيوفهم المادية والمعنوية لحرب التصوف، ووجهوا سهامهم المسمومة لضربه، وشحذوا حرابهم الماضية لطعنه، ومن المؤسف حقاً، أن يعاني التصوف من هؤلاء مثل ما يعاني من الكفرة والمشركين بل لا نعدو الحقيقة إن قلنا إن مضرة التصوف من كيد هؤلاء وهم مسلمون أدهى ومصيبته بهم أمرّ.

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

وهؤلاء أصناف ومراتب تبعاً لمنشأ عداوتهم وطبيعة تعاملهم معه:

● فصنف معاندون حاقدون جفّت قلوبهم من الأنوار، وانقطعت أفئدتهم عن عالم الأسرار، لأنهم غلاظ الأفئدة قساة الأكباد، لم يجد الحق إلى قلوبهم سبيلاً، فوقفوا عند الظواهر ولم يحفلوا بالمعاني فهم من المرضى الذين يصدق فيهم قول البوصيري رحمه الله:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

● وصنف اغتروا بكلام الأعداء، وتعلقت بأذهانهم جملة من الشبهات فرددوها بغباء الببغاء ونشروها بغفلة السفهاء، ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث والتمحيص ولا مهمة التحقيق والتدقيق، فوقعوا ـ بجهلهم ـ في فخ الأعداء وانحازوا ـ بتقصيرهم ـ إلى معسكر أهل الباطل.

● وصنف من المدعين المنتسبين إلى التصوف بالجهل والمظهر، فلم يعرفوا حقيقته لأنهم لم يأخذوه من مصادره الصحيحة، ولم يرشفوا من معينه الصافي، فوقعوا فرائس الخطأ وسوء التقدير، وتعلقوا بالأوهام، وعاشوا في الظنون.

وفيهم يقول المحققون من أهل التصوف:

كل من ترسم برسوم أهل التصوف وأشار إلى نفسه بأن له قدماً في هذا الميدان، أو توهم أنه متمسك ببعض آداب هذه الطائفة ولم يحكم أساسه على ثلاثة أشياء فهو مخدوع، ولو مشى في الهواء ونطق بالحكمة أو وقع له قبول عند الخاصة أو العامة.

وهذه الثلاثة أشياء:

أولها: اجتناب جميع المحارم كبيرها وصغيرها.

والثاني: أداء جميع الفرائض عسيرها ويسيرها.

والثالث: ترك الدنيا على أهل الدنيا: قليلها وكثيرها، إلا مالا بد للمؤمن منها، وهو ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أربعة من الدنيا وليست هي من الدنيا: كسرة تسد بها جوعتك، وثوب تواري به عورتك، وبيت تكنُّ فيه، وزوجة صالحة تسكن إليها».

فأما ما سوى ذلك، من الجمع والمنع والإمساك وحب التكاثر والمباهاة، فجميع ذلك حجاب قاطع يقطع العبد عن الله عز وجل.

فكل من ادعى حالاً من أحوال أهل الخصوص، أو توهم أنه سلك منزلاً من منازل أهل الصفوة، ولم يبن أساسه على هذه الثلاثة، فإنه إلى الغلط أقرب منه إلى الإصابة في جميع ما يشير إليه أو يدعيه أو يترسم برسمه، والعالم مقر (أي بذلك) والجاهل مدَّع (اللمع ٥١٦).

● وصنف خدعوا بما رأوه من جهالات المدعين الذين أحدثوا في التصوف ما ليس منه، وأشاعوا فيه ألواناً من الضلالات والانحرافات.

أو بما قرأوه في بعض كتب التصوف من عبارات فهموها على غير مقصودها.

أو أباطيل ومفتريات مدسوسة تعلّقوا بها.

فكانت أحوال المدعين المنكرة، ومفاهيمهم الخاطئة، وتصرفاتهم المنحرفة. . والعبارات الغريبة الدخيلة، أهدافاً مكشوفة، ومرتكزات واضحة يهاجم التصوف من خلالها ويحكم عليه بالمروق من الدين اعتماداً عليها، والتصوف بريء منها ومن أصحابها.

ونقول هنا:

لو أن مذهباً من المذاهب الفكرية، أو فلسفة من الفلسفات الوضعية، أو صيغة من الصيغ الاجتماعية تعرضت لمثل ما تعرض له التصوف من طعنات مسمومة وحملات مركزة لكان كافياً لأن يأتي عليه من القواعد، ويجعله أثراً بعد عين.

لكن التصوف مع كل ذلك ظل محفوظاً بحفظ الله لدينه، وبقي حياً بحياة الإسلام المؤيد بنصرة الله تبارك وتعالى، ولعل من أبرز مؤيدات البقاء، وعناصر الثبات أموراً:

● منها جوهر التصوف الصافي المعبر عن حقيقة الإسلام، الجامع لأركان الدين الثلاثة:

(الإيمان والإسلام والإحسان) فلا يكمل الإيمان بلا إسلام ولا يصح إسلام بلا إيمان ولا يبلغ حقيقة الكمال إلا بجمعهما بالإحسان.

يقول الإمام مالك رحمه الله: من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق (حقائق التصوف).

● ومنها رموزه الشامخة في العلم والجهاد والخُلق وحسن المعاملة الذين يكشفون لكل منصف أنهم المعبرون بصدق عن صفاء التوحيد وكمال الخلق في التعامل مع الخالق والمخلوق.

يقول الإمام القشيري رحمه الله:

(جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وجعل قلوبهم معادن

أسراره، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغياث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق، صفاهم من كدورات البشرية ورقاهم إلى محل المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية ووفقهم للقيام بآداب العبودية...) (الرسالة / ٢).

ويقول الغزالي رحمه الله:

«لقد علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقتهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق» (المنقذ من الضلال ١٣١).

ويقول سلطان العلماء العز بن عبد السلام رحمه الله:

«قعد القوم من الصوفية على قواعد الشريعة التي لا تنهدم دنيا وأخرى، وقعد غيرهم على الرسوم».

ويقول ابن تيمية رحمه الله:

«أما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي والسري السقطي والجنيد وغيرهم من المتقدمين، ومثل الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ حماد والشيخ أبي البيان وغيرهم من المتأخرين فهم لا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج من الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يعمل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت، وهذا هو الحق الذي دلّ عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف وهذا كثير في كلامهم» (الفتاوى ١٠/ ٥١٦-٥١٧).

● ومنها مصادره الصحيحة الناطقة بالحق الداعية إلى الكمال الدالة على حسن الأدب وصفاء التعامل مع الخالق والمخلوق ضمن مناهج عالية ومسالك مأمونة وسبل واضحة هادية لأحسن الأحوال وأرقى معارج الكمال، يعبر عن هذا الإمام النووي رحمه الله في رسالة المقاصد فيقول:

(أصول طريق التصوف خمسة :

١ـ تقوى الله في السر والعلانية .

٢ـ اتباع السنة في الأقوال والأفعال .

٣ـ الاعراض عن الخَلق في الإقبال والإدبار .

٤ـ الرضى عن الله في القليل والكثير .

٥ـ الرجوع إلى الله في السراء والضراء) .

ولا يعارض هذا بما تضمنته بعض الكتب والمصادر من عبارات مدسوسة وافتراءات دخيلة، فلقد دخل كتب التفسير والحديث الكثير من الغش والوضع، والكثير من الأخبار المنحولة، تصدّى لها العلماء بالبيان، وكشف عن حقيقتها المفتراة المحققون المنصفون .

فهل ترك العلماء كتب التفسير لما وضع فيها من إسرائيليات مكذوبة ؟ وهل أهمل الناس العمل بالسنة لاختلاط الصحيح منها بالسقيم. إن الدعوة إلى مثل ذلك ـ فضلاً عن أنها تحمل في طياتها أسباب بطلانها ـ دعوة ماكرة خبيثة، لا تهدف إلى الإصلاح بمقدار ما تهدف إلى هدم الإسلام وتحطيم حصونه .

● ومنها أخيراً وليس آخراً أقلام أمينة وألسنة صادقة نذرت نفسها للدفاع عن حقيقة التصوف وجردت جهودها لرفع لوائه، تدفع عنه الشبهات، وتبطل ما ينسب إليه من ترهات، وتوضح ما يشكل على العامة من مجملات، وما أكثر ما نسب إليه الأعداء من تهم، وما أكثر ما وصف به من أباطيل، ولعل أبرز ما اتهم به التصوف صفة (السلبية) وما تحمل وراءها من ركود وخمول وتواكل وقعود وترك للأسباب وإهمال للفروض والواجبات بحجة الاستسلام لمجاري القضاء والقدر .

وكل ذلك مما هو وصف بارز للأدعياء الدخلاء والتصوف منهم بريء براءة الذئب من دم يوسف .

والكتاب الذي بين أيدينا: البطولة والفداء عند الصوفية.

من تصنيف الأخ الفاضل الأستاذ المحقق السيد أسعد الخطيب الذي نبت من معدن كريم على يدي أفاضل العلماء وأكابر المحققين نخص منهم بالذكر فضيلة الأستاذ الشيخ ياسين الخطيب، والعلامة المحقق المفكر الأستاذ الدكتور عبد الكريم اليافي وكلاهما ـ حفظهما الله ـ نابت من الأصول الكريمة والمعادن الطيبة المعروفة بالعلم والمشهود لها بالتحقيق، والموصوفة بالإنصاف.

فقد ندب المؤلف ـ جزاه الله خيراً ـ نفسه للدفاع عن هذه الطائفة لدفع تهمة السلبية عنها من خلال الواقع التاريخي الصحيح الذي عاشه رجالها ومن خلال سير حياتهم وما نقل عنهم من كتب وعلوم ومعارف وما سجله لهم التاريخ المنصف الأمين من وقائع وأحداث، تصفع كل معاند وتفضح كل مخالف. . لقد كشف بمؤلفه الأستار، وقرب به ما غاب في بطون المعاجم والأسفار، وأعلن بلسان الحق والصدق براءة القوم من هذه التهمة، وسلامتهم من هذا الافتراء، فجزاه الله تبارك وتعالى خيراً، ووفقه وكل العاملين المخلصين على مواصلة البحث والتحقيق للكشف عن المزيد من المعالم التي شوهها الحاقدون وزيف صورتها المدّعون الجاهلون، وحجبها عن الأعين غبار الإهمال والنسيان، فإن له ولأمثاله في انتصارهم للحق ودفاعهم عنه أجر المجاهدين المدافعين عن الحرمات المحيين لما اندثر من فضائل وقيم، والناشرين في الأمة ما ضيعت من سنن بارك الله به وبجهوده وجعل فيه النفع العميم إنه أفضل مسؤول وأكرم مأمول.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

دمشق ربيع الأنور ١٤١٦

الموافق لآب ١٩٩٥

وكتبه **محمد هشام برهاني**

كلمة قبل المقدمة

باديء ذي بدء، لابد من الإشارة إلى ثلاثة أشياء:

الأول:

أنّ الجهاد في الإسلام، ليس عدواناً مطلقاً لقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وقوله سبحانه: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

وقوله أيضاً: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وإنما شرّع الجهاد في الإسلام، دفاعاً عن النفس، وعن المقدسات والحقوق، وردع الظالمين والمغتصبين، وتحرير الشعوب، وقتل نوازع الشرّ في نفوس الأشرار.

الثاني:

أنَّ سيدنا محمد ﷺ: سيد الزهّاد والمجاهدين، فتأمل مدى رحمته بالناس كلهم، قال له بعض أصحابه في إحدىٰ الغزوات عن المشركين:

«لو لعنتهم يا رسول الله» فقال عليه الصلاة والسلام: «إنّما بعثت رحمةً، ولم أُبعث لعّاناً»(١) وأنشد ﷺ:

أنا نبيُّ المرحمة ـ وأنا نبيُّ الملحمة.

وقال أَيضاً: «رأسُ العقل بعد الدين، التودّدُ إِلى الناس، واصطناع المعروف إلى كل بَرٍّ وفاجر»(٢).

الثالث:

لمّا كان الصوفية، قد فقهوا عن الله سبحانه وتعالىٰ آياته الكريمة، وهم أوفر حظاً في الاقتداء برسول الله ﷺ كما يقول صاحب «عوارف المعارف»، فكثيراً ما نجدُ في أقوالهم ومصنفاتهم الإشارة إِلى أمرين أساسيين:

● الأمر الأول:

الدعوة إلى المحبّة، والتسامح، والرحمة، والشفقة على الناس جميعاً.

قال الهروي الحنبلي ت (٤٨١ هـ) في منازل السائرين:

«التصوف هو الخُلُق، والمحبّة سمةُ الطائفة، وعنوان الطريقة».

وذكر سيدي عبد القادر الجيلاني ت (٥٦١ هـ) في بيان خصال الصوفي: «أن يجتنب الدعاء أو اللعن على أحد من الخلق، وإن ظلمه. لأنّها من أخلاق الأبرار والصدّيقين، وأن يتصف بالمحبة والشفقة والمودة للخلق أجمعين».

---

(١) وجاء في لفظ مشابه: «ولم أُبعث عذاباً» انظر: الجامع الصغير، حديث رقم: ٢٥٨٥.
(٢) كنز العمال ٣/ ٧٠٥٤.

وفي وصايا ابن عربي: «وعليك برحمة الخلق أجمع، ومراعاتهم، كانوا ما كانوا، فإنّهم عبيدُ الله وخلقه، وإن عصوا، فإن فعلتِ ذلك أُجرت».

وقريب من ذلك كلام الحارث المحاسبي ت (٢٤٣ هـ) حيث قال في شرح المعرفة وبذل النصيحة: «إياك أن تقطع الشهادة على أحد من أهل القبلة، بشرك، ولا بكفر، ولا نفاقٍ، فإنّه أقرب إلى الرحمة، وأعلى في السنّة، وهي تمام السنّة».

وفي الحقيقة ما ذكرناه من أقوال الصوفية، أجمع عليه جُلّ علماء المسلمين، الذين يعوّل عليهم.

إذا علم هذا نقول باختصار:

إنّ الصوفية اعتنوا عنايةً فائقةً بوحدة الصف، والاتحاد الداخلي، وتماسك الجسم الإسلامي، وذلك حرصاً منهم على انتظام شمل المسلمين، في عدم انفراط عقدِ حياتهم، وصدع جمعهم.

محذرين بالوقتِ ذاته، من الفرقة والبغضة والتناحر. وعاملين أقصى جهدهم، على قطع دابر الفتنة، والشرِّ وفساد ذات البين، متمثّلين قوله تعالى:

﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٤٦] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

كما قال عليه الصلاة والسلام: «من خرج عن الطاعة، وفارق الجماعة، مات ميتةً جاهلية».

ويكفي أن نذكر كلام ابن عربي في هذا المضمار: «اعلم أن يد الله التي هي القوّة مع الجماعة، وما غُلبت قط جماعة إلا عند افتراقهم»(١).

---

(١) الفتوحات المكية الباب ٥٦١.

وأنشد شعراً في هذا المعنى:

أدينُ بدينِ الحبِّ، أنَّى توجهتْ ركائبهُ، فالحبُّ ديني وإيماني

وفي العهود المحمدية للشعراني: «أُخذ علينا العهدُ العام من رسول الله ﷺ: أن نكون رحمةً بين العباد، وأن نرفق بخلق الله، ونحلم على من خالفنا وعصانا وآذانا».

وفي طبقات الشاذلية الكبرىٰ: «إنهم يعاملون أعداءهم بما يعاملون أحبابهم من مكارم الأخلاق».

ويرىٰ الصوفية الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لكن كما يقول الكلاباذي ت (٣٨٠ هـ) في التعرّف: «مع شفقة ورحمة ولطف ولين من القول. . . ويرون الجهاد والجمعة والجماعات، واجبة علىٰ من لم يكن له عذرٌ من المسلمين، مع كلِّ إمامٍ بَرٍّ وفاجر».

«فحفظ النظام واجب، ومراعاة المصلحة العامة لازم».

كما يقول سيدي زروق ت (٨٩٩ هـ) في قواعد التصوف.

● **والأمر الثاني:**

التحذير من تكفير أحد من المسلمين.

ويوضّح الإمام الشعراني في عقائد الأكابر:

(أن بيان ما ورد في تكفيرهم منسوخ، أو مؤول، أو تغليظ وتشديد، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] قال ابن عباس وغيره: هو كفر لا ينْقل عن الإسلام)[١].

ويقول الإمام الغزالي في «الاقتصاد في الاعتقاد»: «والخطأ في ترك

(١) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر ج ٢ ص ١٠٩.

ألف كافر في الحياة، أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم».

والنتيجة التي نريد الوصول إليها من الكلام السالف الذكر: أنَّ جهاد الصوفية الحربي ـ مما سنعرض بعض صوره في هذا الكتاب ـ كان موجّهاً كلياً نحو الغزاة والمعتدين، والمتربّصين بالأمَّة الإسلامية، قديماً وحديثاً.

ولقد صدق الوصف الإلهيُّ فيهم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وإن كان هذا الخطاب، نزل في أصحاب رسول الله ﷺ. فكلُّ من اقتفىٰ أثرهم، وسار علىٰ طريقهم، من الأولياء والصالحين، والعلماء العاملين، يسري عليه هذا الخطاب، ويشمله هذا النعت.

هذا ما أردنا توضيحه، والله من وراء القصد.

* * *

الفصل الأول

المقدمة

لا أكتب التاريخ إلا في سبيل المجد الوطني والعزة القومية، ولولا هذه الغاية لكسرت قلمي.

«مؤرخ ألماني»

١ ـ أهمية علم التاريخ:

الحمدُ لله ربِّ العالمين القائلِ في كتابه المبين: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]. وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٤ـ٥].

والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد الذي يقول في الحديث الصحيح: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحقّ، لا يضرّهم من خذلهم»(١).

ورضي الله عن الصحابة أجمعين، ومن تبعهم من الصديقين والشهداء والصالحين بإحسان إلىٰ يوم الدين وبعد...

قال مصعب الزبيري:

«ما رأيت أحداً أعلم بأيام الناس من الشافعي، يروىٰ عنه أنّه قام علىٰ

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

تعلُّم أيام الناس، والأدب عشرين سنة».

وعلّق علىٰ ذلك أبو شامة: ولذلك عظيم فائدة لذوي البصائر، استعداداً ليوم تبلىٰ فيه السرائر، ولـم تزل الصحابة والتابعون ومن بعدهم، يتذاكرون ما سبقهم من أخبار، فيتطلبون الآثار، وهم السادة القدوة، فلنا بهم أُسوة.

ونقل الحافظ المؤرخ السخاوي عن أبي بكر بن خميس قوله: «إن أحسن ما يجب أن يعتنىٰ به بعد الكتاب والسنّة، معرفة الأخبار، وتقييد المناقب والآثار، ففيه تنبيه علىٰ الذين يجب أن تتبع أخبارهم، وتشاهد محاسنهم، ليكونوا كأنهم ماثلون بين عينيك مع الرجال، فيجدُّ في الطلب ليلحق بهم».

لذا جاء في الأثر: «من أرّخ مؤمناً فكأنّما أحياه، ومن قرأ تاريخه فكأنّما زاره، وعند ذكر الصالحين تتنزل الرحمة».

حتىٰ إنَّ الإمام البخاريّ نفسه، سمّىٰ كتابه الذي جمع فيه الأحاديث النبوية الشريفة (التاريخ الكبير).

وعليه فلا غرابة أن نرىٰ أحد جهابذة العلم والمعرفة من المؤرخين المسلمين يقول:

«والجاهل بالتّاريخ، راكب عمياء، وخابط عشواء، إذ هو أصل من أُصول الشريعة أَهملوه، وباب من أبواب العلم أَغفلوه».

وإلىٰ أهمية علم التاريخ يشير شكيب أرسلان:

«وبعد فإنّه ما يجب أن يخلد في الصدور، قبل السطور، وأن يكتب علىٰ الحدق، قبل الورق، أنّ حفظ التاريخ، هو الشرط الأول لحفظ الأمم ونموها، وأنه لا يُتصوَّر علىٰ وجه الكرة، وجود أمة، تشعر بذاتها، وتعرف نفسها إلا إذا كانت حافظةً لتاريخها، واعيةً لماضيها، متذكرةً أولياءها ومبادئها، حافظةً لآدابها، مما لا يقوم به إلا علم التاريخ، الذي

هو الوصل بين الماضي والمستقبل، والرابط بين الآنف والمستأنف».

ويكفي من جلالة هذا العلم، قول سفيان الثوري: «لمّا استعمل الرواة الكذب، استعملنا لهم التاريخ».

وعندنا أنّ الغوص في دراسة تاريخ الحياة الروحية، لرجال الإسلام وأبطاله، وعلماء الأمة وأوليائها، بأسلوب البحث العلمي الدقيق، عن طريق الانخراط في المنهجية التاريخية، بصفتها الحلَّ الوحيد لذلك، تنفي عن التصوف ما شابَهُ، أو لحق به علىٰ يد بعض الباحثين، أو المتعممين، الذين جانبهم التوفيق، أو قصروا عن إدراك الحقيقة، أو تعمدوا تشويهها، لغاية ما في نفوسهم.

ومثل هذه الدراسة تتيحُ للأجيال الناشئة، وعي ماضي أُمتهم علىٰ حقيقته، وضّاءً، مشرقاً، ناصعاً.

٢ـ نشأة التصوف:

والمستقرىءُ لتاريخ أمتنا الإسلامية، يلاحظ أنّها واجهت خلال مراحل سيرها الطويل، نقطة تحوّل كبيرةً، وهو خطر المادية الجارفة. فقد جاء عصر الفتوح، وجاءت معه الغنائم الوفيرة، وتحقَّق ما كان يخوِّف منه ﷺ: «وإني والله ما أخاف بعدي أن تشركوا، ولكني أخاف عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها»[(١)].

ولكن الله لطف بهذه الأمة، فقيَّضَ لها، رجالاً صادقين ودعاة مخلصين، لم تستعبدهم الشهوات، ولم تغرَّهم الدنيا بزخارفها، ولم توقعهم بعلائقها.

واجهوا هذا التيار الدنيوي، بكل ما عندهم من قوّة. وسُرعان ما تكوَّن

(١) رواه البخاري في جزء من حديث طويل.

في كل بلد فئة من الناس، أصبحوا يُعرفون بالزهّاد والعُبّاد، ومن ثم بالصوفية[1].

ويوضّح ذلك ابن خلدون عند كلامه علىٰ نشوء علم التصوف قائلاً: «وكان ذلك عامّاً في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال علىٰ الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلىٰ مخالطة الدنيا، اختصَّ المقبلون علىٰ العبادة باسم الصوفية والمتصوفة».

وبدأ هؤلاء يستقطبون طلّابَ الآخرة، والراغبين في الوصول إلىٰ الله، علىٰ طريق الجهاد الأكبر، الذي ركّز عليه القرآن الكريم مراراً، والأحاديث النبوية الشريفة في أكثر من موضع. وقد كان لمواعظهم وقع عجيب في النفوس حتىٰ قيل عن أبي القاسم القشيري ت (٤٦٥ هـ):

«لو قرع الصخر بسوط تخويفه لذاب، ولو رُبط إِبليس في مجلسه لتاب».

وأصبحت أخبارهم فيما بعد تذكرةً، وحافزاً للهممِ الفاترة، واشتد التعلق بمنهاجهم، منهاج الزهد والورع والعبادة والإخلاص الذي رسموه، مع مرورِ الزمن، وتزايد الفتن، والإقبال علىٰ الدنيا.

فعملوا علىٰ معارك الاستيلاء علىٰ القلوب القاسية حتىٰ تلين،

---

(١) قال العلماء المحققون من الصوفية المتقدمين: إنّ الناس اختلفت في القرن الثاني، وتنوعت الآراء، وكدر شرب العلوم، وتزخرفت الدنيا، واشتدّ الطمع، وحصل التداعي بين الفرق، فكلّ فريق ادَّعىٰ أنّ فيهم زهاداً وعباداً.

فانفردت طائفة، بأعمال صالحة، وأحوال سنيّة، وصدق في العزيمة، وقوة في الدين، وزهد في الدنيا ومحبتها، فقيل لهم الصوفية.

ولسنا هنا في صدد البحث في هذه الكلمة، واشتقاقها، بقدر اهتمامنا بمضمونها، فإن شئت سمِّ «التصوف» بالتزكية، ونهي النفس عن الهوىٰ، كما قال الله تعالىٰ أو علم القلب أو الإحسان، كما أخبر ﷺ، أو التربية أو السلوك، كما يطلق عليه بعضهم. وعلىٰ كل: فلا مفرّ من ذكر اصطلاح «التصوف» لأنّه شاع أكثر من غيره، ودرج عليه أهل التواريخ والعلماء، منذ القرن الثاني الهجري (وانظر هامش ص ٥٨).

والانتصار علىٰ الأحقاد والبغضاء حتىٰ تزول، وابتداع طرق الصلاح والإصلاح والفلاح، والنماذج الإنسانية الفاضلة، بلغات القلب الخاصة.

وقد تركت كتبهم وأقوالهم المتناثرة، أثراً عميقاً في النفوس واستطاعوا ـ مع من سار علىٰ منوالهم ـ أن يحافظوا علىٰ رونق الإسلام، وبهجته، وروحانيته، أكثر من عشرة قرون.

ومما هو حريّ بالقارىء أن يعرف من أخبار هؤلاء الصوفية، أنّهم كانوا علماء ربانيين، فقهوا عن الله تعالىٰ آياته الكريمة، وكانوا يعيشون بما فتح الله عليهم من أبواب الرزق، فمنهم المعلم والنجّار والحدّاد والزجّاج والخوّاص والدبّاغ والنسّاج، وألقابهم تدلّ عليهم. والفرق الوحيد بينهم وبين غيرهم أنّ الدنيا كانت في أيديهم ولم تكن في قلوبهم، وقد استوىٰ عندهم الذهب والتراب.

وهم يحرصون بدقة متناهية علىٰ العمل بالقرآن والسنّة، وما كان عليه السلف الصالح.

وحسبُك كلام أبي حامد الغزالي: «إنّ جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة». وقول إمام القوم الجنيد ت (٢٩٧ هـ): «علمنا هذا مشيّد بالكتاب والسنّة، فمن لم يحفظ القرآن، ويكتب الحديث، ويتفقه، لا يقتدىٰ به».

٣ـ سبب تأليف الكتاب:

علىٰ أنّ تركيز الصوفية علىٰ جهاد النفس، وردِّ غوائلها، والبعد عن مواطن الفتن، وأصحاب الأهواء، وأهل الدنيا، لا يبرر للمستشرقين، ومن حام في دائرتهم، من بعض الباحثين العرب المعاصرين، نعت التصوف بالسلبية، والضعف والخنوع، والتهاون في صدِّ الغزاة، ومقارعة المعتدين.

ونحن لا يهمّنا كثيراً، وصف هؤلاء المستشرقين، وهجومهم علىٰ التصوف ورجاله، لأننا خبرناهم طويلاً، لقد تخصصَّوا في علوم قلب الحقائق وتحريفها، وتزييف تواريخ الشعوب والعظماء، بل حتىٰ في بعض الأحيان محوها.

بَيْدَ أنّ اللوم، يقع علىٰ من سلّم لافتراءاتهم، وأطلق العنان للسانه وقلمه، في بث إشاعات مغرضة، لا أساس لها من الصحّة، كلُّ ذلك دون مناقشة علمية، وتحليل ودراسة عميقة.

ولقد خُدع بهؤلاء أقوام، اغتروا بزخارف أقوالهم، ومن ثم تسممّوا من أفكارهم، وانجرفوا في تيار محاربة الصوفية.

وربما عُذر بعضهم لسذاجتهم، أو لأنّه دعَّم هذه الصورة القاتمة عن التصوف، أعمال وسلوك بعض الدخلاء المنحرفين من أدعياء الطريق الصوفي.

ولذلك عندما نشرت مجلة: «التراث العربي» بحثنا المطول (الإطار الدفاعي عند الصوفية)[١] استحسنه العلماء الفضلاء[٢]، والباحثون المنصفون، ولفيف من المفتشين عن الحقيقة.

ورأوا فيه بحثاً فريداً من نوعه، ومجهوداً يستحقّ أن يوسّع وينشر في كتاب مستقل، تعميماً للفائدة، ودفعاً للسهام الموجهة للتصوف وأهله.

سيّما أن الدور الضخم لرجال الصوفية، وجهودهم في النهوض بالمسلمين، لم يلْقَ الاهتمام المطلوب من الدارسين، بل في أحيانٍ كثيرة أُهمل ونُحِّيَ جانباً.

---

(١) العدد (٥٣) تشرين أول ١٩٩٣.

(٢) نذكر منهم علىٰ سبيل المثال: د. محمد سعيد رمضان البوطي، د. نور الدين عتر، د. محمد عبد اللطيف فرفور، أ. محمد هشام برهاني، د. وهبة الزحيلي، د. شوقي أبو خليل...

وكذلك أنّ كتب القوم، تدور في مجملها ـ عدا نسبة قليلة[1]. ـ حول

---

(١) ومن كتب الصوفية في ميدان الجهاد نذكر:
١ـ الجهاد: لعبد الله بن المبارك، وهو أول من ألّف فيه (مطبوع).
٢ـ بيان الجهاد لأهل الوداد: لعبد الغني النابلسي، خ ـ رقم: ٤٠٠٨ (مكتبة الأسد الوطنية).
٣ـ ارشاد العباد في فضل الجهاد: لحسن إبراهيم البيطار خ ـ رقم: ٧١٦٦ (مكتبة الأسد الوطنية).
٤ـ سفرة الزاد لسفرة الجهاد: للألوسي ت (١٢٧ هـ).
انظر (الدر المنتثر) لعلاء الدين الألوسي.
٥ـ فضائل الجهاد: للشهيد علي بن مصطفىٰ الموستارى ت (١٠٠٧ هـ)، انظر: (معجم المؤلفين) ٧/ ٢٤٣.
٦ـ تحفة الراغب بالسعادة في الترغيب بطلب الشهادة: لأحمد الفلالي. انظر: (الأعلام ١/ ٢٦٥).
٧ـ رسالة في الجهاد: لمحمد أديب النقشبندي ت (٨٠٢ هـ) انظر: (الأعلام ١/ ٢٨٦).
٨ـ فردوس المجاهدين: لأحمد الخُجندي انظر: (الأعلام ١/ ٢٢٦).
٩ـ إعلام الأجناد والعباد بفضل الرباط والجهاد: لمحمد بن موسىٰ بن العثمان ت (٦٨٣ هـ). انظر: (الأعلام ٧/ ٢١٨).
١٠ـ الأجر الجزيل لمن مات أو قتل في السبيل: لأبي المواهب البكري الصديقي. انظر: الأعلام (٤/ ١٢٩).
١١ـ فلك السعادة في فضل الجهاد والشهادة: لعبد الهادي الحسني السجلماسي انظر: الأعلام (٤/ ١٧٣)، (الزاوية الدلائية ودورها الديني العلمي والسياسي) ص ٣١٢.
١٢ـ التيسير في فضل الأجر الكثير بالعمل اليسير (في فضائل الرباط).
١٣ـ إعلام الزهدا بعدد الشُهدا: وكلاهما لمحمد بن قاسم البوني.
انظر: (تعريف الخلف برجال السلف) ص ٥٣٢.
١٤ـ بغية المساعد في أحكام المجاهد: لأحمد الشريف السنوسي.
انظر: (أضواء علىٰ التصوف ص ١٠٠).
١٥ـ النصيحة في دعوة المسلمين للجهاد: لمحمد جعفر الكتّاني انظر: (تاريخ علماء دمشق ١/ ٤١٥).
١٦ـ الجدوىٰ في نفير الجهاد: لجعفر بن أحمد الخزاعي، انظر: (مجلة العربي =

تهذيب الأخلاق، وجهاد النفس، وتطهير القلب.

فاستجابةً لأهمية هذا الطلب، وتلبيةً لهذه المهمة، عقدت النية، وتوكلت علىٰ الله، مستمداً منه العون والتوفيق. لعلي أكون من خدمة العلم الشريف، ومن المنقبين عن خزينة من خزائن هذا الكنز النفيس، ومن الدالين علىٰ طريق الصالحين حينما عجزت عن سلوكه، وعزائي في ذلك قول حبيب الله ورسوله: «المرء يُحشر مع من أحب»(١).

وقول الإمام الجنيد رضي الله عنه: «محبّة الصوفية، ولاية صغرىٰ».

وتوخيت في محاولتي في هذا الكتاب، أن أجعلَ الحقيقة نصب عيني دائماً، فلم أزِدْ ولم أبتدع، لكنّي لا أخفي أنني أكنُّ للذين أُترجمُ لحياتهم، كلَّ حُبٍّ وإعجاب وتقدير.

ولا أظنّ أن مؤمناً مخلصاً، صادقاً في إيمانه، يخالفني في ذلك.

علىٰ أنّ إعجابي بهؤلاء القوم، لم يدفعني إلىٰ مغادرة الأمانة العلمية، فأنسبُ إليهم ما ليس فيهم. وسوف يجد القارىء المنصف، والمفكر النيِّرُ، تأكيداً لذلك.

ومع أنني بذلت جهداً لا بأس به، استغرق قرابة عام، فإنني أعترف بالعجز والتقصير، في أن أوفي هذا العمل حقَّه. وكلُّ أملي أن يكون هذا الكتاب، فتحاً جديداً للبحث في هذا الميدان، ينهض بذلك من الدارسين، من يتحلّىٰ برؤية تاريخية واسعة، ومتخصصة وعميقة، هذا مع

= العدد ٢٨٧ ت ١، ص ١٥٦).

١٧ـ شرح الصدر بغزوة أهل بدر: لعبد الله الشبراوي الأزهري. انظر الطريقة الشاذلية وأعلامها للدكتور محمد أحمد درنيقه.

١٨ـ فتح الجواد في بيان فضائل الجهاد: لأحمد الحسيني النقشبندي. انظر معجم المؤلفين ٢/ ١٥٨.

(١) رواه البخاري ومسلم.

الإخلاص في النية والعمل، والصدق في التحقيق والتدقيق، والإنصاف الذي هو كما قيل من سمة الأشراف.

أسأله سبحانه وتعالىٰ، أن يجعل ما سطّرناه، خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به كافة المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

* * *

الإطار الدفاعي عند الصوفية

أسعد الخطيب *

يحتل التصوف جزءاً هاماً من تراثنا العربي الاسلامي بدليل وجود عدد كبير جداً من مخطوطات علم التصوف تزخر بها مكتبات العالم ولا غرابة في ذلك فقد شاع التصوف في العصور الاسلامية على اختلافها واصبح اتجاهاً شعبياً مشكلاً بذلك تياراً فكرياً غلاباً منجباً كوكبة من العلماء ممن خلفوا آثاراً قيمة لا تزال تعتز بها المكتبة الاسلامية ٠

ومن قراءتي لما يكتبه بعض المعاصرين في هذا الميدان وجدت أن فريقاً منهم قد أصدروا أحكاماً عشوائية وعملوا على توجيه النقد غير المتبصر فزعموا أن التصوف خمول وكسل ومظهر من مظاهر الضعف فزلت بذلك أقلامهم ومن أمثلة ما كتبوا « والصوفية لم نر لهم جهاداً ولم نقرأ لهم استشهاداً »(١) وقد تزعم هذا الاتجاه معظم المستشرقين ـ ومع الأسف ـ مشى على خطاهم في اشاعة هذا المعنى بعض الباحثين العرب المحدثين فصار ذلك هو الفهم السائد لدى الكثيرين فوجدت أن تصحيح هذه المفاهيم الخاطئة لهي ضرورة علمية وتاريخية حقة وضرورة قومية انسانية.

وفي الحقيقة لست فقيهاً ولكني سأتناول الموضوع كدراسة علمية من الناحية التاريخية متوخياً الحقيقة مستنيراً في هذا الخصوص بما وقع في يديّ من مراجع ومصادر ٠ وعلى الرغم من أنها لا تشبع نهم الباحث فهي تزودنا ببعض الأخبار التي تسعى الى تبديد الغيوم وانارة الطريق ٠

(*) مجاز في التاريخ عضو اتحاد المؤرخين العرب ٠

الصفحة الأولى من المقال المطول الذي نشرناه في مجلة «التراث العربي الدمشقية».

الفصل الثاني

الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر

قال الراغب الأصفهاني في مفردات غريب القرآن: الجهاد والمجاهدة، استفراغ الوسع في مدافعة العدو.

والجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس. وتدخل ثلاثتها في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨].

إذاً فالجهاد في الإسلام: هو بذل الجهد في مدافعة الشرِّ واستجلاب الخير. والعدوُّ الذي نجاهده، قد يكون ظاهراً، وقد يكون خفياً، والإنسان مجاهد في الحالتين.

وقد وصف الرسول ﷺ جهاد الإنسان للعدو الظاهر بأنّه: «الجهاد الأصغر» لظهور العدوِّ، والاستعداد لمنازلته.

أما مجاهدة النفس، ومحاربة الهوىٰ، فقد سمّاه الرسول الكريم: «الجهاد الأكبر»(١) لاختفاء العدوِّ وطول وسوسته.

---

(١) حديث «رجعنا من الجهاد الأصغر إلىٰ الجهاد الأكبر».
رواه الديلمي عن جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ وأخرجه البيهقي في الزهد والخطيب في تاريخه وذكره صاحب كنز العمال برقم ١١٢٦٠ ورقم ١١٧٧٩، وانظر كشف الخفاء للعجلوني ج ١ ص ٤٢٤. =

يقول العارف بالله عبد الغني النابلسي ت (١٧٣١ م): واعلم يا أخي أنّ الجهاد علىٰ قسمين: جهاد أصغر، وجهاد أكبر. أما الجهاد الأصغر: فهو جهاد الإنسان أعداءه من الكافرين، وقتالهم فرض عين، إن هجموا علىٰ حصن من حصون المسلمين.

أما معرفة الجهاد الأكبر: فهو من أهمِّ الأمور علىٰ المكلف وذلك فرض عين عليه. فالمؤمن في جهاد دائم مع نفسه لتوقي مفاسدها، إلىٰ أن يموت، بخلاف الجهاد مع الكفار، لأنّ بقاء الكافرين في الدنيا علىٰ كفرهم لا يضرُّ أهل الإسلام في دينهم[1].

وقد حرص الإسلام، في عدد من الآيات، والأحاديث والأخبار، علىٰ الربط بين الجهاد، وبين الصبر والزهد والبلاء. فأكّدَ علىٰ مجاهدة النفس وترويضها، من أجل استقامةِ المنهج السلوكي والأخلاقي، والتأسي برسول الله ﷺ، والراشدين، والصحابة، والتابعين، والأولياء الصادقين.

قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

ذكر سيدي عبد القادر الجيلاني في شرح هذه الآية: أمرك بالصبر

= وللحديث شواهد منها: قوله عليه الصلاة والسلام: «المجاهد من جاهد نفسه» أخرجه الترمذي في كتاب فضائل الجهاد، والبيهقي في شعب الإيمان، ومنها قوله ﷺ: «جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم» انظر: المفردات من غريب القرآن، مادة جهد، والآيات في هذه المعاني كثيرة. منها قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وهي آية مكية. ومن المعلوم أنّ جهاد الكافرين، قد شرع في المدينة المنورة، وهذا يدلّ علىٰ أن المراد من الجهاد هنا جهاد النفس، كما قال ابن عباس. وعن عبد الله بن عمرو قال: ابدأ بنفسك فجاهدها، وابدأ بنفسك فاغزُها (محاسبة النفس لابن أبي الدنيا).

(١) بيان الجهاد لأهل الوداد خ ـ الورقة ٢١ ب.

يا مؤمن أولاً، ثم بالمصابرة والمرابطة والمحافظة والملازمة، ثم حذّرك من تركه، فقال: واتّقوا الله.

وفي موطن حديث أبي طالب المكي ت (٣٨٦ هـ) عن مقام الزهد عند الصوفية، وبعد استدلاله في الآية الكريمة: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧].

قال رضي الله عنه في (قوت القلوب):

(القتال: هو فراق الحياة الدنيا، لأنّه المشي بالسيف إلىٰ السيف. ولذلك قال المنافقون: هلا أبقيتنا إلىٰ وقت آخر.

وهذا هو حبُّ البقاء، لمتعة النفس، وإطاعة الهوىٰ.

وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٨٦] يعني رغبوا في البقاء الأدنىٰ، وهي الدنيا، فينبغي أن يكون حبُّ بقاء الباقي، هو الزهد في الحياة الفانية. ولذلك صار الجهاد أفضل الأعمال، لأنّه حقيقة الزهد في الدنيا)(١).

وفي وصية عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلىٰ قائد جنده ومن معه الحضّ علىٰ التقوىٰ، وعلىٰ جهاد النفس:

«أما بعد: فإنّي آمرك ومن معك بتقوىٰ الله، فإنها أفضل العدة علىٰ العدوِّ، وأقوىٰ المكيدة علىٰ الحرب، واسألوا الله العون علىٰ أنفسكم، كما تسألونه النصر علىٰ عدوِّكم، أسأله تعالىٰ ذلك لنا ولكم».

وعلىٰ كُلٍّ فالأخبار والآثار غنية في هذا المعنىٰ، وهي أكثر من أن تحصىٰ.

وقد استطاعت الصوفية، الجمع بين جهاد النفس، وبين الجهاد القتالي. لأن هناك ترابطاً وثيقاً بينهما.

---

(١) ج ١ ص ١٦٤ وانظر: إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٤٢.

فالجهاد الأكبر، تهذيب للنفس، وتوجيه لها تجاه الخير.

وهي بذلك تستعدُّ لملاقاة العدوِّ ومنازلته.

أما النفوس التي انحرفت، وسارت مع الهوىٰ، فإنّها لا تستطيع أن تواجه العدو، ولا أن تصارع المعتدين[١].

يقول أبو الحسن الندوي في أهمية جهاد النفس، وأن ثمرته الشخصية القوية والتضحية:

(إنّ الإقدام والشهامة، التي نحتاج إليها للكفاح والفداء، وبذل المهج والأرواح، لا تنشأ ولا تظهر في أكثر الأحيان، إلا بعد صفاء الروح، وتهذيب النفس، والرياضة والعبادة)[٢].

لذلك نرىٰ أكثر الذين قاموا بدور التجديد والجهاد في تاريخ الإسلام، ـ ممن سنعرض لهم في طيات هذا الكتاب ـ كانوا يتمتعون بمكانة روحيةٍ ساميةٍ.

والملاحظ علىٰ أن التركيز علىٰ الجهاد الأكبر، بدأ يشتدُّ بعد عهد النبوة، وتواري النور المحمدي. ويعزىٰ ذلك: إلىٰ الظروف المحيطة بالأمّة الإسلامية، وما أصابها من نزاعات داخلية، ملأت تاريخ العصرين الأموي والعباسي، بالإضافة إلىٰ غرق بعضهم في ملذات الدنيا وشهواتها.

فكانت لهذه العوامل جميعاً، ردّة فعل، من العبّاد والزهّاد، فسلك قسم منهم طريق الوعظ والتذكير بالحياة الأُخرىٰ، واندفع القسم الآخر للمرابطة في العواصم والثغور. التي وجدوا فيها آفاقاً رحبة، وراحة

---

(١) انظر: الجهاد في التفكير الإسلامي ص ١٠.
(٢) ربانية لا رهبانية ص ١٢٠.

لنفوسهم، وتخليصاً من مشاهد تطاحن الأحزاب، والفتن، والتكالب علىٰ الدنيا.

وقد تسنّىٰ لهم في هذه الثغور، ممارسة عباداتهم ورياضاتهم وجهادهم، فأخذوا يستشعرون السعادة والرضا.

لكن ليس معنىٰ ما تقدّم، أنّ مسير أهل الزهادة والنسك إلىٰ الثغور، كان نتيجة فقط للأسباب التي ذكرناها.

فمن جانب آخر، يقول الشيخ الأكبر ابن عربي في سياق كلامه عن أصناف الأولياء:

«ومنهم السائحون، وهم المجاهدون في سبيل الله، لأنّ المفاوز المهلكة، البعيدة عن العمران، لا يكون فيها ذاكرٌ لله من البشر، لزم بعض العارفين السياحة، صدقةً منهم علىٰ البيداء، التي لا يطرقها إلا أمثالهم، والجهاد في أرض الكفر، التي لا يُوَحَّدُ الله تعالىٰ فيها. فكان السياحة بالجهاد، أفضل من السياحة في غير الجهاد»[1].

وهذا تصحيح لفكرة شاعت عن زهّاد المسلمين وعبّادهم، أنّهم كانوا سلبيين، ظانين أنّ زهد المسلمين كان يفصلهم عن الحياة، وهو ظن واهم، فإن زهّاد المسلمين لم ينفصلوا عن الحياة، بل كانوا يتصلون بها، وكانوا يلبّون دائماً نداء الوطن، ويتقدّمون الصفوف المجاهدة، طلباً للاستشهاد في سبيل الله[2].

وأصدق وصف وجدناه في حقّهم، القول المشهور: كانوا رهباناً في الليل، فرساناً في النهار.

---

(١) الفتوحات المكية ج٢ ص ٣٣.

(٢) العصر العباسي، ص ٤٠٣. وانظر عن الدور العظيم الذي لعبه الصوفية في الدفاع عن الثغور الإسلامية: (الحركة الصوفية في الإسلام) د. محمد علي أبو ريان ص ٣١٧ وما بعدها.

ويمكن أن نقول: إنّه بما توافر لدينا من مادة غزيرة، من نصوص وتراجم، استطعنا ـ بحمد الله وفضله ـ العثور عليها، تؤكد ما سوف نرمي إليه، وتزودنا هذه المراجع والمصادر بكثير من الآثار والأخبار، التي تسعىٰ إلىٰ تبديد الغيوم وإنارة الطريق، وبالله التوفيق.

* * *

الفصل الثالث

المجاهدون السبعة من زهّاد التابعين

قال علقمة بن مرثد ـ المتوفىٰ (١٢٠ هـ) ـ انتهىٰ الزهد إلىٰ ثمانية من التابعين، وهم: عامر بن عبد الله، وأويس القرني، وهرم بن حيان، والربيع بن خيثم، وأبو مسلم الخولاني، والأسود بن يزيد، ومسروق بن الأجدع، والحسن البصري[(١)]. وقد عدَّهم الباحثون في رأس من عملوا على تأسيس حركة الزهد والتصوف في الإسلام، بعد أن زرع بذورها الصحابة رضوان الله عليهم، وقلّما نجد من كتب تراجم الصوفية إلاّ ونجد لهم مقاماً وذكراً. .

وبعد الإمعان والتدقيق في حياة هؤلاء الثمانية، تبين أن سبعةً منهم كانوا من المجاهدين. وأولهم:

«أويس القرني»: خير التابعين بشهادة سيد المرسلين، الذي ذكره (ﷺ) وأوصىٰ أصحابه بطلب الدعاء والاستغفار منه، وقال: «يدخل في شفاعته مثل ربيعَة ومضر»[(٢)].

---

(١) زهد الثمانية من التابعين رواية ابن أبي حاتم ت: عبد الرحمن الفرتواني.

(٢) انظر: زهد الثمانية ص ٤٦، وأخرجه أحمد في الزهد ص ٣٢٤، وذكره الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام (ج ٢ ص ٥٥٨) وابن حجر في الإصابة في تمييز الصحابة (رقم ٥٠٠) وانظر عن فضائل أويس القرني صحيح مسلم (باب فضائل الصحابة).

يروي الثقات، كلام أسير بن جابر: أنّ محدِّثاً كان بالكوفة يحدّثنا، فإذا فرغ من حديثه، تفرّقوا، ويبقىٰ رهط فيهم رجل [هو أُويس] كان يتكلّم بكلام لا أسمع أحداً يتكلّم كلامه، فأحببناه، ثم انقطع عن المجلس، فاستدللت مكانه وقلت له: يا أخي ما حبسك عنّا؟ قال: العري[1]. ثم قال: الوحدة أحبّ إليَّ. وقدم عليه هرم بن حيان، فقال له: أهلاً بأخي هرم، فقال له: كيف عرفتني؟ فأجاب: عرفت روحي روحك.

ويبدو مما تقدّم، أنّ الكلاباذي ـ المتوفىٰ سنة (٣٨٠ هـ) ـ عدَّ أويساً من أوائل رجال الصوفية، ممن نطق بعلومهم، ونشر مقاماتِهم، ووصف أحوالهم، قولاً وفعلاً[2].

وكان أويس من أكابر الزهاد، لا يخلد إلىٰ النوم إلاّ بعد أن يوزّع كل ما يملك علىٰ الفقراء، ويدعو: اللهم من بات جائعاً فلا تؤاخذني به. وعندما سُئل عن حاله، قال: إنّ الموت لم يُبْقِ لمؤمن فرحاً، وإنّ معرفة المؤمن بحقوق الله، لم تُبقِ له ذهباً ولا فضّة.

ذلك غيض من فيض، من أخبار أويس الروحاني، المتّزر برداء صوف، الأشعث الأغبر، المجهول في الأرض، المعروف في السماء، الذي لو أقسم علىٰ الله لأبرّه.

اتفق أصحاب التواريخ، علىٰ أنّه مات في إحدىٰ المعارك، واختلفوا في المكان والمناسبة. قال ابن عساكر: خرج أويس راجلاً إلىٰ ثغر أرمينيا، فأصابه البطن، فالتجأ إلىٰ أهل خيمة، فتوفي هناك[3].

وعن عبد الله بن سالم، قال: غزونا أذربيجان في زمن عمر بن

---

(١) الزهد للإمام أحمد ص ٣٢٣، الطبقات الكبرىٰ لابن سعد ج ٦ ص ١٦١، حلية الأولياء ٢/ ٧٩.

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٢٢.

(٣) تهذيب تاريخ دمشق ج ٣ ص ١٧٧، الزهد لأحمد ص ٤١٦.

الخطاب رضي الله عنه ومعنا أويس، ولما رجعنا، مرض علينا، فلم يستمسك، فمات، فنزلنا فإذا كفن، وقبر محفور، وماء مسكوب، فغسلناه، وكفّنّاه، وصلّينا عليه، ودفنّاه، فقال بعضنا لبعض: لو نزلنا وعرَّفنا قبره، فإذا لا قبر ولا أثر[١]. وفي رواية، أنّه قتل يوم صفّين، أو يوم نهاوند، والله أعلم.

وثانيهم العابد الزاهد:

«أبو مسلم الخولاني»: صاحب المناقب الغزيرة، والكرامات الظاهرة، كان يقال له حكيم هذه الأمة، وهو الذي طرحه الأسود العنسي ـ المتنبىء باليمن ـ في النار، فلم تضره.

وقد ورد إلىٰ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقبَّله، وبكىٰ، وقال: الحمد لله الذي لم يمتني، حتىٰ أراني في أمّة محمد ﷺ، من فعل به كما فعل بإبراهيم عليه السلام. وفي الكواكب الدريّة في تراجم السادة الصوفية: أنّه غزا الروم مع أصحابه، فكان يعترضهم النهر العظيم، فيقول: بسم الله، ويمرّ علىٰ وجه الماء، ويمرّون خلفه[٢]. وقال ابن كثير وغيره: «وكان ملازماً للجهاد، وفي كل سنة يغازي بلاد الروم، وله مكاشفات، وأحوال، وكرامات كثيرة جداً»[٣].

قيل له [وهو في الثغر] ما يحملك علىٰ الصيام وأنت مسافر؟ فقال: لو حضر قتال لأفطرت، إنّ الخيل لا تجري إلىٰ الغايات وهي بُدُن، وإنّما تجري وهي ضُمُر.

ومن أخباره أنه كان لا يجالس أحداً يتكلم في شيء من أمور الدنيا،

---

(١) صفة الصفوة ج ٣ ص ٥٦، روح القدس لابن عربي ص ٤٣، طبقات الخواص للزبيدي ص ٤١، الزهد لأحمد ص ٣٢٧، حلية الأولياء ج ٢ ص ٨٣.
(٢) ج ١ ص ٨٥، وانظر طبقات الأولياء للسخاوي خ (٨٧ أ)، طبقات الخواص ١٩٢.
(٣) شمائل الرسول ص ٥١٧، البداية والنهاية ج ٨ ص ١٤٦.

ويقول: كان الناس ورقاً لا شوك فيه، فإنهم اليوم شوك لا ورق فيه.

وحكي: أنّه علّق سوطاً، ويقول: أنا أولىٰ بالسوط من الدواب[١].

وقال له رجل: أوصني، قال: اذكرِ الله، حتىٰ يحسبك الناس ـ من ذكر الله ـ مجنوناً[٢].

مات أبو مسلم بداريّا، في خلافة معاوية. قال الإمام النووي: «وبداريا قبران مشهوران، يقصدان للزيارة، لسيدين جليلين: أبي مسلم الخولاني، وأبي سليمان الداراني»[٣].

وثالثهما:

«هرم بن حيان»: كان من العبّاد الخشن، المتجردين للعبادة[٤]. وهو من عظماء الطريقة، كما يقول الهجويري المتوفىٰ (٤٧٠ هـ) في كشف المحجوب[٥]، فضلاً عن كونه أحد الأبطال الأشدّاء في الحروب. سمع من عمر وعثمان ـ رضي الله عنهما ـ وسمع منه الحسن البصري، وقال عنه: لو طالبَنا الله بمثل ما كان عليه هرم، لهلكنا.

وفي طبقات ابن سعد وغيره: أنّ هرماً مات في غزاة له، في يوم صائف، فلما فُرغ من دفنه، جاءت سحابة، فرشَّت القبر حتىٰ تروّىٰ، لا تجاوز القبر منها قطرة واحدة، ثم انصرفت[٦]. وكان قد أوصىٰ قبل موته: أَنْ بيعوا درعي، واقضوا عنّي دَيني.

من مأثوراته: ما رأيت كالنار، نام هاربها، ولا كالجنّة، نام طالبها.

---

(١) صفة الصفوة ج ٤ ص ٢٠٨.
(٢) تاريخ دمشق (ترجمة أبو مسلم الخولاني) وانظر الزهد للإمام أحمد ص ٣٦٠.
(٣) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ج ٣ ص ١٠٨.
(٤) مشاهير علماء الأمصار ص ١٥٠.
(٥) ص ١٠٥.
(٦) ج ٧ ص ٩٤ وانظر الزهد لأحمد ص ٢٨٥، تاريخ الإسلام للذهبي ج ٣ ص ٢١٢.

ورابعهم:

«**عامر بن عبد الله بن قيس**»: كان يُصلّي كلّ يوم ألف ركعة، وهو ممن تخرّج علىٰ أبي موسىٰ الأشعري، في النسك والتعبُّد، وعنه أخذ الطريقة، كما في الحلية[١].

قال عنه مالك بن دينار: «عامر بن قيس، راهب هذه الأمّة».

ويروىٰ عن عامر، العبارة المشهورة التي تتردد في بعض كتب التصوف: «فوالله ما أبالي امرأة رأيت أم حائطاً»[٢]. وقد استدلّ بهذا القول، الإمام أحمد في كتابه: الزهد[٣].

وعن جهاده وزهده في حطام الدنيا، نسوق هذه الحكاية كما رواها ابن الجوزي: لمّا جمع المسلمون الغنائم في إحدىٰ المعارك، أقبل عامر بوعاء قد جمع فيه من أموال الغنيمة، فدفعه إلىٰ القائم علىٰ جمع الغنائم.

فقال الذين معه: ما رأينا مثل هذا قطّ، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه. فقالوا له: من أنت: فقال: لا والله لا أخبركم لتحمدوني، ولا أُخبر

---

(١) ج ٢ ص ٩٤.

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٤٢ (باب الفناء).

(٣) ص ٢١٥، وهذا الكلام الذي قاله عامر: نجد له أصلاً في الحديث القدسي: «ما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه فإذا أحببته كنت سمعه... وبصره...».

يقول الشيخ ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في سياق كلامه عن مقامات الفناء (مجموعة الرسائل ص ٦٤ وما بعدها) فيذكر منها: الفناء عن شهود السوي، وهو يحصل لكثير من السالكين، فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلىٰ ذكر الله، وعبادته، ومحبته، ضعُفت قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد، وترىٰ غير ما تقصد،... فإنهم لا يخطر بقلوبهم غير الله، بل ولا يشعرون... فقد يقول في هذه الحالة: أنا الحق، أو سبحاني، أو ما في الجبة إلا الله، ونحو ذلك، وهو سكران بوجد المحبة، الذي هو لذة وسرور. وانظر هامش ص ٦٠ من الكتاب.

غيركم. فأتبعوه رجلاً حتىٰ انتهىٰ إلىٰ أصحابه، فسأل عنه، فإذا هو عامر بن قيس[(١)].

وفي الزهد لابن المبارك أخبار عن بلاء عامر البلاء الحسن في الجهاد، وفيه أيضاً بعض الكرامات وقعت له في الغزو.

يؤثر عنه قوله: رأيت نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ وصحبتهم، فحدّثونا: أن أصفىٰ الناس إيماناً يوم القيامة، أشدّهم محاسبةً لنفسه في الدنيا، وإن أشدّهم فرحة يوم القيامة، أشدّهم حزناً في الدنيا[(٢)].

وخامس الذين انتهىٰ إليهم الزهد:

«الربيع بن خيثم» ت (٦٧ هـ) الذي قال عنه عبد الله بن مسعود: «لو رآك رسول الله ﷺ لأحبّك»[(٣)].

من أخباره: أنه غزا علىٰ فرس، وبعد عودته سُرقت من أمامه، وهو قائم يصلّي، قال الربيع: لم يشغلني عن مناجاة ربي شيء. اللهم إن كان السارق غنياً فاهده، وإن كان فقيراً فأغنه[(٤)].

ومن كلامه: «إنّ للحديث ضوءاً كضوء النهار تعرفه، وظلمة كظلمة الليل تنكره»[(٥)]. قيل له حين أصابه الفالج: لو تداويت؟ فقال: قد علمت أنّ الدواء حقّ، ولكني ذكرت عاداً وثموداً وقروناً بين ذلك كثيرة، كانت فيهم الأوجاع، وكانت لهم الأطبّاء، فما بقي المداوىٰ، ولا المداوي[(٦)].

---

(١) صفة الصفوة ج ٣ ص ١٣٩.
(٢) الزهد لأحمد ص ٢١٧.
(٣) حلية الأولياء ٢/١٠٦.
(٤) الزهد لأحمد ص ٣١٤.
(٥) ن م. ص ٣٢٠.
(٦) ن م ص ٣١٣ وانظر زهد الثمانية ص ٢٢، إحياء علوم الدين٤/ ٣٠٤ وفيه أيضاً أن الربيع ممن كانوا يصلون الصبح بوضوء العشاء (١/ ٤٢٤).

قال الذهبي: هو قليل الرواية، إلا أنّه كبير الشأن، وكان يعدّ من عقلاء الرجال.

وسادسهم العالم بربه:

مسروق بن الأجدع الكوفي: كان إذا قحط المطر، يستسقىٰ بقبره. أخذ في أحد الأيام بيد ابن أخ له، فارتقىٰ به علىٰ كُنَاسَة [مزبلة] بالكوفة، وقال له: ألا أُريك الدنيا ؟. وعن الشعبي قال: حضرت مسروقاً الوفاة، فلم يترك ثمن كفن.

وكان آخر كلامه: اللهم لا أموت علىٰ أمر لم يسنّه رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر، ولا عمر، والله ما تركت صفراء ولا بيضاء، غير ما في سيفي هذا، فكفّنوني به[١].

وعن هشام الكلبي عن أبيه قال: كان مسروق قد شهد القادسية، وجُرح، فشُلَّت يده[٢].

صحب مسروق كثيراً من أصحاب النَّبي ﷺ، وقال في حقّهم: وجدت قلوبهم أوعيةً للعلوم، بما رزقت من صفاء الفُهوم[٣].

وممن كان يصحب مسروقاً في الحروب:

عمرو بن عتبة بن فرقد الكوفي، وقد ترجمت له بعض تصانيف الصوفية، وألحقته مع الذين انتهىٰ إليهم الزهد. قال ابن سعد: كان من المجتهدين في العبادة، فكان وجهه مصفرّاً. قرأ كلامه تعالىٰ: ﴿وأنذِرهم﴾، فبكىٰ حتىٰ انقطع، فما جاوزها حتىٰ أصبح[٤].

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٦ ص ١٤٠.
(٢) ن.م ج ٦ ص ١٤٤ وانظر حلية الأولياء ج ٤ ص ١٥٥.
(٣) عوارف المعارف للسهروردي. باب (منشأ علوم الصوفية).
(٤) طبقات ابن سعد ج ٦ ص ٢٠٦.

وهـذه الصـورة ليسـت تطـرُّفـاً فـي العبـادة، كمـا يـوهمنـا بـذلـك المستشرقون، ومن لفّ لفّهم. فقد وصف عليّ بن أبي طالب ـ كرّم الله وجهه ـ الصحابة رضوان الله عليهم بقوله: (كانوا يصبحون صُفراً، شُعثاً، غُبراً، قد باتوا سُجَّداً وقياما، فإذا أصبحوا فذكروا الله، مادوا كما يميد الشجر يوم الريح، وهملت أعينهم حتىٰ تبتلّ ثيابهم)[1].

ذُكر أن عمرو بن عتبة، كان يصلّي والغمام فوق رأسه تقيه حرَّ الشمس. وعن مولاه قال: «كنا نخرج إلىٰ العدوّ، فلا نتحارس، لكثرة صلاته»[2]. وخرج معهم في إحدىٰ الغزوات، فوجدوا في طريقهم أسداً، ولـم يهرب عمرو، فقيل له أما خفت الأسد؟ فقال: إني أستحي من الله، أن أخاف شيئاً سواه.

قال ابن الجوزي: لا يُعرف لعمرو مسند، شغلته العبادة عن الرواية. واستشهد[3] في غزاة أذربيجان، في خلافة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ.

وسابعهم زاهد الأمّة:

الحسن بن أبي الحسن البصري (٢١ـ١١٠ هـ): لا نجد كتاباً من كتب تراجم الصوفية، إلا وهو الصدر المبرَّز فيهم، وهم يعدّونه في هرم سلسلة شيوخهم، وناشر علومهم.

قال أبو طالب المكي المتوفىٰ (٣٨٦ هـ): كان الحسن ـ رضي الله عنه ـ أوّل من أنهج سبيل هذا العلم، وفتق الألسنة به، ونطق بمعانيه،

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا وابن عساكر، كما في كنز العمال ج ٨ ص ٢١٩، وانظر نص الحديث كاملاً في حياة الصحابة ج ١ ص ٢٦.
(٢) الزهد لأحمد ص ٤٢٣، الكواكب الدرية ج ١ ص ١٤٤.
(٣) صفة الصفوة ج ٣ ص ٧٠، الكواكب الدرية ج ١ ص ١٤٧، الحلية ٤/ ١٥٥.

وأظهر أنواره، وكشف قناعه[١]. وأيضاً، يعدّ الدارسون المحدثون الحسن واضع قواعد ومرتكزات حركة الزهد والتصوف في الإسلام، وممن جمعوا بين علمَيْ الظاهر والباطن.

قيل له مرّة: إن الفقهاء يخالفونك، ويقولون كذا وكذا، فقال: وهل رأيتم فقيهاً قطّ ؟ إنّما الفقيه الورع، الزاهد في الدنيا[٢]. وقال: أُخبركم إنني اصطحبت أقواماً، كانوا فيما أحلّ الله لهم، أزهد منكم فيما حرم الله عليكم[٣].

وقد لقي أكثر من مائة صحابي وورد عنه قوله: «أدركت سبعين بدريّاً، وصلّيت خلفهم، ما كان لباسهم إلا الصوف، لو رأيتموهم لقلتم: مجانين»[٤]. وقال: ما كُل الناس يصلح للبس الصوف، لأنّه يتطلّب صفاء ومراقبة.

والذي يهمنا هنا قول ابن سعد: إنّ رجلاً سأل الحسن: يا أبا سعيد، هل غزوت ؟ قال: نعم، غزوة كابل، مع عبد الرحمن بن سمرة[٥]. ويعضد هذا كلام الحفّاظ: لازم الحسن الجهاد، ولازم العلم والعمل، وكان أحد الشجعان الموصوفين في الحرب[٦]. وهو القائل: «ما عُمل

---

(١) قوت القلوب ج ١ ص ١٥٠.

(٢) أورد هذه العبارة ابن سعد في طبقاته والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه والإمام أحمد في الزهد.

(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة (كتاب الزهد) الزهد للإمام أحمد ص ٣١٨ إحياء علوم الدين ٤/ ٢٥٥.

(٤) زهد الثمانية ص ٣٧، التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٤، الحلية ج ٦ ص ١٩٦.

(٥) الطبقات الكبرىٰ ج ٣ ص ١٧٥. وفي تهذيب الأسماء واللغات للنووي ج ١ ص ١٦٢ أن الحسن قال: غزونا إلىٰ خراسان ومعنا ثلاثمائة من أصحاب رسول الله ﷺ.

(٦) تذكرة الحفاظ للذهبي ج ١ ص ٧١، تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ج ١ ص ٤٨٣.

عملٌ بعد الجهاد في سبيل الله، أفضل من ناشئة الليل»[1].

وله كلمات سائرة، منها: «للمحبّ سكرات لا يفيق منها إلا عند مشاهدة محبوبه» ومنها: «لو كان لي مثل جبل أُحد ذهباً، لأنفقته علىٰ قراءة مولد رسول الله ﷺ»[2].

ذكر ابن كثير: أن الحكمة، والعلوم، التي أُوتيها الحسن، من بركة الرضاعة، من ثديي أم سلمة ـ زوج الرسول(ﷺ) ـ.

وكانت أمّه تُخرجه وهو صغير إلىٰ الصحابة، فيدعون له، وممن دعا له عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وقال: «اللهم فقّهه في الدين، وعلّمه التأويل». قال أبو قتادة وغيره: «عليكم بهذا الشيخ، فوالله ما رأينا أشبه بأصحاب النَّبي ﷺ منه». وقال يونس: «كان الرجل إذا نظر إلىٰ الحسن، انتفع به، وإن لم يرَ عمله، ولم يسمع كلامه».

ومهما يكن من أمر، فإنّ هذه الطائفة، من الزهّاد والعبّاد المجاهدين، وغير المجاهدين، الذين ظهروا أبّان القرن الأول، وتشرّفوا بصحبة أصحاب رسول الله ﷺ، وتخرجوا علىٰ هذه المدرسة النبوية الروحية العظيمة، من إعراض عن الدنيا، وإقبال علىٰ الله، وجهاد في سبيله، هذه الطائفة امتدّت، واستمرّ ظهورها في القرن الثاني، وما بعده، تحت اسم الصوفية[3].

* * *

---

(١) الزهد لأحمد ص ٣٤٨.

(٢) إعانة الطالبين للدمياطي ج ٣ ص ٣٦٤.

(٣) اصطلاح التصوف ظهر في القرن الثاني الهجري نلمس ذلك من تصانيف بعض العلماء: كالقشيري في رسالته، والخطيب في تاريخه، وابن خلدون في مقدمته، وابن تيمية في فتاويه. وانظر ص ٣٦ من الكتاب.

الفصل الرابع

أوائل المجاهدين من الصوفية في القرن الثاني

يُجمع المؤرخون المنصفون للتصوف علىٰ أنّه وليد حركة الزهد والنسك في الإسلام. وعليه فمن الطبيعي أن يرث الصوفية عن هؤلاء الزهّاد، والعبّاد، جهادهم أيضاً في سبيل الله. وهذا ما سوف نراه جليّاً خلال عرضنا لحياة بعض الصوفية المجاهدين، من المتقدمين، والمتأخرين، وليس المهمّ هنا الاستقصاء، بل توجيه الأنظار إلىٰ أمر هام غفل عنه الدارسون للتصوف ورجاله، فمع مطلع القرن الثاني:

بدأت تتوضّح تدريجياً كلمة الصوفي، نلمس ذلك من أخبار عارفَيْن بالله، مجاهدَيْن، وهما: محمد بن واسع، ومالك بن دينار(١). صحب أحدهما الآخر، وتردّدا إلىٰ حلقات الحسن البصري، فكانا يُصغيان له، وهو يتكلم في آفات النفوس، وفساد الأعمال، وأسرار القلوب، حياتها، وموتها. ولهم حكايات في السلوك، والرياضة، والمجاهدات.

وقصة الأول مع والي خُراسان، مشهورة. فقد دخل «**محمد بن واسع**» علىٰ قتيبة بن مسلم الباهلي، وعليه مدرعة صوف خشنة، فقال له قتيبة: ما يدعوك إلىٰ لباس هذه؟ فسكت محمد، ثم أجابه: أكره أن أقول زهداً

---

(١) توفي مالك سنة ١٣١ هـ وتوفي محمد بن واسع سنة ١٢٣ هـ.

فأُزكي نفسي، أو أقول فقراً فأشكو ربي[1].

وقد عُرف عن محمد بن واسع جهاده في خراسان، ومرافقته قتيبة في فتح ما وراء النهر[2]. وقد جعل قتيبة مرةً يكثر السؤال عنه، فأُخبر أنّه في ناحية من الجيش متكئاً علىٰ قوسه، رافعاً إصبعَه إلىٰ السماء، ينضنض بها، فقال قتيبة: لإصبعه تلك، أحبّ إليَّ من مائة ألف سيف شهير[3].

روىٰ ابن واسع قليلاً عن الحسن، فقد كان طويل الصمت، وعُدَّ من الأبدال[4].

ومن كلامه: «ما رأيت شيئاً، إلا ورأيت الله فيه»[5].

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٦ ص ٢٢٥، إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٤٩.

(٢) مشاهير علماء الأمصار ص ١٥١.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٢٧٣ ت. عبد السلام هارون القاهرة ٩٤٨، وانظر حلية الأولياء ٢/ ٣٥٣.

(٤) انظر: الزهد للإمام أحمد ص ٣٠٧، والأبدال: هم الأولياء والعبّاد، وقد جاء ذكرهم في عديد من الأحاديث والآثار، كما في أوسط الطبراني، والجامع الصغير للسيوطي، ومسند الإمام أحمد. وتتكرر عند الإمام الشافعي، وأحمد، والبخاري، وابن أبي الدنيا، وغيرهم عبارة: «لا شكّ أنّه من الأبدال». ونقل ابن كثير، في شمائل الرسول ﷺ قول علي بن أبي طالب: «لا تسبّوا أهل الشام، فإن بها الأبدال».

(٥) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٧٠، ويعلق الهجويري ت (٤٧٠ هـ) في كشف المحجوب ص ١١٥ علىٰ هذه العبارة: إن المرء عندما تغلبه المحبة للذات الإلهية، يصل إلىٰ مرحلة، لا يرىٰ فيها الصنع، وإنما يرىٰ الصانع، وقال أحد العارفين: أراد بهذه الرؤية الشهود، لا رؤية البصر، لأن الرؤية من خصائص البصر، والشهود من خصائص البصيرة. وقال الجامع لعلوم الشريعة والحقيقة سيدي الشيخ علوان الحموي ت (٩٣٦ هـ) في أحكام النظر ص ١٨٧: مذهب أهل الحق أن مولانا عز وجل لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء، وكلما ورد عليك مما يوهم ظاهره الحلول، فأوِّلْهُ. وقال الشيخ ابن عربي في الفتوحات ج ٤ ص ٣٧٢، ٣٧٩: وما قال بالاتّحاد إلاّ أهل الإلحاد، ومن قال بالحلول، فهو معلول، لا دواء له. وقال الشيخ ابن تيمية في مجموعة الرسائل والمسائل ص ٦٨: إذا قال قائل ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه أو قبله أو بعده، بمعنىٰ ظهور آثار الصانع في صنعته، فهذا القول صحيح بل القرآن كله مبيّن هذا، وهو سبحانه نور السماوات والأرض.

وأمّا «مالك بن دينار» فهو يُعدّ من كبار أهل الطريقة، وممن نطق بعلوم الصوفية[١]. يروي صاحب كنوز الأولياء عنه: أنّه (كان في طلب الغزو سنين، فركب بعسكر الإسلام للغزو، فلما شرعوا أخذته الحُمّى، حتىٰ غدا لا يقدر القعود علىٰ الفرس، فضلاً عن أن يقاتل، فحملوه إلىٰ الخيمة، وجعل يبكي، ويلوم نفسه، ويقول: لو أنّ في بدني خيراً، لمَا يبتلىٰ اليوم بالحُمَّى[٢]. . .) والحكاية لها بقيّة تركناها مخافة التطويل.

من أقوال مالك:

«إذا عَلِق بالقلب حُبّ الدنيا، لم ينجع فيه المواعظ». ومنها: «كفىٰ بالمرء شرّاً أن لا يكون صالحاً، ويقع في الصالحين».

وإذا ما انتقلنا إلىٰ منتصف القرن الثاني، نجد شخصية: **«عتبة الغلام»** أحد العبّاد المشهورين البكّائين، كان إذا قرأ القرآن بكىٰ، وأبكىٰ، ولذا كانوا يشبّهونه بالخوف والحزن بالحسن البصري، وصلة بن الأشيم[٣]. وقد عُرف بالغلام، لأنّه تنسَّك وهو صبي. جاء في الحلية عن عتبة أنه قال: اشتروا لي فرساً، يغيظ المشركين إذا رأوه.

ونُقل عن ابن مخلد الصوفي قال: جاءَنا عتبة الغلام، فقلنا له: ما جاء بك ؟ قال: جئت أغزو، قال: قلت: مثلكَ يغزو ؟ فقال: إنّي رأيت في

---

(١) كشف المحجوب ص ١١٢، التعرف ص ٢٢.

(٢) خ: الورقة ٦٠ أ.

(٣) صلة بن الأشيم العدوي: أحد العباد المشهورين، لقي عدّة من الصحابة، قالت امرأته: كان يصلي حتىٰ يأتي فراشه زحفاً، وقال ابن حبّان: كان يرجع إليه الجهد الجهيد والورع الشديد، مع المواظبة علىٰ الجهاد براً وبحراً، دخل سجستان غازياً، وقتل بكابل، في ولاية الحجاج بن يوسف. له كرامة مشهورة، جرت معه في إحدىٰ الغزوات، وذكرها صاحب الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ج ١ ص ١٢٥.

المنام أني آتي (المصيصة)[1]، فأغزو، فأستشهد، قال: فمضىٰ مع الناس، فلقوا الروم، فكان أول رجل استُشهد.

من مأثوراته: «لا عقل كمخالفة الهوىٰ، ولا فقر كفقر القلب، ولا فضيلة كالجهاد».

وممن صحب عتبة في بعض مغازيه، وساح معه في بلاد الشام، وعلىٰ السواحل[2]:

«عبد الواحد بن زيد» يقول رضي الله عنه: تهيأنا ذات يوم للخروج إلىٰ الغزو، وقد أمرت أصحابي أن يتهيّؤوا لقراءة آيتين، فقرأ رجل في مجلسنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[3] [التوبة: ١١١] . وقد امتاز عبد الواحد بن زيد، بوعظه المؤثّر، حتىٰ كان يُغشىٰ علىٰ كثير من سامعيه، وهو من الشيوخ الكبار الذين تكلموا في مواجيد الصوفية وأذواقهم. وعدَّه الدارسون في طليعة مَن استفاضوا في الحديث عن مقام الرضىٰ، والحبّ المتبادل، بين الله عز وجل وأوليائه.

يقول: «ما أحسب شيئاً من الأعمال يتقدّم الصبر إلا الرضىٰ، ولا أعلم درجة أرفع ولا أشرف من الرضىٰ، وهي رأس المحبة». رأىٰ عبد الواحد الحسن البصري، ومن جملة ما أسند عنه: «لكل طريق مختصر، ومختصر طريق الجنة الجهاد»[4].

وروىٰ عن هذا العارف المجاهد غير واحد، منهم: الفضيل بن عياض ت (١٨٧ هـ).

---

(١) المصيصة: قال (ياقوت): مدينة علىٰ شاطىء جيحان من ثغور الشام، رابط بها الصالحون قديماً. وانظر عنها مفصلاً: فتوح البلدان للبلاذري ص ١٧٠ وما بعدها.

(٢) حلية الأولياء ج ٦ ص ١٦٠، ١٦٢.

(٣) روض الرياحين في حكايات الصالحين ص ٣٦.

(٤) حلية الأولياء ج ٦ ص ١٥٧.

ولمّا كانت الحياة الدنيا لعباً ولهواً كما نصّت الآية الكريمة، انزوىٰ عنها أولياء الله، وأحبابه، ورأوا فيها جيفة قذرة، وطلاّبها كلاب، كما أخبر صلوات الله عليه وسلامه. ومن الذين هجروها اشتهر:

«**إبراهيم بن أدهم**» الذي يعدّ إمام المتصوفين الروحانيين، كان أبوه ملكاً، لكن الابن تزهّد اختياراً، لا اضطراراً، وساح في البلاد، وجعل الثغور الإسلامية له مقاماً.

يذكره ابن عساكر: أنّه كان فارساً شجاعاً، ومقاتلاً باسلاً[١]، رابط في الثغور، وخاض المعارك علىٰ البيزنطيين، العدو الرئيسي للدولة الإسلامية الناشئة.

وقد أثنىٰ علىٰ ورعه وزهده الإمام أحمد بن حنبل، والأوزاعي، وسفيان الثوري، والنَّسائي، وغيرهم.

وقال ابن حبان: إبراهيم بن أدهم، مولده ببلخ، ثم خرج إلىٰ الشام، طلباً للحلال المحض، فأقام بها غازياً ومرابطاً، يلزم الورع الشديد، والجهد الجهيد إلىٰ أن مات[٢]. واختُلف في وفاته، والأصح ما ذكره ابن كثير وياقوت: أنه مات وهو قابض على قوسه، يريد الرمي به إلىٰ العدو، وذلك وهو مرابط في جزيرة من جزائر بحر الروم سنة (١٦٢ هـ)[٣]. من أقواله: أشدّ الجهاد جهاد الهوىٰ، من منع نفسه هواها، فقد استراح من الدنيا وبلاها.

وقد صحب إبراهيم، وأخذ عنه الطريق:

---

(١) انظر: تهذيب تاريخ دمشق ج ٢ ص ١٧٩ وما بعدها، حلية الأولياء ج ٧ ص ٣٨٨ وما بعدها وانظر: مجلة التراث العربي، مقال: «إبراهيم بن أدهم» العددان ١١ـ١٢ لعام ١٩٨٣.

(٢) مشاهير علماء الأمصار ص ١٨٣.

(٣) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٤٥، معجم البلدان مادة: «سوقين».

«شقيق البلخي» قال حاتم: كنّا مع شقيق في مصاف، نحارب الترك، في يوم لا تُرى إلا رؤوسٌ تطير، ورماحٌ تقصف، وسيوفٌ تقطع، فقال لي: كيف ترىٰ نفسك يا حاتم في هذا اليوم؟ تراه مثل ماكنت في الليلة التي زُفّت إليك امرأتك؟ قال: لا والله. قال: لكنّي والله، أرىٰ نفسي في هذا اليوم، مثل ما كنت تلك الليلة. ومات في غزوة كوملان[1]، [ما وراء النهر] سنة (١٩٤ هـ).

وحكايةٌ أُخرىٰ عن شقيق البلخي نرويها هنا للفائدة، قال: خرجنا في غزاة لنا، في ليلة مخوّفة، فإذا رجل نائم، فأيقظناه، فقلنا: تنام في مثل هذا المكان؟ فرفع رأسه، فقال: إنّي لأستحي من ذي العرش، أن يعلم أنّي أخاف شيئاً دونه. ثم ضرب برأسه فنام.

وممن صحب إبراهيم بن أدهم في سواحل الشام، وبغزواته البحرية:

«علي بن بكّار» سكن المصيصة مرابطاً، إلىٰ أن مات بها سنة (١٩٩ هـ)[2].

وصفه صاحب الحلية بـ: «المرابط الصبّار، والمجاهد الكرّار، كان يصلي الغداة بوضوء العتمة». قال ابن الجوزي: «بلغنا عن علي بن بكار، أنه طُعِن في بعض مغازيه، فخرجت أمعاؤه، فردّها إلىٰ بطنه، وشدّها بالعمامة، وقاتل حتىٰ قَتل ثلاثة عشر علجاً»[3].

من وصاياه قوله: اتّقِ الله، وأمسك لسانك، واترك مخالطة الناس، تتنزّل عليك الرحمة من فوقك.

---

(١) سير أعلام النبلاء ج ٦ ص ٣١٣، تهذيب ابن عساكر ج ٦ ص ٣٣٥، حلية الأولياء ج ٨ ص ٦٤ الأعلام ج ١ ص ١٧١.

(٢) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ج ١ ص ١٤١.

(٣) صفة الصفوة ج ٤ ص ٢٦٦. والعِلْج: الرجل القوي الضخم من كفار العجم = لسان العرب.

ومن أقران هؤلاء الذين ذكرنا:

«عبد الله بن المبارك» وشهرته تغني عن الإطالة في ترجمته، كان يغزو سنة، ويحجّ سنة، ويتجر سنة، وما يحصل من تجارته، يوزّعه علىٰ الفقراء.قال عنه الخطيب البغدادي:

«وكان من الربّانيين في العلم، ومن المذكورين بالزهد. . .

خرج من بغداد يُريد [ثغر] المصيصة فصحبه الصوفية. . .»[(١)].

والقصة طويلة، وطريفة، وتحتاج إلىٰ مكان أرحب.

وكان ابن المبارك كثير الانقطاع، محبّاً للخلوة، وقيل له: ألا تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وأنا مع النَّبي ﷺ وأصحابه[(٢)]!.

ينقل الحافظ ابن حجر العسقلاني، كلام الخليلي في الإرشاد: «لابن المبارك من الكرامات مالا يُحصىٰ، يقال إنّه من الأبدال[(٣)]. وقد صُدِّرت تراجم الصوفية باسمه»، وفي حلية الأولياء: سُئل ابن المبارك: مَنِ الناس؟ قال: العلماء، وقيل له مَنِ الملوك؟ قال: الزهّاد. وله كتاب: الزهد والرقائق، وهو أول من صنّف في الجهاد، ومع ذلك كان يفسّر الآية الكريمة: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨] هو مجاهدة النفس والهوىٰ وذلك حقّ الجهاد.

قال ابن عيينة: نظرت في أمر الصحابة، وأمر ابن المبارك، فما رأيت لهم فضلاً عليه، إلاّ بصحبتهم النَّبي ﷺ، وغزوهم معه. توفي رحمه الله سنة (١٨١ هـ) بهيت، منصرفاً من الغزو[(٤)]. وممن أدرك ابن المبارك:

---

(١) تاريخ بغداد ج ١٠ ص ١٥٧، ويروىٰ أن ابن المبارك ترك مرة فرسه لصاحب أحد البساتين لأنّه أكل شيئاً من زرعه، وقال: إنّه أكل حراماً فلا يجب أن يغزا عليه.

(٢) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٢.

(٣) تهذيب التهذيب ج ٣ ص ٢٤٧.

(٤) الكواكب الدرية ج ١ ص ١٧٦، صفة الصفوة ج ٤ ص ١٤٧، وهيت بلدة علىٰ الفرات في العراق.

«أبو سعيد الشهيد»، وكان صاحب بأس شديد، وقد حمل في إحدىٰ الغزوات، وقَتل نفراً من الأعداء قبل أن يستشهد، وقد أنشد قبل موته:

أحسِـن بمـولاك سعيـد ظنّـا هـذا الـذي كنـتَ لـه تمنّـىٰ
تنـحَّ يـاحـورَ الجنـان عنّـا مـالـكِ قـاتَلْنَـا ولا قُتلْنـا
لكـن إلـى سيـد كُـنّ اشتقنـا قـد علـم السـرَّ ومـا أعلنَّـا[1]

وممن جالس ابن المبارك في ثغر المصيصة واعظاً: مخلد بن حسين ت (١٩١ هـ). وأبو إسحاق الفزاري، إمام أهل الشام في المغازي[2]، وقد ترجم له صاحب الحلية بـ: «تارك القصور والجواري، ونازل الثغور والبراري»[3] ت (١٨٣ هـ).

وفي الطبقة ذاتها يلقانا: محمد أبو العباس السمّاك ت (١٨٣ هـ) الذي كان يرتاد الثغور[4]، وله مواقف في الدفاع عن أرض الإسلام، وفي وعظ الخليفة هارون الرشيد.

ويفرد لنا ابن الجوزي فصلاً خاصاً للصوفية الأوائل، الذين رابطوا في العواصم، والثغور، في القرن الثاني الهجري، منهم: محمد بن يوسف الأصبهاني ت (١٨٤ هـ)، وكان يُسمّىٰ عروس العبّاد، وقد لازم المصيصة حارساً. ومنهم ابن أبي إسحاق السبيعي، وقد توفي بالحَدَث من أرض الروم سنة (١٨٨ هـ). ومنهم: أبو معاوية الأسود، الذي كان يمضي معظم أوقاته مرابطاً في ثغر طرسوس[5]. ومنهم: أبو يوسف الغسولي، الذي كان يغزو مع أصحابه أرض الروم، ومنهم: يوسف بن

---

(١) حلية الأولياء ج ١٠ ص ١٦٥.
(٢) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٠٠.
(٣) ج ٨ ص ٢٥٣.
(٤) حلية الأولياء ج ٨ ص ٢٠٧.
(٥) طرسوس: مدينة بثغور الشام، بين انطاكية وحلب وبلاد الروم.

أسباط، الفتىٰ المرابط ت (١٩٩ هـ)[١]. ومهما يكن من أمر فإنّه كما قال أحد الباحثين:

(جسَّد الصوفية باندفاعهم إلىٰ ميادين الجهاد، الارتباط الإسلامي بين العبادة والجهاد، وأشاعوا في أماكن تواجدهم سواء في المعارك أو الثغور والرباطات شعوراً دينياً خاصاً، كان له أبعد الأثر في الصمود والنصر في كثير من المواقع)[٢].

* * *

---

(١) انظر: صفة الصفوة ج ٤ ص ٢٥٥ وما بعدها وفي مواضع متفرقة.

(٢) انظر مقال: (المطّوعة ودورهم في حراسة ديار العروبة والإسلام) مجلة العربي «الكويتية» العدد ٢٨٧ ت ١ ١٩٨٢ د. احسان صدقي.

الفصل الخامس

نماذج من الصوفية المجاهدين في القرن الثالث

ونلتقي في المصادر بالمئات من المتطوعين الصوفيين، من أهل القرن الثالث، خرجوا من ديارهم، ووقفوا حياتهم علىٰ جهاد الروم، ودرء خطرهم عن بلاد الشام، والجزيرة الفراتية، وكان مشايخهم يرافقونهم للموعظة والإرشاد، وبثّ الحماسة الدينية في نفوس المجاهدين، والتذكير بما أعدَّ الله لهم من ثواب عظيم. هذا وإذا لزم الأمر تقدّموا الصفوف. فممّا يُستفاد من رواية لابن العديم، أنه في هذا العصر تجمَّع الصوفية من كل صوب في ثغور الشام، إذ وفدوا إليها جهاداً في سبيل الله، للوقوف في وجه البيزنطيين. منهم: أبو القاسم الأبَّار، وأبو القاسم القحطبي، وأبو القاسم الملطي الصوفي الذي صحب الجُنيد البغدادي[1].

ومن مشاهيرهم:

حاتم الأصمّ[2]، القدوة الربّاني، كان يقال له لقمان هذه الأمّة.

---

(١) انظر: بغية الطلب ج ١٠ ص ٤٥٩١. وانظر: الحياة السياسية في بلاد الشام ص ٣٨٠ د. أمينة بيطار.

(٢) ولم يكن أصم، وإنما كانت امرأة تسأله فخرج منها ريح، فقال لها: ارفعي صوتك حتىٰ أسمع، فزال خجلها، وغلب عليه هذا الاسم.

ومما حدّث به حاتم عن نفسه، قال: لقينا الترك، ورماني أحدهم بوهق [حبل]، فأقلبني عن فرسي، ونزل عن دابته، فقعد علىٰ صدري، وأخذ بلحيتي هذه الوافرة، وأخرج من خفِّه سكيناً ليذبحني بها، فرماه بعض المسلمين بسهم، فما أخطأ حلقه، فسقط عني، فأخذت السكين من يديه فذبحته(١). وتوفي حاتم وهو مرابط علىٰ جبل فوق واشجرد(٢) سنة (٢٣٧ هـ).

وممن وَسِعَتْ شهرته الآفاق:

أبو يزيد البسطامي، الملقّب سلطان العارفين ت (٢٦١ هـ).

كان خلال وجوده في الثغر، يحرس طيلة الليل، ويرابط، ويتعبّد، ويذكر الله، ويذرف الدموع من خشيته. من أقواله:

«لم أزل منذ أربعين سنة، ما استندت إلىٰ حائط، إلاّ إلىٰ حائط مسجد، أو رباط». ويقول أيضاً: «أقامني الحق مع المجاهدين، أضرب بالسيوف في وجه أعدائه»(٣).

ويُعدّ أول من تكلم بالتصوف ببغداد، من صفاء الذكر، وجمع الهمّة، والمحبَّة والشوق، والقرب والأنس ـ وفق ما ذكر الخطيب في تاريخه ـ:

هو محمد بن إبراهيم **أبو حمزة الصوفي** ت (٢٦٩ هـ) «كان عالماً بالقرآن، جالس أحمد بن حنبل، وبشر بن الحارث، وكان له مُهر قد ربّاه، وكان يحب الغزو عليه»(٤).

قال الجنيد: «حُبِّب إلىٰ أبي حمزة الغزو، وكان يأتي بلاد الروم

---

(١) الأعلام ج ٢ ص ١٥٢.

(٢) شذرات الذهب وفيات ٢٣٧ هـ.

(٣) انظر: أبو يزيد البسطامي ص ٧٣ د. عبد الحليم محمود.

(٤) تاريخ بغداد ج ١ ص ٣٩٠.

والناس بالسلاح، وعليه جبّة صوف»[1].

ومن أكابرهم العارف بالله:

السّري السقطي ت (٢٥٣ هـ) الذي ينتمي إليه أكثر مشايخ الصوفية، حكىٰ عنه المؤرخون بعض المجاهدات، مارسها أثناء نزوله في أرض الروم[2].

ويتجلّىٰ رأيه في الجهاد، حين فسّر لأهل الثغر الآية الكريمة: ﴿ اَصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فقال: صابروا عند القتال بالثبات، والاستقامة. قال الحسن البزّار: سألت أحمد بن حنبل عن السرّي، بعد قدومه من الثغر، فأثنىٰ عليه[3]. من كلامه: «من صفات الصوفي أن لا يتكلم بباطنِ عِلْم، ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة».

ومن أعظم تلامذة السري: ابن أخته:

الجنيد محمد أبو القاسم الخزاز ت (٢٩٧ هـ). وقد أجمع العلماء قاطبة علىٰ فضله، وإمامته، وتقدّمه، حتىٰ عدّه ابن الأثير: «عالم الدنيا في زمانه». وقال ابن كثير في سياق ترجمته: «. . . سمع الحديث، وتفقّه، ولازم التعبّد، ففتح الله عليه بسبب ذلك علوماً نافعة كثيرة، وأموراً لم تحصل لغيره في زمانه، وكان يعرف سائر فنون العلم. . . ».

وقد أثنىٰ عليه الشيخ ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بقوله: «الجنيد رضي الله

---

(١) طبقات الأولياء للسخاوي ورقة ٦١ أ.

(٢) انظر: تاريخ بغداد ج ٩ ص ١٨٨.

(٣) صفة الصفوة ج ٢ ص ٣٧٨ وفي الحقيقة كان هناك ثناء واضح من الإمام أحمد علىٰ شيوخ صوفية عصره حتىٰ أنّه عدّ بشر الحافي من الأبدال (تاريخ بغداد ٧/ ٧٢) كما أخذ عن أبي تراب النخشبي (الأعلام ٤/ ٢٣٣) وكان يعظّم أبا حمزة الصوفي ومعروف الكرخي والحارث المحاسبي. وعدّ ابن تيمية الإمام أحمد ممن تكلم في علوم الصوفية (الصوفية والفقراء).

عنه سيد الطائفة، إمام هدىٰ» إلىٰ أن قال: ومن خالفه فمن أهل الضلال[1].

والحقّ، أنّ ملازمة الجنيد للتعبّد، لم تمنعه عن الجهاد في سبيل الله. وقد حُكي عنه أنه قال:

«خرجت يوماً في بعض الغزوات، وكان قد أرسل إليَّ أمير الجيش شيئاً من النفقة، فكرهت ذلك، ففرّقته علىٰ محاويج الغزاة...»[2].

من مأثورات الأستاذ أبي القاسم الجنيد:

«لكلّ أمّة صفوة، وصفوة هذه الأمة الصوفية». ومنها أيضاً: «التصوف صفاء المعاملة مع الله، وأصله الصرف عن الدنيا، كما قال حارثة: صرفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري..».

ونمضي مع العصر، ويلقانا:

إسماعيل أبو إبراهيم الصوفي، أخو إبراهيم الخواص، «وكان مذكوراً بالخير والفضل، وكثرة الغزو والحج»[3].

وأحمد بن عاصم الأنطاكي، من أقران الحارث المحاسبي، وهو من متقدمي مشائخ الثغور[4]. وكان يسمّيه أبو سليمان الداراني، جاسوس القلوب، لحدّة فراسته. من كلامه: «أفضل الجهاد مجاهدتك لنفسك، لتردّها إلىٰ قبول الحق».

والداراني المذكور، كان يخرج إلىٰ بعض الثغور، كما حكاه ابن كثير في وفيات (٢٠٥ هـ). وقد نعته ابن العماد:

---

(١) شرح حديث النزول ص ١٢٣.

(٢) روض الرياحين ص ٢١١.

(٣) تاريخ بغداد ج ٨ ص ٤٨٤.

(٤) صفة الصفوة ج ٢ ص ٢٧٨.

«الزاهد القدوة، أحد الأبدال، كان عديم النظير زهداً وصلاحاً، وله كلام رفيع في التصوف، والمواعظ»[1].

وإذا كان أئمّة من السادة الصوفية تردّدوا إلىٰ الثغور، لنيل نصيب من شرف الجهاد في سبيل الله، بيد أنّ هناك جماعات منهم استوطنت المدن الثغرية، (وكان لها دور هامّ في حياتها المدنية، والجهادية، وعُرفوا بالشيوخ المسجديّة، كانوا يصلّون نافلة نهارهم أجمع، لا يشغلهم عن ذلك إلا النداء بالنفير، أو الغزو، أو تشييع جنازة من يموت من الصالحين، أو عيادة مريض من المجاهدين)[2].

نذكر منهم:

أبو عبد الله النبّاجي ت (٢٢٥ هـ تقريباً) كان إمامهم في الصلاة في ثغر طرسوس، سُئل مرة: لماذا لم تخفف الصلاة وقد أُعلن النفير؟ قال: ما حسبت أنَّ أحداً يكون في الصلاة فيقع في سمعه غير ما يخاطب الله عز وجل[3].

ومنهم:

أبو العباس الطبري، وفي قصة موته، أنه كان يعظ المجاهدين في طرسوس، فأدركته مما كان يصف من جلال الله، وعظمته، وملكوته، وجبروته، فخرّ مغشياً عليه من الموت[4].

وممّن رابط أواخر عمره في ثغر طرسوس، إلىٰ أن مات:

---

(١) شذرات الذهب.
(٢) انظر مقال: «حياة الناس في مدن الثغور»، مجلة دراسات تاريخية، العدد ٤ لعام ١٩٨١.
(٣) صفة الصفوة ج ٤ ص ٢٧٩، واسمه سعيد بن يزيد النباجي، ومن أصحابه: ذي النون المصري ت (٢٤٥ هـ) وعمر بن سنان الذي يؤثر عنه قوله: «من لم يتأدب بأُستاذ فهو بطال».
(٤) العصر العباسي الثاني د. شوقي ضيف ص ٤٧٣.

زهير بن شعبة المروزي ت (٢٥٨ هـ) يروىٰ عن البغوي قوله المشهور: ما رأيت بعد أحمد بن حنبل أزهد من زهير، سمعته يقول: أشتهي لحماً ولا آكله حتىٰ أدخل الروم، فآكله من مغانم الروم[١].

ويبدو أَنَّ بعض الصوفية ركب البحر غازياً، ويكفي أن نذكر منهم: علي الرازي المذبوح[٢]، وهو أستاذ أبي تراب النخشبي[٣] المتوفىٰ (٢٤٥ هـ).

وهناك فريق من العارفين المجاهدين، لم يذكر لنا المؤرخون أسماءهم، وإنمّا نقلوا لنا طرفاً من أخبارهم في الزهد والجهاد[٤].

وعلىٰ كلٍّ، فإنّ هذه الشخصيات العجيبة، والبطولات الفذّة، ليست

---

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ٤٨٤.

(٢) طبقات الأولياء لابن الملقن ص ٣٥٥.

(٣) عسكر بن حُصين أبو تراب النخشبي: من كبار مشائخ القوم، المذكورين بالعلم والفتوة والتوكل، غادر موطنه خراسان، ونزل مكة، وقد كان يخرج إلىٰ عبادان والثغر. أخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل وآخرون (الشذرات وفيات ٢٤٥ هـ، الأعلام ج ٤ ص ٢٣٣).

(٤) نقل ابن عساكر عن أبي القاسم الجوعي ت (٢٤٨ هـ) قال: رأيت في الطواف رجلاً لا يزيد في دعائه: إلهي قضيت حوائج الكل ولم تقض حاجتي؟ فقلت: ما لك لا تزيد علىٰ هذا الدعاء؟ فقال: أُحدثك: اعلم أنّا كنا سبعة أنفس، من بلدان شتّىٰ، فخرجنا إلىٰ الغزاة، فأسرنا الروم، ومضوا بنا لنقتل، فرأيت سبعة أبواب فتحت في السماء، وعلىٰ كل باب جارية حسناء من الحور العين، فضُربت أعناق ستة منا، فاستوهبني بعض رجالهم، فقالت الجارية أي شيء فاتك يا محروم! وأُغلق الباب. فأنا يا أخي متحسر علىٰ ما فاتني. (تاريخ دمشق المجلد ٤٣ ص ٣٢٨). قلت: وهذا من باب الكشف عند الصوفية، يذكر ابن خلدون في مقدمته ص ٣٢٩: (أَنَّ المجاهدة والخلوة، يتبعها غالباً كشف حجاب الحس، والاطّلاع علىٰ عوالم من أمر الله...) وقد وقع مثل هذا لكثير من الصحابة، كقول عمر رضي الله عنه: يا سارية الجبل الجبل، وهو علىٰ منبر المدينة وسارية بنهاوند.

وقد ورد في الرسالة القشيرية (ص ٦١) أن فارساً صوفياً استطاع في بعض الغزاة، قتل أحد شجعان عسكر الروم، بعد ما قتل هذا الرومي ثلاثة من الفرسان المسلمين.

إلاّ بعض النماذج التي حفل بها التاريخ الإسلامي.

والجدير بالذكر أنّه لم ينتهِ القرن الثالث الهجري، إلاّ وكان هؤلاء العارفون المجاهدون، وأضرابهم من الصوفية الوعّاظ المرشدين، قد شكّلوا منهجاً كاملاً لأصول طريقهم، كما رسمها الكتاب والسنة، علىٰ ما ثبت في تاريخ الإسلام. ففي هذه الآونة بلغ التصوف مرحلة النضج والكمال، وأصبحت له قواعد معروفة، كما شكّل الفقهاء المذاهب الفقهية المشهورة، وأصحاب الحديث علم الحديث، وشكّل علماء اللغة علم النحو،وأصبح الصوفية طبقة خاصة متميزة، ترفَّعت عن ملاذٍّ الدنيا وشهواتها، وجمعوا علىٰ حد تعبير الكلاباذي: بين علوم المواريث، وعلوم الاكتساب[1]، وكان أولئك العارفون من السلف الصالح، أساتذةً لمن أتىٰ بعدهم وسار علىٰ منوالهم، ويمكن اعتبارهم صلة الوصل بين سلوك الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وبين سلوك الصوفية الصادقين من اللاحقين، حيث لم يترك المتقدّمون للمتأخرين إلا بعض الشروحات والتفاسير.

فهذه القرون الثلاثة الأولىٰ، التي شهدت ظهور الزهد والتصوف،

---

(١) علوم المواريث أو علوم الحقيقة أو علوم الباطن، قال الغزالي في إحيائه: وهو علم الصدِّيقيين والمقربين، وهو عبارة عن نور يظهر في القلب، عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة. وذكر العز بن عبد السلام في فتاويه في معنىٰ حديثه ﷺ: «من عمل بما يعلم، أورثه الله علم ما لم يعلم» قال: أورثه الله تعالىٰ من العلم الإلهامي وهو اللدني. والعلم اللدني كما قال ابن القيم: هو ثمرة العبودية والمتابعة والصدق مع الله والإخلاص له وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله، فيفتح الله له في فهم الكتاب والسنّة بأمر يخصّه به. (مدارج السالكين ج ٢ ص ٤٧٥).

وقال الحافظ السيوطي: الأصل في علم الحقيقة، أحاديث وآثار منها: قصة الخضر مع موسىٰ عليهما الصلاة والسلام، ومنها حديث الإحسان، قال الهروي الحنبلي ت (٤٨١ هـ) في منازل السائرين: هذا الحديث إشارة جامعة لمذهب هذه الطائفة. وهناك أحاديث أخرىٰ انظرها في: (تأييد الحقيقة العلية للسيوطي) وانظر هامش ص ١٠٦ من الكتاب.

شهد لها رسول الله ﷺ بالخيريّة في حديثه الصحيح[١].

وإذا مضينا نستقرىء بعضاً من أسماء الصوفية، الذين وقفوا حياتهم علىٰ جهاد الأعداء في القرنين الرابع والخامس لضاق الكتاب. نخصّ منهم بالذكر:

أبا محمد بن مرزوق الصاقري، قال ياقوت: «وكان ذا فتوّة، صحب أبا يعقوب النهرجوري المتوفى (٣٣٠ هـ)، وقتل بنواحي طرسوس شهيداً»[٢].

وممن رابط علىٰ السواحل، نقرأ في تاريخ ابن عساكر عن:

إبراهيم بن علي الحسين العتابي الصوري ت (٤٧١ هـ) واصفاً إيّاه: «شيخ الصوفية بالثغر، كان ذا سمت حسن، وطريقة مستقيمة»[٣].

ومن المستحسن ذكره، أن شيوخ الرباط كانوا يقيمون زوايا لهم، تعقد فيها حلقات الذكر، ومدارسة العلم، وتتّخذ في الوقت نفسه مراقب للسفن المعادية. (وكان التوضؤ بماء البحر، والصلاة علىٰ رماله، من أهم التقاليد التي يحرص عليها شيوخ الزوايا وأتباعهم، حتىٰ أنهم فضّلوا عند موتهم أن يدفنوا علىٰ الساحل. مثال علىٰ ذلك في الإسكندرية: سيدي بشر، وسيدي جابر، وسيدي علي الشاطبي، وسيدي العجمي)[٤].

ولا مجال هنا للاستكثار من الشواهد، فهي موجودة في بطون أمّهات الكتب العربية. وبالجملة فلم يُقعِد الزُّهد والعبادة الصوفيين عن الجهاد في سبيل الله، والتفتيش عن مرضاته، والشوق إلىٰ لقائه.

---

(١) «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» أخرجه البخاري ومسلم.
(٢) معجم البلدان، مادة: «صاقرية».
(٣) التاريخ الكبير ج ٢ ص ١٦٧. وسُمّي الصوري نسبة إلىٰ مدينته الساحلية «صور».
(٤) مقال: العرب والصيف. مجلة العربي «الكويتية» العدد ٢٣٦ تموز ١٩٧٨ ص ١٤٥.

وقد لخّص لنا سيدي عبد الوهاب الشعراني المتوفىٰ (٩٧٣ هـ).

مبادىء الصوفية في الجهاد قائلاً:

ـ أُخذ علينا العهد من رسول الله ﷺ، أن نكرّم الغزاة والحارسين، فمن لم يجد نقداً يعطيه للغزاة، فليعطهم رغيفاً، أو يخدم عيالهم.

ـ أُخذ علينا العهد العام من رسول الله ﷺ، إذا دخلنا ثغراً من ثغور المجاهدين، أن ننوي المرابطة مدَّة إقامتنا، ولو لم يكن هناك عدوّ، لاحتمال أن يحدث عدو.

ـ أُخذ علينا العهد العام من رسول الله ﷺ، أن نسأل ربنا أن نموت شهداء في سبيل الله لا علىٰ فرشنا،... وأن لا نغفل عن تحديث أنفسنا بالغزو في سبيل الله[١]، فإن لم يحصل لنا مباشرة ذلك، حصل لنا النيّة الصالحة، وحصل الأجر كاملاً.

ـ أُخذ علينا العهد العام من رسول الله ﷺ، إذا لم يُقسم لنا جهاد، أن لا ننفر من الأمور التي تلحقنا بالشهداء بالثواب الأخروي[٢]...

ومن وَصْف ابن سينا للصوفي قوله: «العارف شجاع، كيف لا وهو بمعزل عن تقية الموت، وجواد، وكيف لا وهو بمعزل عن محبة الباطل، وصَفَّاح، وكيف لا ونفسه أكبر من أن تجرحها ذلّة بشر»[٣].

إنّ مشاعر العارف بالله علىٰ النقيض من الوهن والضعف، إنه يشعر بالعزّة، والقوة، اللتين يستمدّهما من عزّة وقوّة الله العزيز الجبّار. يقول ابن

---

(١) يشرح سيدي عبد الغني النابلسي قوله ﷺ: «اغزوا باسم الله وفي سبيل الله قاتلوا» (يعني لا تغزوا بأنفسكم وبقوتكم، بل بمعونة الله تعالىٰ التي يمدكم بها، كما قال تعالىٰ: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤] فتكون أيديكم أسباباً حينئذٍ لإيصال عذاب الله تعالىٰ إليهم). انظر: بيان الجهاد لأهل الوداد ورقة ٣٦ أ.

(٢) لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية ص ١٤٦ وما بعدها.

(٣) التصوف عند ابن سينا د. عبد الحليم محمود ص ٤٥.

عطاء الله في حِكَمه البديعة: «سبحان من ألبس أولياءه ملابس هيبته، فقاموا بعزّته مستعزّين».

فخضوع الوليّ لله وحده، يشعره بالتحرّر من سيادة أحد عليه. (ومن هنا كان الزهّاد والصوفية، رجالاً أشدّاء، بلغوا في العزّة في جانب الله، ما لم يبلغه أحد مثلهم)[1].

ومن ثمار المعرفة بالله، بثّ روح الشجاعة والإقدام، وحبّ الاستشهاد، واحتقار الموت في سبيل الله. يقول زكي مبارك:

«وإنّما كان الصوفية من الشجعان، لأنّهم استهانوا بالدنيا، وزهدوا في طيبات العيش، وحبّ الدنيا والعيش، أصل الجبن والخضوع»[2].

ونقرأ في نظم مولانا جلال الدين الرومي ت (٦٧٢ هـ) ما يدحض الآراء التي تحاول إلصاق الصوفية بالتواكل والكسل:

«إن السنّة الجارية، والعادة الغالبة، هي وجود المسبَّب من السبب، حتىٰ يعرف الطالب أهمية السعي والجهاد، ويأتي البيوت من أبوابها، ويطلب الأشياء من معدنها»[3].

* * *

(١) أدب الزهد في العصر العباسي د. عبد الستار السيد متولي ص ٦.
(٢) التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ج ٢ ص ١٠٢.
(٣) من ضيَّع القرآن ص ٢٨٣ نقلاً عن المثنوي.

الفصل السادس

الفتّوة والرباطات الصوفية

والملاحظ أنّه عندما ظهر التصوف، ظهرت فيه بالإضافة إلىٰ فضيلة التقوىٰ، مجموعة من الفضائل الأُخرىٰ، المستمدّة من الفتوة، وهي فضيلة الكرم، والمروءة، والإيثار، والشجاعة، والتضحية، واعتبرها الصوفية من أوائل مبادئهم، حتىٰ قيل:

لا يكون الصوفي كاملاً إلاّ إذا تفتَّىٰ، وأنّه لا خير لمن لا فتوة عنده. يقول العارف بالله سهل التستري ت (٢٧٣ هـ): «أصل هذا الأمر: الصدق، والسخاء، والشجاعة»[١].

وفي عصرنا الحديث، يذكر أحمد أمين: «أدخل الصوفية الفتوة في مذهبهم، وصبغوها بصبغتهم، وحملها علىٰ الحقّ، مهما استتبع ذلك من مكاره»[٢].

ويذكر غيره: «الأساس الأول للصوفي هو تقوية الصلة بالله، والشجاعة في القتال للجهاد»[٣].

لذا عدّ القوم الفتوة من أصول طريقهم. يقول ابن عربي:

---

(١) إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٤٠٩.

(٢) الصعلكة والفتوة في الإسلام ص ٥٧.

(٣) الفتوة في الإسلام وصلة الفتوة بالتصوف ص ٢٦.

«اعلم أنّ للفتوة مقام القوة، ومن لا قوّة له لا فتوّة له»[1].

وذكر شعراً في هذا المعنىٰ:

إن الفتـوّة مـا ينفـكّ صـاحبهـا مقـدَّماً عنـد ربّ النّاس والنّاس
لا حزنَ يحكمهُ، لا خوف يشغلهُ عن المكارمِ حال الحربِ والباسِ[2]

ويجـب الإشـارة أن العـالـم الصـوفـي أبـا عبـد الـرحمـن السلمـي ت (٤١٢ هـ)، أول من ألَّف كتاباً في الفتوة، وتبعه في ذلك ابن المعمار الحنبلي ت (٦٤٢ هـ)، والذي تكلم أيضاً عن خِرقة التصوف، وذكر أنه لا يوجد خلاف جوهري بينها وبين الفتوَّة، فقال: «وأما خِرقة التصوف فإنها صحيحة، وهي أيضاً عهد علىٰ المحافظة علىٰ الطريقة»[3]. وقال ابن الساعي البغدادي المؤرخ:

اعلموا ـ رحمكم الله ـ أن الفتوة من صفات وطريق الفائزين، وأنّ لها أصلاً في الشريعة، وأن نبينا عليه الصلاة والسلام سيد الفتيان، ومنها فتوة علي عليه السلام، وإليه ترجع الأنساب ومنه تفرّعت الأحزاب.

وذكر المحققون أنّ الأصل الأول لها، هو مبايعة الرسول ﷺ لأصحابه البررة تحت الشجرة، وهي بيعة الرضوان، التي أشار إليها القرآن الكريم.

ويذكر لنا بعض المؤرخين نماذج من هذه الفتوة الصوفية، منهم:

---

(١) الفتوحات المكية ج ١ ص ٢٤١، ٢٤٤.
(٢) ن. م، ج ٢ ص ٢٣١.
(٣) الفتوة لابن المعمار الحنبلي ص ١٥٠. وصحة سند الصوفية في لبس الخرقة رجّحه جماعة، وأثبته جماعة، منهم الحافظ السيوطي، فذكر أنَّ الحسن لبسها من علي كرم الله وجهه. وقال ابن الصلاح: والمراد ما تحصل به البركة والفائدة، باتصالها بجماعة من الصالحين، عُرفوا بالورع والزهد والاستقامة، ولقد ألبس رسول الله ﷺ كعب بن زهير بردته الشريفة، تيمناً وبركة. وقال السهروردي في عوارفه: فمن يلبسها فله مقصد صحيح، وشاهد من الشرع، ومن لا يلبسها فله رأيه، وله في ذلك مقصد صحيح، والأعمال بالنيات.

شاه بن شجاع أبو الفوارس الكرماني ت (٢٩٩ هـ)، وأحمد بن خضرويه البلخي ت (٢٤٠ هـ)، ومعروف الكرخي ت (٢٠٠ هـ)، قال ابن الجوزي والخطيب البغدادي وصاحب طبقات الحنابلة عن هذا الأخير: «كان جماعة من العلماء والأكابر يغشونه، ويتبرّكون بزيارته، منهم الإمام أحمد بن حنبل»[١].

والمناوي، ينعت الشيخ فتحاً بن سعيد الموصلي ت (٢٢٠ هـ): بأنّه من أعاظم الأصفياء، كان ذا اجتهاد في التعبّد، وشجاعة، ورفض للدنيا[٢].

أمّا ابن خلّكان، فيترجم لنا عن أبي القاسم القشيري ت (٤٦٥ هـ) قائلاً: «الجامع لعلوم الشريعة والحقيقة... كانت له في الفروسية واستعمال السلاح يد بيضاء»[٣].

ويقول المؤرخون في صاحب الفروسية سيّدي أحمد البدوي ت (٦٧٥ هـ): «ما في أولياء مصر بعد الإمام محمد بن إدريس [الشافعي] أفتىٰ منه». وقد ورد عن الشافعي ـ رضي الله عنه ـ قوله: حُبِّب إليَّ من دنياكم ثلاث، وذكر منها: الاقتداء بطريق أهل التصوف[٤].

ولا بد من الإشارة هنا أنه من محاسن أعمال مشايخ الطرق الصوفية، أَنْ أحيا الله بهم كثيراً من القلوب الميتة، وأصلح فسادها. ومنهم من استطاع أن يوجِّه فتوة العيَّارين والشطَّار القائمة علىٰ الإفساد والنهب، إلىٰ وجهة صالحة، تقوم ركائزها علىٰ المروءة والشرف والأخوّة الإسلامية.

---

(١) مناقب معروف الكرخي لابن الجوزي ص ٨٩، تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٢٠١، طبقات الحنابلة لابن أبي يعلىٰ ج ١ ص ٣٨٢.

(٢) الكواكب الدرية ج ١ ص ١٥١.

(٣) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٩٤.

(٤) كشف الخفاء ج ١ ص ٤٠٨ مادة: «حُبب».

فنهضوا لتزيينها، وتطهيرها[١]، وتوجيهها نحو الخير، فدخل الناس فيها أفواجاً. ومن أبرز هؤلاء المشائخ: سيدي عبد القادر الجيلاني ت (٥٦١ هـ) يذكر الدارسون أنّه تاب علىٰ يديه من العيارين والمسالحة، أكثر من مائة ألف[٢]. وقد شكّل هذا العدد الهائل فتوّة دينية عسكرية، زاهدة في متع الحياة الزائلة، غايتها الجهاد والاستشهاد في سبيل العقيدة والوطن. وقد عدّ الذهبي الشيخ الصالح عبد الجبار بن يونس البغدادي ت (٥٨٣ هـ): (شيخ الفتوة وحامل لوائها... انقطع إلىٰ عبادة الله بموضع اتّخذه لنفسه وبناه، فاستدعاه الخليفة العباسي الناصر لدين الله ت (٦٢٢ هـ)، لما كان يسمع عنه من حسن السيرة، والطريقة)[٣]. واتّفق الاثنان علىٰ العودة بالفتوة إلىٰ أُصولها الأولىٰ، أي «فتوة السلف الصالح التي تجمع بين المنحىٰ الصوفي، والسلوك الفروسي»[٤] وتمّ إصدار منشورٍ ينظّم قواعدها. ويرىٰ البعض أن الناصر نجح بذلك في إقامة خطّ دفاعي من هؤلاء الفتيان، يقي البلاد من الأعداء والطامعين.

وقد حظي شيوخ الصوفية عند الخليفة الناصر بالإكرام والاحترام، علىٰ نحو ما هو معروف عن الشهاب السهروردي، (صاحب عوارف المعارف) حتىٰ جعله مُقدّماً علىٰ شيوخ بغداد[٥].

ولا يخفىٰ علىٰ الباحث المدقّق، الدور البارز الذي قام به هؤلاء الشيوخ في تربية أتباعهم، تربية روحية خالصة، كان لها الأثر الواضح في

---

(١) انظر: العيارين والشطار (سلسلة عالم المعرفة الكويتية).
العدد ٤٥ ص ١٥٠. والعيارين والشطار: فئة وجدت في العصر العباسي نتيجة لعوامل الضعف، وقد كانوا من فقراء اللصوص وقُطاع الطرق.
(٢) رجال الفكر والدعوة في الإسلام ص ٢٤٩.
(٣) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي وفيات ٥٨٣ هـ.
(٤) العيارين والشطار ص ١٥٤.
(٥) معجم البلدان: مادة «سهرورد».

محاربة الصليبيين والتتار الزاحفين على البلاد العربية، ممّا سنعرض له لاحقاً.

ومع تضاعف نشاط الطرق الصوفية في عهد الاضطراب، الذي تعرّض له العالم الإسلامي، في العصور الوسطىٰ، وتشكّل الفُتوَّات في آسية الصغرىٰ، والبلاد العربية، اتّضح هدف هذه الفتوات بالإعلان عن الجهاد الديني المقدّس، علىٰ التتر والصليبيين وأعداء الدين، داخل البلاد، وخارجها[1].

حتىٰ لُقّب الصوفية، فتيان الثغور.

ولأنّ إقامتهم في هذه الثغور، كانت تطول في بعض الأوقات، عملوا متكاتفين علىٰ إقامة بيوتات صغيرة، أشبه ما تكون بمخافر الحدود اليوم، وكانت هذه نواة للرُّبط التي انتشرت بكثرة فيما بعد، وأصبحت أماكن لتجمّع المجاهدين أينما وجدت، بعد ما توافد غزاة المسلمين إليها من أنحاء الدولة الإسلامية.

ذكر المقريزي: «الرُّبط: جمع رباط، وهو دار يسكنها أهل طريق الله، وهو بيت الصوفية ومنزلهم. والمرابطة: ملازمة ثغر العدو، وقيل لكلّ ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط. فالمجاهد المرابط يدفع عمَّن وراءه، والمقيم في الرباط علىٰ طاعة الله، يدفع بدعائه البلاء عن البلاد والعباد»[2].

وكان من الطبيعي أن تنتشر الرباطات بكثرة علىٰ طول تخوم الدولة الإسلامية، وعلىٰ حافّة قواعد الحرب الأمامية، للحراسة، وصدّ الغارات

---

(١) المجتمع السوري في مطلع العهد العثماني د. ليلىٰ صباغ ص ١٨٢.

(٢) الخطط ج ٢ ص ٤٢٧ وانظر عن الربط ودورها كمؤسسات للتربية العسكرية والدينية: مقال: الزوايا والخوانق الصوفية د. منير سعد الدين، مجلة «التراث العربي» العدد ٤١ ت ١ ١٩٩٠.

المتكررة، حتىٰ شبَّهها بعض الغربيين، بالأديرة المحصنة.

ويورد الدارسون كلام الرحّالة أمثال المقدسي والاصطخري: (أنه في أواخر القرن الرابع الهجري، كان بما وراء النهر زيادة علىٰ عشرة آلاف رباط، في كثير منها إذا نزل النازل أُقيم علف دابته، وطعام نفسه، إذا احتاج إلىٰ ذلك وذلك أنّ جميع حدود ما وراء النهر دار الحرب.

بينما كان في بيكند ـ ثغر بين بخارىٰ وسمرقند ـ ألف رباط)(١).

وإذا كان هذا العدد في ثغرين من ثغور الحرب، فما بالنا بما كان في بقيّة الثغور!.

وكدليل آخر علىٰ كثرة الرُّبَط الصوفية وانتشارها الواسع، يقرّر ابن حوقل: أنّه لا يوجد مدينة عظيمة من حد سجستان، وكرمان، وفارس، وخوزستان، والري، وأصبهان، وجميع الجبال، وطبرستان، والجزيرة، وأذربيجان، والعراق، والحجاز، واليمن، والشام، ومصر، والمغرب، إلاّ وبها لأهلها دار ورباط(٢).

ويذكر صاحب خطط الشام، أنّه كان علىٰ امتداد ساحل الشام رباطات للنيل من الأعداء، إن قدموا بحراً، فأهل دمشق يرابطون في بيروت، وأهل حمص في طرابلس، وأهل القدس في يافا.

فثبّتوا المنارات، وكلّفوا حرساً تراقب قدوم العدو، فإذا كان الوقت ليلاً أوقدت منارة ذلك الرباط، وإن كان نهاراً دخّنوا. وقد ثُبّتت منارات

---

(١) مسالك الممالك للاصطخري ص ٢٩٠، أحسن التقاسيم للمقدسي ص ٢٧٣.
و «بيكند» قال عنها ياقوت: بها من الرباطات مالا أعلم ببلد من البلدان مما وراء النهر أكثر منها.

(٢) انظر مقال: «المطوعة ودورهم في حراسة ديار العروبة والإسلام» (مجلة العربي الكويتية، العدد ٢٨٧ ت ١ ص ١٥٦).

متسلسلة، فلا يكون ساعة إلاّ وقد حصل النفير بين الناس، استعداداً لمنازلة العدو(١).

ومن الأمثلة علىٰ هذه الرُّبَط الساحلية، برج عمَّره الشيخ العارف بالله أبو العباس الرملي المقدسي، وكان كثير المرابطة به، ويقع هذا البرج علىٰ جانب البحر بثغر يافا(٢).

ورباط أبي الفتح الواسطي ت (٥٨٠ هـ) في ثغر الإسكندرية، وهو من تلامذة سيدي أحمد الرفاعي(٣).

وفي بر الشام، اشتهر رباط العالم الصوفي المجاهد:

أرسلان الدمشقي ت (٥٤١ هـ): صاحب الرسالة المعروفة في التوحيد والتصوف(٤)، الذي لم يكن رباطه يقع داخل سور مدينة دمشق، بل خارجها، كأنه مخفر يأوي إليه حرس الحدود، والذين يطوفون حول المدينة بعد إغلاقها ليلاً، كي لا يكون هناك عدو مباغت، وكان المريدون يتردّدون إلىٰ رباطه، يتعلّمون فيه جميع أنواع الدراسة، ويتدرّبون علىٰ الفنون الحربية، للوقوف في وجه الصليبيين. حتىٰ لقّب الشيخ أرسلان بحقّ: (إمام السالكين، وشيخ المجاهدين)(٥). وحتىٰ الآن لا يزال أهالي دمشق يذكرونه، ويردّدون الأنشودة المعروفة، (شيخ رسلان يا شيخ رسلان، يا حامي البرّ والشام). وقبره معروف يزار.

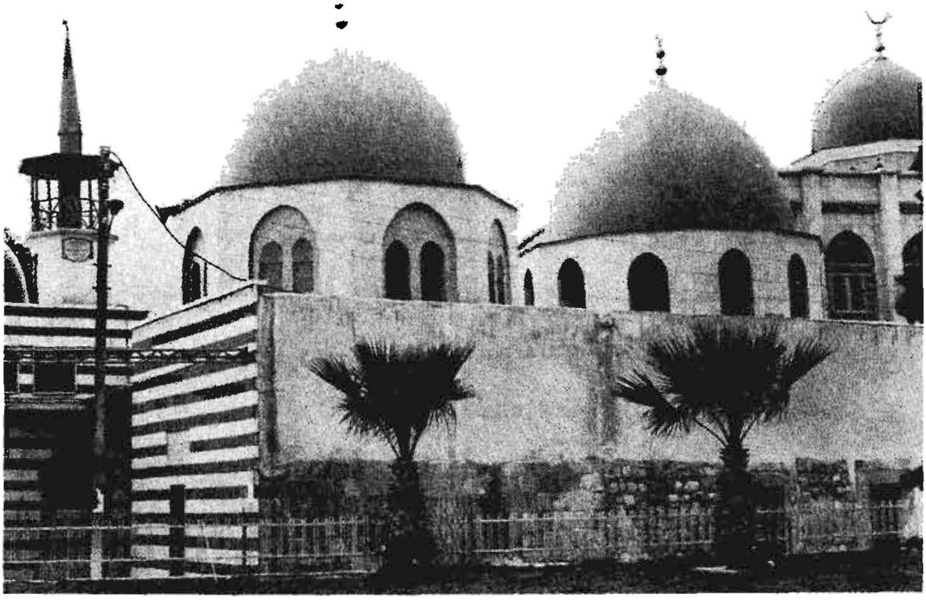
وقد كان الملك العادل المجاهد، نور الدين محمود زنكي (الشهيد) يراسله، ويعتقد فيه كثيراً.

---

(١) ج ٦ ص ٤١.
(٢) الأنس الجليل في رحلة القدس والخليل ج ٢ ص ١٧٥.
(٣) طبقات الأولياء لابن الملقن ص ٤٨٩.
(٤) ومطلعها: «كلّك شرك خفي»، وقد شرحت أكثر من عشرة شروح، بعضها مطبوع.
(٥) انظر: إمام السالكين وشيخ المجاهدين، أرسلان الدمشقي.

حتىٰ أنّه أوصىٰ أهله وأصحابه، إذا مات أن يضعوا في قبره قطعة من المنشار الذي تقطّع بين يدي الشيخ أرسلان(١).

* * *



رباط وضريح الشيخ أرسلان الدمشقي

---

(١) انظر القصة، في ترجمة الشيخ رسلان، للذهبي ورقة ٤١ ب.

الفصل السابع

الناحية الصوفية عند بطل الحروب الصليبية

نور الدين محمود زنكي

(٥١١-٥٦٩ هـ)

في الواقع، كانت هناك علاقة وثيقة بين نور الدين وبين رجالات التصوف في عصره، واتّخذ منهم خير سند في حروبه مع الصليبيين، فكان هؤلاء يشحذون هِمَمَ الناس، ويستثيرونهم للجهاد وهذه العلاقة الراسخة كانت مشيّدة عن عقيدة، ورغبة حقيقية.

قال ابن الأثير وغيره: «وكان يُحضِرُ مشايخهم، ويقرّبهم، ويُدنيهم، ويُبسطهم، ويتواضع لهم، فإذا أقبل أحدهم إليه، يقوم له مُذْ تَقَعُ عينه عليه، ويعتنقه، ويُجلسه معه علىٰ سجّادته، ويُقْبل عليه بحديثه»[(١)].

ومن كان من العارفين يتعذّر مجيئُهم، كان السلطان يزورهم بنفسه، ويُكرمهم ويُشاورهم في أمور الجهاد، وذلك لحُسن ظنّه فيهم.

منهم: الشيخ القدوة حياة بن قَيسْ الحراني ت (٥٨١ هـ)، وكان صاحب أحوال وكرامات، زاره السلطان نور الدين، وتبرّك بلقائه، فقوّىٰ عزمه

---

(١) الباهر في الدولة الأتابكية ص ١٧١، الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ٩ الكواكب الدرية في السيرة النورية ص ٣٨.

علىٰ جهاد الفرنج، ودعا له[1].

ومنهم الشيخ عماد الدين أبو الفتح بن حموية، نزيل دمشق عام ٥٦٣ هـ. قال البنداري:

«لم يكن له في علم الطريقة والحقيقة مُساوٍ. فأقبل عليه نور الدين بكُلّيته، وأمرني بإنشاء منشور له بمشيخة صوفية الشّام»[2].

ومنهم: رجل صالح كثير العبادة والورع، شديد الانقطاع عن الناس، كان نور الدين يُكاتبه ويُراسله ويرجع إلى قوله[3].

ومنهم ابن الصابوني الزاهد: كان ماراً بدمشق، وقد سأله نور الدين الإقامة بها، فذكر له أنَّ قَصْدَه زيارة الإمام الشافعي، فجهّزه إلىٰ مصر، وأرسل معه الأمير نجم الدين أيوب، والد السلطان صلاح الدين[4]. ومنهم عبد القاهر السَّهْرَوَرْدِيّ ت (٥٦٣ هـ)، صاحب «آداب المريدين»: كان شيخ العراق في وقته، ورجع بسببه خلق كثير إلىٰ الله تعالىٰ. قال ابن عساكر: قدم علينا دمشق، فأكرم الملك العادل نور الدين مقدمه، واحترمه وكرّمه[5].

وعندما فتح نور الدين الموصل سنة ٥٦٦ هـ، قصد الشيخ عمر الملاّ في زاويته، وكان يستشيره في أموره، ويعتمد عليه في مهمّاته، وعندما

---

(١) سير أعلام النبلاء ج ٢١ ص ١٨٢، العبر للذهبي ج ٤ ص ٢٤٣.

(٢) سنا البرق الشامي ص ٧١.

(٣) الباهر ص ١٦٤، عبرة أولي الأبصار في ملوك الأمصار ص ٥٣٠.

(٤) عيون الروضتين ج ٢ ص ١٢٨ وأما قوله ﷺ: «لا تشدُّ الرحالُ إلا إلىٰ ثلاثة...» الحديث صرَّح، الإمام الغزالي: إنّ ذلك في المساجد لا في المشاهد. وقال ابن قُدامة في «المغني»: فإن الحديث يحمل علىٰ نفي التفضيل وليس التحريم. وفي فيض القدير في الشرح علىٰ الجامع الصغير ج ٦ ص ٤٠٣ المراد لا تشدُّ الرحال لمسجد للصلاة فيه إلا لهذه الثلاثة، لا إنه لا يسافر أصلاً إلا لها.

(٥) تاريخ دمشق المجلد ٤٣ ص ٧١، وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٠٤.

غادر الموصل أمر الولاة والأمراء بها أن لا يفعلوا أمراً حتىٰ يُعلموا الملاّ به[1]. قال عنه البنداري:

«وهو من أئمة العارفين كان العلماء بل الملوك والأمراء يزورونه في زاويته، وله كلّ سنة دعوة في أيام مولد النَّبي ﷺ، ينشد الأشعار في ذلك المحفل في مدح النَّبي ﷺ، وكان نور الدين من أخلص محبيه، وكان يستشيره، ويكاتبه»[2].

ولم يكن يقتصر تعظيمه للأحياء من شيوخهم، بل وللأموات منهم أيضاً، فقد خرج سنة (٥٦٥ هـ) إلىٰ داريّا، وتبرّك بضريح أبي سُليمان الداراني المتوفىٰ سنة (٢٠٥ هـ)، وعمَّر مشهده[3].

---

(١) سنا البرق الشامي ج ١ ص ٩٨، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٨٢، الكواكب الدرية ص ٦٨.

(٢) ن.م ج ١ ص ٥٢، وانظر: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٦٣، مرآة الزمان ج ١ ص ٣١٠.

(٣) ن.م،ج١ ص ٨٨، وانظر: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٦١

تعليق: إنَّ بناء القباب فوق قبور الأنبياء والأولياء، قال فريقٌ من العلماء لا يكره.

وقال فريق آخر بل يُستحب لما في ذلك من إحياء الذكرىٰ والتبرك بأصحاب هذه المشاهد، وإن في تشييدها حفظها من الاندراس والانطماس.

وقال الشيخ عبد الغني النابلسي في كشف النور عن أصحاب القبور (خ. رقم ١٣٧٧ ورقة ٣٣ أ) الأولياء أحياء وأموات، من شعائر الله، وإنّ العمارة علىٰ قبورهم بدعة حسنة، كما قال الفقهاء في تكبير العمائم، وتوسيع الثياب، حتىٰ لا تستخفّ بهم العامة. ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

واعتبر السبكي إقرار الصحابة علىٰ دفن رسول الله ﷺ في بيته أصلاً لجواز البناء علىٰ قبور الصالحين.

وقد استدلَّ بعضهم بقوله تعالىٰ في سورة الكهف: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١] علىٰ جواز بناء المساجد فوق قبور الصالحين. ذكره الشهاب الخفاجي في حواشيه علىٰ تفسير البيضاوي.

هذا مع العلم أنّ النَّبي ﷺ والخلفاء الراشدين، أقرّوا البناء علىٰ قبر إبراهيم الخليل، وعلىٰ بناء مدفن إسماعيل وأمّه هاجر عليهم السلام. =

وعزم علىٰ تجديد بناء قُبَّة الإمام أبي حنيفة النعمان، لكنّه عدل عن ذلك لمّا رآها في حالة جيدة.

ومن المعلوم أنَّ بناء مشهد وقبَّة علىٰ قبر أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ، كان بأمر من السلطان السلجوقي ألب أرسلان[1]، صاحب موقعة ملاذكرد الشهيرة، التي انتصر فيها علىٰ الروم سنة (٤٦٣ هـ).

وكان يقول آثارنا هذه تدلُّ علىٰ علوٍّ همّتنا، وبعد تمام البناء أنشد أحدهم عند القبر:

ألَمْ ترَ أنَّ العلمَ كانَ معدوماً ... فجمعه هذا المغيَّبُ في اللحدِ
كذلك كانت الأرضُ ميتةً ... فأنشرَها فِعْلُ العميدِ بن سعدِ

وقد أثنىٰ المؤرخون علىٰ هذا السلطان المجاهد، ومنهم ابن كثير في كلامه علىٰ وفيات سنة (٤٦٥ هـ) فقال: «وفيها ألب أرسلان سلطان العالَم، كان عادلاً، سيرته حسنة، كثير الدُّعاء...».

وفي موضع آخر يُوحي إلينا مؤرخنا، إنَّ هذا السلطان كان يتبرّك بالصوفية[2].

ونذكر منهم: أبا القاسم القشيري ت (٤٨٥ هـ)، وأبا نصر محمد بن عبد الملك البخاري الصوفي، الذي أشعل نار الحماسة في الملك وجيشه[3].

رجعنا إلىٰ ما كنّا فيه من الحديث عن نور الدين ـ رحمه الله ـ الذي لامه بعض أصحابه علىٰ المبالغة في تكريمه للصوفية، فغضب وقال:

= وانظر: «إحياء المقبور من أدلة البناء علىٰ القبور» للشيخ محمد صديق الغماري.

(١) انظر: وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤١٤، عبرة أولي الأبصار ص٥٠٩، شذرات الذهب: وفيات (٤٦٥ هـ).

(٢) انظر: البداية والنهاية ج١٢ ص ١٠٣.

(٣) التراث الروحي في مصر ص ٨ وانظر الأعلام: ج ٤ ص ٥٦.

(﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، والله إنّي لا أرجو النصر إلاّ بأولئك، فإنّما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يُقاتلون بسهام لا تُخطىء)[١].

والناس في الحقيقة، لا يعرفون إلاّ اليسير عن نور الدين الرجل العظيم، الذي سبق صلاح الدين، ومهّد لانتصاراته علىٰ الصليبيين، وجعلها ميسورة، وذلك باتباع سياسة خارجية قائمة علىٰ توحيد البلاد، وسياسة داخلية قائمة علىٰ التربية الروحية الخالصة، «فبنىٰ الرّبَط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية، ووقف عليها الوقوف الكثيرة، وأَدَرَّ عليهم الإدرارات الصالحة. كان حاصل وقفه كلَّ شهر تسعة آلاف دينار»[٢]. ومثال علىٰ هذه العطايا: أَمْرهُ بعشرة آلاف درهم لبناء رباط للشيخ أبي البيان القرشي الشافعي الزاهد ت (٥٥١ هـ)[٣].

وقد أجمع من ترجم لنور الدين، أنَّه كان ملكاً شجاعاً عابداً مُتزهداً، وقد يقترض أحياناً المال، جاعلاً من الجهاد وسحق الصليبيين كلَّ مسوِّغ وجوده. وكما يقول أحد المستشرقين المنصفين: نذر نور الدين حياته للحرب المقدّسة، متفانياً فيها بحماسة الصوفي العنيدة[٤].

ويروي لنا ابن كثير حكاية مفادها: أنّ أُناساً سمعوا الإفرنج يقولون:

---

(١) وفيات الأعيان ج ٥ ص ١٨٨، الكواكب الدرية ص ١٦٢، عبرة أولي الأبصار ص ٥٢٩.

(٢) الباهر ص ١٧١، وانظر الكامل في التاريخ ج ١١ ص ٤٠٤، عبرة أولي الأبصار ص ٥٣٢ والخانقاه مكان شبيه بالزاوية. وهي تدلّ علىٰ المكان المخصّص لتخلّي الصوفية لعبادة الله عز وجل. ويرىٰ السهروردي في عوارف المعارف أنّ أهل الصفة أقدم مثال علىٰ الخوانق والزوايا، فقد كان رسول الله ﷺ يجالسهم ويكرمهم.
ويرىٰ عبد الرحمن الجامي في نفحات الأنس: أنّ أول خانقاه أُنشئت في الرملة في القرن الثاني الهجري.

(٣) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٣٥.

(٤) صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقىٰ في الإسلام ص ١١٧.

(إنَّ القسيم ابن القسيم) ـ يعنون نور الدين ـ له مع الله سرٌّ، فإنّه لم يظفر ويُنصر علينا بكثرة جنده وجيشه[١].

وينقل لنا أبو شامة عن تواضع نور الدين المتناهي:

بلغني أنّ نور الدين، عندما التقىٰ الجمعان، وبلغت القلوب الحناجر، أنَّه مرَّغ ـ رحمه الله ـ وجهه في الأرض وتضرَّع وقال: «اللّهم انصر دينك، ولا تنصر محموداً، ومَنْ هذا محمود الكلب حتىٰ يُنصر؟!». وقد تمَّ ببركة دُعائه هذا فتح المدينة المحاصرة[٢].

لذلك لا غرابة أن نرىٰ الرحّالة وأهل السِّير والتواريخ يعدّونه من جُملة الأولياء الأربعين الملهَمين، حتىٰ من الأبدال، وأنَّه صاحب كشوفات وكرامات[٣]. وقريب من هذه المعاني مدحه الشعراء:

وإن لا يكن أحدٌ الأبدال في فلك التـ ـقىٰ فلا يمارىٰ أنَّكَ القطبُ

وقال العماد الأصفهاني:

أنت قطبُ الدنيا وأصحابُكَ الغُرُّ مقام الأبدال والأوتاد

وقال أيضاً بعدما قبَّل يَد نور الدين:

ما أعلمُ والحظّ عزيز الدركْ لمْ أُحرمْ تقبيل يد الملك[٤]

ومدحه آخر قائلاً:

---

(١) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٨٣. عيون الروضتين ج ١ ص ٢٥٥.

(٢) عيون الروضتين ج ١ ص ٢٧٣ وانظر: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٦١.

(٣) هناك حكاية مشهورة عن نور الدين أنّه رأىٰ النّبي ﷺ في المنام وهو يخبره أن شخصاً يريد أن يسرق الجثة الشريفة، وأراه شكله، فلما أصبح نور الدين توجَّه إلىٰ المدينة المنورة، فعرف ذلك الشخص وصلبه، وتبيَّن أنّه يهودي لابس ثياب مسلم متزهد (انظر: شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٢٧، بدائع الزهور حوادث ٥٦٩ هـ، غربال الزمان ص ٤٥٢).

(٤) خريدة القصر ج ٣ ص ٤٢، ٤٩ ت شكري فيصل.

ذو الجهادين من عدوٍ ونفس أنتَ طولَ الحياةِ في هيجاء
أنتَ حيناً تُقاس بأسدِ الور د وحيناً تُعَدُّ في الأولياء

وبعض من المتقدّمين، لا يذكر اسم نور الدين إلاَّ ويقول عنه: العالم، الوليّ، العارف. قال صاحب الإشارات: وبدمشق قبر نور الدين زنكي من الأولياء[1]. وفي الجامع الذي بناه ـ رحمه الله ـ في حماة نقرأ:

أَمَرَ بعمل هذا الجامع المبارك، مولانا الملك العادل، العالم، العارف، الزاهد، المجاهد، نور الدين. . .

وقد عمل ـ قُدِّست روحه ـ منبراً بحلب، وقال: هذا لأجل القدس، فأدركته المنية، وكان الفتح علىٰ يد من أراد الله.

فأرسل السلطان صلاح الدين من أحضر المنبر من حلب، وجعله في الأقصىٰ، وقد بقي في الأقصىٰ حتىٰ سنة (١٩٦٩ م)، حين أحرقه الصهاينة، ـ لعنهم الله وخذلهم ـ.

ولنور الدين مناقب خطيرة، وممادح كثيرة، وآثار حسنة يطول شرحها، كما قال ابن عساكر. ومع ذلك كتب ـ رضي الله عنه ـ في بعض الأيام للخطباء الذين كانوا يثنون عليه: «أنا بخلاف كلّ ما يقال».

ذكر ابن الجوزي: كان يلبس الصوف، ولازم السجّادة والمصحف، وله أوراد حسنة، وكان حنفياً، ولا يذكر في مجلسه إلاّ أحوال الصالحين، والمشورة في أمور الجهاد، وكان من أقوىٰ الناس بدناً وقلباً، وأنّه لم يُر علىٰ ظهرِ فرس أشدّ منه، وكان يباشر القتال بنفسه، ويقول: طالما تعرَّضت للشهادة، فلم أدركها.

قال الذهبي: وقد أدركها علىٰ فراشه، وبقي ذلك في أفواه الناس

---

(١) ص ١٦ وانظر: مرآة الجنان ج ١ ص ٣٨٧، غربال الزمان ص ٤٥٢، الزيارات لابن الحوراني ص ٣١.

تراهم يقولون: نور الدين الشهيد. وقد ألقىٰ الله تعالىٰ محبّته في قلوب الخلق، فلا ترىٰ إلا مترحِّماً عليه، زائراً قبره، متوسلاً به إلىٰ الله تعالىٰ في قضاء حاجته.

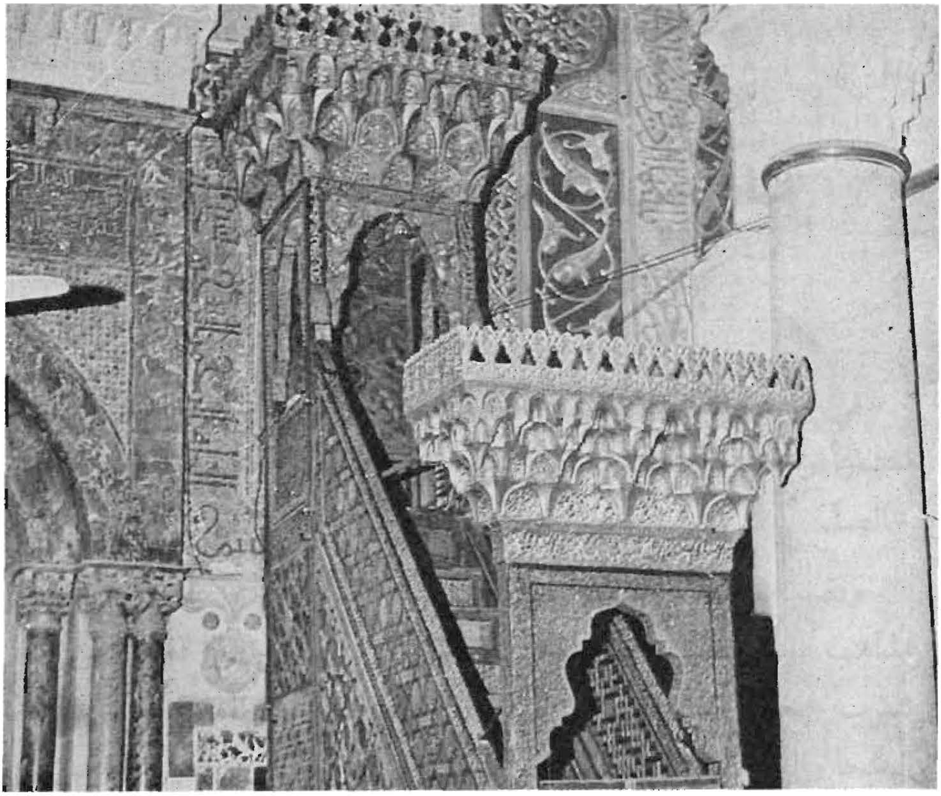
قال ابن عساكر وغيره: وقد جُرِّبَ استجابة الدعاء عند قبره ـ رحمه الله تعالىٰ[1] ـ وسجّل ابن الأثير في الباهر:

«طالعت تواريخ الملوك المتقدّمين، فلم أرَ فيها بعد الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبد العزيز، أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولقد طَبَّقَ ذكره الأرض، وكأنّ الله قد كمَّله».

* * *

(١) الجواهر المضية في طبقات الحنفية ص ١٥٨، عيون الروضتين ج ١ ص ٣٩٦ وانظر: شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٣١، الزيارات ص ٣٥. تعليق: قال الحافظ ابن الجزري في عدّة الحصن الحصين (باب الدعاء):

إنَّ الدعاء مستجاب عند رؤية الكعبة، كما ورد في الحديث الشريف، وورد مجرّباً في مواضع كثيرة مشهورة، منها عند قبور الأنبياء والصالحين، بشروط معروفة. وأقرّه علىٰ ذلك الشوكاني في تحفة الذاكرين، وذكر أن ذلك من جلّة الكرامات بعد الموت، مع الاعتقاد أنّ النافع والضار هو ربُّ العالمين.



منبر نور الدين في المسجد الأقصى المبارك الذي أحرقه الصهاينة عام ١٩٦٩م

الفصل الثامن

نماذج من المجاهدين والشهداء الصوفية في العصر الوسيط

في مرحلة الحكم الأيوبي، أصبح التصوف ظاهرة هامة، وشهد انتشاراً واسعاً، وتملك مشاعر العامة وعواطفهم، حتىٰ بدا مظهراً دينياً خالصاً.

ويفسر بعضهم أنّ ذلك يعود إلىٰ كثرة الفتن والحروب، وإلىٰ نشوء مذاهب دينية تحوي بعض مبادىء الفوضىٰ والهدم، هذا فضلاً عن بدء تسرب جحافل الصليبيين إلىٰ البلاد الإسلامية. فوجد العامة في التصوف الملجأ والمخلّص مما هم فيه من المحن والهموم. (وما الحركة الصوفية في مفهومها الأصيل، إلاّ تكوين أجيال من المسلمين علىٰ التربية النفسية، المفطومة عن الشهوات، القادرة علىٰ مواجهة انحلال المجتمعات، بإيجابية وقوة، ومجابهة الغزو الخارجي، بنفسية المجاهد المعتد للاستشهاد في الدفاع عن الأرض والوطن)[1].

ولقد عظم اعتقاد الناس في مشايخ الصوفية، وخصوصاً عندما بدأ الضَّعف يدبّ في جسم الخلافة العباسية. ومن هؤلاء:

(١) العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي ص ٣٠٤.

علي بن الحسين الواعظ، فقد أشار ابن كثير إلى الدور الكبير الذي قام به هذا الصوفي في الحثّ علىٰ تطهير البلاد من الصليبيين[(١)]، وقد توافد إلىٰ رباطه جمٌّ غفير من أصناف الناس، وأصبح ما يُشبه اليوم ثكنة عسكرية.

ويحدّثنا بعض المؤرخين عن العديد من شيوخ الصوفية، أبلوا بلاءً حسناً في المعارك والحروب مع الصليبيين والتتار، منهم:

عبد الله اليونيني الملقّب «أسد الشام». كانت له زاوية يُقصد بها للزيارة، وممّن زاره «الأمجد» صاحب بعلبك.

قال الذهبي وابن كثير: «كان شيخاً مهيباً، تامّ الشجاعة، كثير الجهاد، دائم الذّكر، صاحب مجاهدات ومكاشفات، وما كان يُبالي بالرجال قلّوا أو كثروا، ويرمي عن قوس زنته ثمانون رطلاً»[(٢)].

ومنهم الشيخ:

أبو عمرو المقدسي الزاهد الحنبلي ت (٦٠٧ هـ) قطب الوقت. كان يقوم الليل، فإذا جاء النوم، عنده قضيب يضرب به علىٰ رجله، فيذهب عنه النوم، وله أوراد كثيرةٌ، وكان لا يسمع بجهاد إلاّ وخرج فيه[(٣)].

ومنهم الشيخ العابد:

أبو العباس القدسي، والمشهور بأبي ثور، قال صاحب الأنس الجليل: وكان صاحب كرامات، وسبب تكنيته أبي ثور، أنّه حضر إلىٰ بيت المقدس، وكان يركب ثوراً ويقاتل عليه في الغزاة[(٤)].

---

(١) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٣٤.
(٢) العبر ج ٥ ص ٦٧، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٩٣.
(٣) شذرات الذهب (وفيات٦٠٧هـ)، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٥٩.
(٤) ج ٢ ص ١٤٤.

ومنهم:

أبو طالب الخفيفي الأبهري الشافعي ت (٦٢٤ هـ) كان عارفاً بكلام المشائخ وأحوال القوم، نعته الذهبي بحجّة الدين، وقال: كان كثير الحجّ والعبادة والتبتّل والصوم والجهاد[١].

ومنهم:

حسن بن يوسف المكزون السنجاري ت (٦٣٨ هـ)، من كبار رجال العلويين، حارب الصليبيين سنة (٦١٧ هـ) مع ألف من رجاله، كان عالماً بالفقه، وأديباً، وشاعراً وجدانياً علىٰ طريق أهل التصوف[٢].

ومن شهداء الصوفية نذكر بعض النماذج منهم: الشيخ الولي:

عبد الرحمن الجلجولي، استشهد في الواقعة التي كانت بباب دمشق، بين المسلمين والإفرنج سنة (٥٤٣ هـ)[٣].

ومنهم الشيخ العارف الزاهد:

الحجّاج الفندلاوي المالكي، خرج راجلاً مع أصحابه لقتال الإفرنج، بعد أن قرأ آية: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ . . ﴾ [التوبة: ١١١] فمات شهيداً وقبره يزار[٤].

ومنهم:

أبو بكر الطوسي الصوفي إمام صخرة بيت المقدس، الذي قتله

---

(١) سير أعلام النبلاء ج ٢٢ ص ٢٦٠.
(٢) معرفة الله والمكزون السنجاري د. أسعد علي ج ١ ص ٤٨٨، الأعلام ج ٢ ص ٢٢٧.
(٣) طبقات الأولياء للسخاوي ورقة ٤٩ ب.
(٤) عيون الروضتين ج ١ ص ٢٠٧.

الإفرنج عند دخولهم القدس سنة (٤٩٢ هـ)[١].

ومنهم الشيخ العلاّمة:

يحيىٰ بن يوسف الصرصري، القادري طريقةً، يقال إنَّ مدائحه في النَّبي ﷺ بلغت عشرين مجلداً، وقد استشهد رحمه الله أثناء هجوم التتار علىٰ بغداد سنة (٦٥٦ هـ)، بعد أن قتل منهم اثني عشر نفراً بعكازه[٢].

ومنهم الشيخ الزاهد القدوة:

نجم الدين الكبري، المحدّث المفسّر شيخ خوارزم، علىٰ ما وصفه الذهبي واليافعي. وفي سياق قصّة اسشتهاده أفادا: (لما نزلت التتار علىٰ خراسان، أرسل إليه جنكيز خان يُخبره بعزمه علىٰ الإغارة علىٰ خوارزم، ويوصيه أن يخرج منها، فرفض الشيخ الدعوة، وجمع أتباعه، وخرج إليهم، وقد أمسك بيده حربة طويلة، وقاتل بشجاعة، فأصابه سهم من سهام المغول قتله سنة (٦١٨ هـ) واستشهد معه علىٰ باب البلد خَلْق من أصحابه)[٣]، أبرزهم ركن الدين إمام زاده[٤].

من آثار نجم الدين رسالة موضوعها: «إنَّ الطُّرق إلىٰ الله بعدد أنفاس الخلائق» وله كتاب: «صفة الآداب»، وكتاب: «فواتيح الجمال».

وهناك من يقول: إنّ الشاعر الصوفي وصاحب تذكرة الأولياء **فريد الدين العطار** كانت وفاته علىٰ أيدي المغول أثناء غارتهم علىٰ مدينة نيسابور سنة (٦١٨ أو ٦٢٧ هـ)[٥].

---

(١) الذيل علىٰ الروضتين ص ٣٧.

(٢) شذرات الذهب وفيات (٦٥٦ هـ).

(٣) انظر: العبر للذهبي ج ٥ ص ٧٣، مرآة الجنان (وفيات ٦١٨ هـ) وانظر: فهرس مخطوطات التصوف ج ٣ ص ٣١٤.

(٤) انتشار الإسلام بين المغول ص ٨٥.

(٥) انظر: التصوف وفريد الدين العطار ص ٢٢٠.

والطريف في الأمر، أنَّ التتار الذين قتلوا كثيراً من الصوفية، ما لبثوا أن أظهروا إسلامهم علىٰ أيديهم[1].

* * *


رسالة الهائم الخائف من لومة اللائم
للشيخ الامام العالم العامل الكامل
المكمل قطب المشايخ نجم الملة
والحق والدين الكبرى
قدس الله روحه
ونور ضريحه

الصفحة الأولى من مخطوط تأليف العارف بالله الشهيد نجم الدين كُبري

---

(١) انظر: فصل: «دور الصوفية في إسلام المغول» من هذا الكتاب.

الفصل التاسع

الناحية الصوفيّة عند بطل الإسلام
صلاح الدين الأيّوبي
(٥٣٢-٥٨٩ هـ)

لقد ارتبط في العصر الوسيط وصف الصلاح، والزهد، والورع، وحسن العقيدة، بالصوفي.

ولذلك لا نبالغ إذا نعتنا السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي خلف نور الدين علىٰ عرش مصر والشام بالصوفي، الزاهد، الورع، «التقي، النقي، بركة أهل زمانه»، كما يقول السبكي في طبقاته. ولعل النصوص التي بين أيدينا، تُلقي ضوءاً علىٰ ذلك.

نشأ صلاح الدين وترعرع في بيئة يغلب عليها طابع التصوف. فأبوه الأمير نجم الدين أيوب ت (٥٦٨ هـ) «كان خيّراً، حسن السيرة، كثير الإحسان إلىٰ الفقراء والصوفية، والمجالسة لهم»[١].

قال ابن كثير: كان شجاعاً، كثير الصلاة، وله خانقاه بالديار المصرية، وله بدمشق خانقاه[٢]، وقد رأىٰ ابن خلّكان في بعلبك خانقاه

---

(١) الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٣٩٤.
(٢) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٧٢.

للصوفية يُقال لها النجمية، وهي منسوبة إليه، ومدحه بأنّه كان كثير الصلاح[1].

إلا أنّ التأثير الأكبر في أخلاق وشخصية صلاح الدين، جاء من سيّده نور الدين، الذي تعلّم منه طرائق الخير، ومحبة أهل الله، والاجتهاد في أمور الجهاد، وقد سار علىٰ الدرب نفسه الذي سلكه سلفه، فقبل أن يَشرع بتخليص البلاد من براثن الصليبيين، بقي اثنتي عشرة سنة (٥٧٠ـ٥٨٢ هـ) يعمل من أجل تحقيق الوحدة، وإعداد قوّة الإسلام المادّية والروحية، فزاد من إنشاء الرُّبَط والخوانق والزوايا، وجعل منها مدارس عسكرية وتربوية، قال الصفدي: وأربىٰ علىٰ نور الدين في جميعِ ذلك، وأردف كلامه هذا شعراً:

أحيا الذي قَدْ سنّ نور الدين   وزاد ما أمكن من تحسين[2]

ويُعَدُّ صلاح الدين أوّل من أدخل مثل هذه المواضع علىٰ مصر. قال القلقشندي: (وأمّا الخوانق والربط، فممّا لم يُعهد بالديار المصرية، قبل الدولة الأيوبية. وكان المبتكر لها صلاح الدين بن أيوب)[3].

ووافقه في ذلك المقريزي والسيوطي وغيرهما: (إن صلاح الدين أوّل من أنشأ خانقاه للصوفية بمصر، ووقف عليها أوقافاً كثيرة، وكان سكّانها يُعرفون بالعلم والصّلاح، ووُلّي مشيختها الأكابر، وممن تُرجىٰ بركتهم. . . مع ما كان لهم من الوزارة، والإمارة، وتدبير الدولة، وقيادة الجيوش، وتقدمة العساكر)[4].

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٥٧.
(٢) تحفة ذوي الألباب فيمن ولي دمشق من الملوك والنواب ج ٢ ص ٨٣ وما بعدها.
(٣) صبح الأعشىٰ ج ٣ ص ٤١٧.
(٤) الخطط ج ٢ ص ٤١٥ وانظر: حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤١، بدائع الزهور حوادث (٥٧٣هـ)، مرآة الجنان ج ١ ص ٤٦٤، النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٥٠.

وقد استرعت هذه الأمور الرّحالة الأندلسي ابن جُبير، أثناء رحلته إلىٰ المشرق سنة (٥٨٢ هـ) فقال:

«ومن مناقب هذا البلد [مصر] ومفاخره، العائدة في الحقيقة إلىٰ سُلطانه، المدارس والمحارس الموضوعة لأهل الطلب والتعبّد... وهذا السلطان الذي سنَّ هذه السنن المحمودة، هو صلاح الدين المظفّر، وصَلَ الله صلاحه وتوفيقه»(١).

وكان ـ رحمه الله ـ أينما حلّ ونزل، يبني المدارس الشرعية والمدارس الروحية، جنباً إلىٰ جنب. فخلال فتح صلاح الدين للقدس سنة (٥٨٣ هـ)، أمر المسلمين بالمحافظة علىٰ كنيسة القيامة، وبنىٰ بالقرب منها مدرسة للفقهاء الشافعية، ورباطاً للصلحاء الصوفية، ووقَف عليهما وقوفاً، وأسدىٰ بذلك إلىٰ الطائفتين معروفاً(٢). وفي فتحه لعكّا، وقَف نصف دار «الإستبار» رباطاً للصوفية، ونصفها مدرسة للفقهاء(٣).

ولا نجد غرابة من صلاح الدين في فعل مثل هذه الأشياء الحسنة، لا سيما إذا علمنا أنّ الفريقين قد رافقوه في معاركه وفتوحاته. ويبرز المؤرخون لنا هذا الحضور، وخاصّة فتح القدس. قال ابن خلّكان:

«وكان فتحه عظيماً، شهده من أهل العلم خلْق، ومن أرباب الخِرق والزهد عالَم»(٤). ويُعزّز هذا الكلام، قول ابن الوردي في تاريخه: «وشهد فتحه كثير من أرباب الخِرق والزهد والعلماء في مصر والشّام، بحيث لم يتخلّف منهم أحد»(٥).

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٤٦.
(٢) الفتح القسي والفتح القدسي للعماد الأصفهاني ص ١٤٥.
(٣) الأنس الجليل ج ١ ص ٣٥٠، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٢٧.
(٤) وفيات الأعيان ج ٧ ص ١٧٩.
(٥) تتمة المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ١٤٧.

وقد كان صلاح الدين يصحب معه علماء الصوفية لأخذ الرأي والمشورة، فضلاً علىٰ أنَّ وجودهم يُعتبر حافزاً قوياً للمريدين علىٰ القتال ببسالة وشجاعة نادرة.

وإذا كانت المصادر اللاتينية، تتحدث أنّ القوّة الفتّاكة في جيش الإفرنج تمثّلت بطائفة الفرسان، فقد تصدّىٰ لها البطل صلاح الدين: (باعتماده علىٰ جماعة من الصوفية الزهّاد، فأوكل إليهم قتل هؤلاء الفرسان، وتخليص الناس من شرورهم، لأنّ هؤلاء الصوفية كانوا أشدّ شوكة)(١).

وجدير بالذّكر، أنَّ النسبة العددية الأكثر في موقعة حطّين، لم تكن للجند النظامية، بل كانت للمطّوّعة والمتصوّفة مع أتباعهم(٢).

ويصف لنا جمهور المؤرخين شخصية صلاح الدين بقولهم:

كان ـ رحمه الله ـ حَسَن العقيدة، كثير الذّكر لله تعالىٰ، قد أخذ عقيدته علىٰ الدليل بواسطة البحث مع مشائخ أهل العلم، وقد جمع له الشيخ أبو المعالي النيسابوري (المنعوت بالقطب)(٣) عقيدة سليمة في علم الظاهر والباطن(٤).

---

(١) رجال ومواقف ص ٢٣٦.

(٢) الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام ص ٣٠٦.

(٣) ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب ص ٩٩، وانظر ترجمة النيسابوري في جامع كرامات الأولياء ج ٢ ص ٤٤٤.

(٤) قال الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي: «علم الباطن ما باشر القلوب، فأثمر لها الخشية، والخضوع، والتعظيم، والإجلال، والمحبة، . . ومنهم من يظنّ أنّ هذا العلم الباطن لا يتلقىٰ من الكتاب والسنة، فأساء الظنّ بالشريعة الكاملة، حيث ظنّوا أنها لم تأت بهذا العلم النافع، الذي يوجد صلاح القلوب، وقربها من علام الغيوب، فضلّوا وأضلّوا . . .» (ورثة الأنبياء ص ٤٧ وما بعدها).

وقال ابن القيم في مدارج السالكين: (إنما سُمّي علم الباطن لأنه مبني علىٰ =

وقد كان شافعي المذهب، أشعري الاعتقاد، يُلقّن أولاده من صغرهم عقيدة الأشعري، كما كانَ يُلقّنهم القرآن[1]، فضلاً علىٰ أنّه كان يُحفّظهم منظومة تتضمن آراء الأشعري ت (٣٢٤ هـ).

سَلَكَ صلاح الدين طريقَ زهد الصوفية، لدرجة أنّه كما قال ابن شداد (سكرتيره وقاضيه): مات ـ رحمه الله ـ ولم يحفظ ما تجب عليه الزكاة... ولم يُخلِّف في خزانته إلاّ سبعاً وأربعين درهماً ناصرية، وجراماً واحداً ذهباً، ولم يُخلِّف مُلكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً، ولا شيئاً من أنواع الأملاك. وقنِع من الدنيا في ظلٍّ خيمة، تهبّ بها الرياح ميمنة وميسرة[2].

وإذا كان من تعريفات الصوفي: هو من يستوي عنده الذهب والمدر [الطين]، فإنّنا نجد عند صلاح الدين تطبيقاً لهذه القاعدة، وإلىٰ ذلك يُشير كاتب سيرته: «وسمعتُ في معرض حديث جرىٰ، يُمكن أن يكون في الناس من ينظر إلىٰ المال كما ينظر إلىٰ التراب، فكأنّه أراد بذلك نفسه ـ رحمه الله ـ»[3].

والروايات كثيرة تؤكّد زهد صلاح الدين وتقشُّفه في مأكله وملبسه، بينما يُغدق كرمه علىٰ الفقهاء والصوفية، ويوقف القُرىٰ بما تملك من

= الإرادة، وهو حركة القلب، كما أنّ علم الفقه يشتمل علىٰ تفاصيل أحكام الجوارح، ولهذا سُمّي علم الظاهر) وانظر هامش ص ٧٥.

(١) تحفة ذوي الألباب ج ٢ ص ٨٥، وانظر مقالنا: الحياة الدينية عند صلاح الدين الأيوبي. مجلة نهج الإسلام، العدد ٥٥ لعام ١٩٩٤. والأشعري: هو أبو الحسن علي بن إسماعيل من نسل أبي موسىٰ الأشعري صاحب رسول الله ﷺ. قال عنه الأسنوي في طبقات الشافعية: «وهو القائم بنصر أهل السنة، القامع للمعتزلة وغيرهم من المبتدعة، بلسانه وقلمه».

(٢) النوادر السلطانية ص ٦، ١٦.

(٣) ن.م ص ١٣، يقول أبو بكر الشبلي ت ٣٣٤ هـ: الصوفي: من صفا من الكدر وخلص من العكر واستوىٰ عنده الذهب والمدر.

موارد وأرباح خدمة للزوايا ودور الفقراء[1]، وإعمار المشاهد الدينية لأضرحة الأولياء والصالحين.

فعند حديث ابن شداد عن المزارات التي في ظاهر حلب، قال: ومنها «مشهد الحسين» ولمّا ملَك صلاح الدين يوسف حلب، زاره في بعض الأيام، وأطلق له عشرة آلاف درهم[2]. وقد رأىٰ ابن جبير عدداً كثيراً من المشاهد التي تُزار ويُتبرّك بها، ويلجأ إليها الغرباء والصلحاء. وقال: ومنها قبّة ومشهد الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ، وهو يصفه بأنّه من المشاهد العظيمة، وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يقول للقائم عليه: زدْ احتفالاً وتأنّقاً، وعلينا القيام بمؤونة ذلك كله[3]. وكما هو معروف فقد زار ـ قُدّست روحه ـ قبر الإمام الشافعي للتبرك به[4].

واتّفق مع الشيخ العارف بالله نجم الدين الجيوشاني علىٰ بناء تربته، فقد كان السلطان يحترم هذا الشيخ ويكرمه. ومن الأضرحة التي زارها صلاح الدين أيضاً، قبر الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز في معرة النعمان [قرب حلب]، وكان له هدف آخر من هذه الزيارة، وهو لقاء الصوفي المقيم دائماً هناك أبي زكريا المغربي. قال ابن الأثير: وكان هذا الشيخ صاحب كرامات ظاهرة[5]. وقال أبو شامة: فتبرّك بزيارة الميت والحي[6].

وكان صلاح الدين إذا سمع بأحد العارفين بالله، زاره في زاويته

---

(١) سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام والجزيرة ص ٤٣٩.
(٢) الأعلاق الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة ق ١ ج ١ ص ١٥٤.
(٣) رحلة ابن جبير ص ٥٠.
(٤) روض المناظر في أخبار الأوائل والأواخر لابن الشحنة ج ٧ ص ٢٥٤ (مطبوع علىٰ هامش الكامل في التاريخ) د.ت.
(٥) الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٢٠.
(٦) عيون الروضتين ج ٢ ص ١٣٤.

ليقتبس من أنواره[١]. وغير الذي ذكرنا، زار أيضاً الوليّ: حياة بن قيس الحرّاني ت (٥٨١ هـ) وطلب منه الدعاء بعدما استشاره في أمر فتح الموصل[٢].

وقد أقام على الموصل بعد فتحها، أتابك عز الدين مسعود زنكي ت (٥٨٩ هـ)، وذلك لِما كان عليه من الشجاعة والعقل وقوة النفس، «وكان من خيار الملوك». قال عنه ابن الأثير: «وكان حليماً، كثير الحياء، وكان قد حجّ ولبس بمكة خِرقة التصوف»[٣].

كما رحل صلاح الدين وأولاده وإخوته إلى الحافظ السلفي الأصبهاني ت (٥٧٩ هـ) وكان فقيهاً صوفياً[٤].

وكان يحترم ويجلّ الطبيب الصوفي الأندلسي عبد المنعم الجلياني ت (٦٠٢ هـ)، صاحب أدب السلوك[٥]، نزيل دمشق سنة (٥٧٥ هـ).

وقد رافق الجلياني جيش صلاح الدين في معظم حروبه.

(وهو يشبه في عمله هذا رئيس المجموعة الطبيّة التي ترافق الجند في أيامنا هذه)[٦]. قال عنه ابن شاكر: «كان أديباً فاضلاً، وطبيباً حاذقاً، له معرفة بعلوم الباطن، وكلام على طريق القوم»[٧].

ومن مشايخ الصوفية الذين كان يُراسلهم صلاح الدين ويعتقد فيهم:

---

(١) سياسة صلاح الدين في بلاد الشام والجزيرة ص ٤٣٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ج ٢١ ص ١٨٢، طبقات الأولياء ص ٤٣٠، البداية والنهاية ج ١٣، ص ٧.

(٣) الكامل ج ١٢ ص ١٠٢ وانظر: فوات الوفيات ج ٧ ص ٣٥٤.

(٤) سؤالات الحافظ السلفي لخميس حوزي ص ١٤ ت: مطاع الطرابيشي دمشق ١٩٨٣.

(٥) انظر: فهرس مخطوطات التصوف في مكتبة الأسد ج ١ ص ٤٦، الأعلام ج ٤ ص ٢٣٣.

(٦) الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام ص ٢٨٢.

(٧) فوات الوفيات ج ٧ ص ٣٠٧.

أبو عبد الله علي بن الحسين المعروف بـ(قضيب البان) القادري البغدادي، الذي كان له خطب ومواقف، كانت أحد العوامل في حث الملوك الأتابكية والأيوبية، في قيادة جيوش الإيمان، وقيامهم بحروب التحرير ضدّ الغزاة الصليبيين(١). وقد بعث ـ رحمه الله ـ قبل موته إلىٰ السلطان صلاح الدين عدداً من أبنائه، للمشاركة في تحرير القدس من ربقة الأعداء، واستطاع أحدهم وكان مُلثّماً قتل أحد قادة جيوش الصليبيين، وقد طلب من الفارس الملثّم التقدّم للمكافأة فلم يجب أحد(٢).

وهذا يُذكرنا بقصة الأعرابي الذي بايع الرسول ﷺ علىٰ الجهاد، فلما انقشع غبار المعركة، أراد الرسول الكريم أن يعطيه حصته من الغنائم، فقال له الأعرابي: ما بايعتك علىٰ هذا يا رسول الله، وإنّما بايعتك علىٰ أن أُرمىٰ بسهم هاهنا ـ وأشار إلىٰ صدره ـ وأدخل الجنة.

وعلىٰ هذا الأساس ذهب كثير من الدارسين إلىٰ القول: بأنّ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بما أُثر عنهم من أقوال وأفعال وأحوال، جميعهم من الزهّاد الصوفية، وإن لم يكن الاسم معروفاً في ذلك الوقت، وإنّ رأس حركة التصوف الإسلامي بمعناها السلوكي الدقيق هو النَّبي ﷺ، الذي تتلمذ علىٰ هدي سلوكه المأثور جميع الصوفية، وجهدوا لاتّخاذه القدوة النموذج(٣).

---

(١) شذرات من أعلام الموسوعة الموصلية الموجزة ص ٣٥٤ لصلاح الموصلي.

(٢) نهاية المطالب في أنساب فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب ص ١٢.

(٣) انظر مثلاً: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ج ٢ د. زكي مبارك. التصوف الإسلامي منهجاً وسلوكاً د. عبد الرحمن عميرة. حركة التصوف الإسلامي، د. ياسر شرف. التصوف الإسلامي الثورة الروحية في الإسلام أبو العلا عفيفي. الحياة الروحية في الإسلام د. مصطفىٰ حلمي. الإسلام الحي أحمد زكي أبو شادي.مقدمة المنقذ من الضلال، د. عبد الحليم محمود. الحركة الصوفية في الإسلام د. محمد علي أبو ريان. وفي سير أعلام النبلاء للذهبي (ترجمة الهروي الأنصاري) نقرأ عبارة: «فما أحلىٰ تصوف الصحابة والتابعين».

وبلغ من تعظيم صلاح الدين للرسول ﷺ واهتمامه بمولده الشريف، أنّه كان يدفع للكُتّاب الذين يؤلّفون في قصة المولد، العطايا الواسعة، وجدير بالذِّكر أنّ المدائح النبويّة ازدهرت في فترة الحروب الصليبية[١]، وأصبحت فنّاً مستقلاً بذاته، فقد مدح الشعراء الرسول الكريم وتوسّلوا به إلىٰ الله سبحانه لكشف الغُمّة عن أُمّته.

نسوقُ نموذجاً علىٰ ذلك، الشاعر الشهيد ابن رواحة الحموي، وكان قد زار قبر النَّبي ﷺ متوسّلاً ومتشفّعاً به إلىٰ الله، ليحقق أمنيته في الشهادة. فقال من قصيدة:

يا خاتمَ الرسلِ سلِ اللهَ لي　　　خاتمةً محمودةَ العاقبة
ولا تردّنَّ يدي بعدما　　　مددتها مُستشفعاً خائبة

ويذكر ابن واصلٍ في تاريخه: أنّ ابن رواحة عندما نام رأىٰ النَّبي عليه الصلاة والسلام وهو يقول: قُبِلْتَ يابن رواحة، وبعد ما عاد رافق السلطان صلاح الدين في حصاره لعكا، واستشهد هناك سنة (٥٨٥ هـ)[٢].

ونعود إلىٰ ما كنّا بصدده عن السلطان الزاهد، فيذكر ابن إياس الحنفي

---

(١) يرىٰ كثير من الباحثين أنّ ازدهار المدائح النبوية في زمن الحروب الصليبية والتترية، مردّه الحرب التي أعلنها الصليبيون والتتار ضد الدين الحنيف وصاحبه. فأفرد الشهيد الصرصري ـ المار ذكره ـ والإمام البوصيري وغيرهم من الشعراء الصوفية، قصائد طويلة، مجّدت في الرسول ﷺ، وجمّلت سيرته العطرة، ودحضت هذه الأشعار افتراءات النصارىٰ واليهود، علىٰ نحو ما هو معروف عند البوصيري في قصيدته المسمّاة: «المخرج والمردود علىٰ النصارىٰ واليهود» وبذلك ألهب هذا النوع من المدائح الشعور الديني والوطني، وغدا أنشودة علىٰ كل لسان.

انظر حول ذلك: عصر الدول والإمارات (مصر) سلسلة تاريخ الأدب العربي د. شوقي ضيف ص ٦٤، ص ٣٦٣ وما بعدها.

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج ٢ ص ٣٠١.

وانظر حول موضوع التوسل: مفاهيم يجب أن تصحح للشيخ محمد بن علوي المالكي ـ حفظه الله ـ.

في تاريخه عند حديثه عن مناقب صلاح الدين: «وهو أوّل من اتّخذ قيام المؤذّنين في أواخر الليل وطلوعهم إلىٰ المآذن للتّسبيح حتىٰ يطلع الفجر، وكان لا يلبس إلاّ الثياب القطن، والجبب الصوف[1]. وقد عدّه اليافعي من جملة الأولياء الثلاثمائة[2]. ومن الشعراء القدماء من أثنىٰ علىٰ نزعة التصوف التي تميّز بها السلطان فقال أحدهم:

ملكٌ لهُ في الحربِ بحرُ تفقّهِ ... ولهُ غداةَ السِّلمِ زهدُ تصوفِ[3]

وحُكي أنّه كان يجتمع عنده الصوفية كل ليلة جمعة، ويتداعون لحضور محافل الذكر، وسماع الأناشيد والقصائد النبوية. ويدلّنا علىٰ ذلك كلام ابن الأثير في الكامل: «كان يحضر عنده الفقراء والصوفية، ويعمل لهم السماع، فإذا قام أحدهم لرقص أو سماع يقوم له، فلا يقعد حتىٰ يفرغ الفقير»[4].

---

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ١ ص ٢٤٨.

(٢) مرآة الجنان وعبرة اليقظان ج ١ ص ٣٨٧، وانظر غربال الزمان ص ٤٥٢.

(٣) عيون الروضتين في أخبار الدولتين ج ٢ ص ١٧٧.

(٤) الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٩٧. تعليق: ورد في الحديث الشريف «كان أصحابه ﷺ يتناشدون الشعر» رواه الترمذي وأبو داود والإمام أحمد. ولم ينكر العلماء السماع علىٰ الصوفية المخلصين، ومنهم العز بن عبد السلام والحافظ ابن رجب الحنبلي في نزهة الأسماع والحافظ ابن حجر العسقلاني الذي يقول في كف الرعاع: «ولسنا نحرّم مطلق السماع، ولا نعتقد إنّما يُفعل من ذلك كله سفساف، بل منهم العارفون وهم حزب الله...» ويقول الغزالي في الإحياء: لا يحرّم السماع نص ولا قياس. وأسند البيهقي في شعب الإيمان قال: سئل أبو سهل عن السماع قال: يستحب ذلك لأهل الحقائق، ويباح ذلك لأهل الورع، ويكره ذلك للفسّاق. أما «الرقص» فقد قال الهجويري في كشف المحجوب ص ٥٠٢: «لا أساس له في طريق الصوفية، ولكن حيث أن حركة الوجد، وفيضان النفس، واضطراب القلب، في السماع تشبه عملية الرقص، أُلبس ذلك علىٰ البعض...». وقد رخّصه العلماء للذاكر إذا خرج عن طوره، أو حصلت له حال لم يملك معه شعوره.

وانظر: فتاوىٰ السيوطي ج ٢ ص ٢٣٤، الفتاوىٰ الحديثية لابن حجر المكي ص ٢٩٨.

وقد أنشده الواعظ التنوخي أبياتاً تدلُّ علىٰ تشبّع صلاح الدين بروح الصوفية.

وعن تورّع هذا البطل، نسوق حواراً جرىٰ بينه وبين كاتبه (العماد الأصفهاني) يقول العماد: «رأىٰ لي يوماً دواة محلاّة بالفضة، فأنكرها، وقال: هذا حرام، فقلت علىٰ سبيل المدافعة والمناظرة، أوَليس يحلُّ حلية السلاح، واستصحابه في الكفاح؟ ودوائي أنجع، ومداد دواتي أنفع، وسلاح قلمي أحدّ وأفتك وأقتل، فقال: ليس هذا صالحاً، فقلت له إنّ الشيخ أبا محمد والد إمام الحرمين قد ذكر وجهاً في جوازه، ثم لم أعد بعدها أكتب في تلك الدواة».

لذلك نرى العماد القريب من صلاح الدين يفجع أكثر من غيره بانتقال هذه الروح الطاهرة إلىٰ جوار ربها فيقول:

مات بموته رجاء الرجال، وأظلم بغروب شمسه فضاء الأفضال، كان معصّباً للكبائر، ولا يسامح بالصغائر. ورثاه في قصيدةٍ رفعه فيها إلىٰ درجة الخلفاء الراشدين، من ذلك قوله:

لا تحسبوهُ ماتَ رجلٌ واحدٌ ... قدْ عمَّ كلَّ العالمينَ مماتهُ
لو كانَ في عصرِ النبي لأُنْزِلَتْ ... في ذِكرهِ مِنْ ذِكرهِ آياتُهُ[1]

قال الذهبي: وجد الناس عليه شبيهاً بالأنبياء، ومارأيتُ ملكاً حزِن الناس لموته سواه.

وبنىٰ ولده الأفضل علىٰ قبره قبة، شمال الجامع الأموي لزوّاره، قال أبو شامة: حُكي لي أنّه رؤي في المنام النبي ﷺ في جماعة من الصحابة، زاروا قبر صلاح الدين رحمه الله.

---

(١) الروضتين ج ٢ ص ٢١٥.

وذكر القاضي مجير الدين الحنبلي وغيره: أنَّ الدّعاء عند قبره مُستجاب[1].



ضريح صلاح الدين الأيوبي بدمشق

(١) الأنس الجليل ج ١ ص ٣٩٥، الزيارات لابن الحوراني ص ٣٩، التذكرة الأيوبية ورقة٢٤ أ.

ومن المستحسن ذكره هنا قبل ختام كلامنا عن صلاح الدين، أنّه قبل وفاته زوّج أخته خاتون من الملك المظفّر:

أبو سعيد كوكبري ت (٦٣٠ هـ) صاحب إربل، وذلك لشجاعة هذا الأخير، وحُسن اعتقاده في التصوف.

قال ابن كثير في ترجمته: (أحد الأجواد والسادات الكبار، والملوك الأمجاد، له آثار حسنة، وكان يعمل المولد الشريف، ويحتفل به احتفالاً يحضره العلماء والصوفية، ويصرف عليه كلّ سنة ثلاثمائة ألف دينار. وكان مع ذلك شهماً، شجاعاً، فاتكاً، بطلاً، عالماً، عادلاً، متقشّفاً علىٰ نفسه، حتىٰ أنَّ زوجته عاتبته علىٰ ذلك، فلم يسمع كلامها. وقيل إنّه استطاع أن يفكّ من الإفرنج ستين ألف أسير مسلم. وقد صنّف له الشيخ أبو الخطّاب بن دحية مُجلداً في المولد، سمّاه: «التنوير في مولد البشير» فأجازه علىٰ ذلك بألف دينار)[1].

وقال ابن خلّكان في معرض حديثه عن الملك المظفّر هذا: (كان موصوفاً بالقوة المفرطة، والشهامة، شهد مع صلاح الدين مواقف كثيرة، وثبت في مواضع لم يثبت بها غيره، ولم يُنقل أنّه انكسر في مصاف [معركة] قط، وكان حسن العقيدة، ويعمل السماع للصوفية، وبنىٰ لهم الخوانق، واحتفاله بالمولد فإن الوصف يقصر عن الإحاطة به).

كما يعمل للجند عرضاً أثناء الاحتفال بالمولد، وتارة نظر السلطان إلىٰ الناس، وتارة إلىٰ الجند، وبعد الانتهاء من العرض، يُعدّ سماط الأكل والحلوىٰ... وختم كلامه قائلاً: ومع الاعتراف بجميله ومحاسنه، فلم أذكر شيئاً علىٰ سبيل المبالغة، بل كلّ ما ذكرته عن مشاهدة وعيان[2].

---

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٣٧.

(٢) وفيات الأعيان ج ٤ ص ١١٣، التذكرة الأيوبية خ ورقة ١٣٥ أ.

ونحن يطيب لنا أن نُردّد مع شاعرنا البوصيري ت (٦٩٦ هـ) بعض ما قاله في بردته المباركة:

ومَـنْ تكـنْ بـرسـولِ اللهِ نُصـرتُـهُ إنْ تَلْقَهُ الأُسْدُ في آجامِها تجمِ

كان لاهتمام صلاح الدين بأمور التربية الروحية، أثرها البعيد في تكوين شخصيات أولاده، وخاصّة الملك الظاهر:

غياث الدين غازي صاحب حلب ت (٦١٣ هـ) فقد كان يُكثر التردد علىٰ الشيخ محي الدين بن عربي الصوفي المشهور، ويسأله الدّعاء له، ويتلقىٰ منه إرشاداته. وقد أثنىٰ عليه ابن عربي في بعض كتاباته بقوله: «ما رفعت إليه حاجة من حوائج الناس إلاّ سارع في قضائها من فوره، من غير توقّف، كانت ما كانت»[1]. يصفه المؤرّخون: بأنّه كان مهيباً، ذا سياسة وفطنة، ودولته معمورة بالعلماء والفضلاء والأكابر، حضر مُعظم غزوات والده، وهو الذي جمع شمل البيت الأيوبي، وكان ملجأ للغرباء، وكهفاً للفقراء، يزور الصالحين ويتفقّدهم.

ويذكر ابن شدّاد، أنّ فتح عكّا، تمّ ببركة قدوم الملك غازي، بما أظهره من أعمال البطولة الخارقة، واستبشر والده [صلاح الدين] بغرّته، وعلم أنّ ذلك بيُمن وصلاح سريرته، واستبرك أنَّ النصر مقرون بمجيئه مرّة مع أُخرىٰ، وثانية بعد أولىٰ[2].

وهو الذي صدَّ غارات الصليبيين عن حلب، وقد علّق المؤرخ البريطاني توينبي علىٰ ذلك قائلاً: لو سقطت حلب للصليبيين لصار الشرق لاتينياً.

وكان ـ رحمه الله ـ كوالده، يوقف علىٰ مزارات الأولياء أوقافاً جمّة.

---

(١) الوصايا ص ٢٥٧.

(٢) انظر: النوادر السلطانية ص ١٠٤، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج ٣ ص ٢٤٣.

ويذكر ابن الشحنة عن إحداها، لمّا عظَّم الملك غازي هذا المشهد، عظّمه الناس، ويروىٰ أنَّه من عجيب أمر هذا المشهد، أنَّ التتار لمّا ملكوا البلاد، لم يقتلوا أحداً ممن التجأ إليه[1].

قال ابن العديم: ولم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد سيف الدولة ابن حمدان ما اجتمع ببابه من الشعراء، والقرّاء، والفقراء، وغيرهم. وأُصيب أهل حلب بموته بمصيبة فتّت في أعضادهم، وكان له في كلّ دار مأتمٌ وعزاء، وأفرد له ابن أبي طي كتاباً مستقلاً بعنوان: «عقود الجواهر في سيرة الملك الظاهر».

ولا شكّ أنّ ابن الأثير أنصفه، حين نعته بأنّه «من خيار عباد الله»[2].

* * *

---

(١) الدر المنتخب ص ٩٥ وانظر: الأعلاق الخطيرة ج ١ ص ١٥٤، ١٦٤ وفيه أن الملك غازي أوقف علىٰ مشهد الحسين ستة آلاف درهم كل سنة.

(٢) الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٣١٤.

الفصل العاشر

أضواء على جهاد الشيخين

محيي الدين بن عربي وأبي الحسن الشاذلي

رأينا فيما سبق أنَّ الشيخ محيي الدين بن عربي علىٰ الرغم من اشتغاله بدقائق علم التصوف، فإنه لم يقطع صلته مع السلاطين وقوّاد الدولة الكبار، ومنهم من حصل منه علىٰ إجازة في العلم(١).

ويذكر أحمد أمين وغيره، أنّ ابن عربي أُثر عنه أنّه كان خلال الحروب الصليبية، يحرّض المسلمين كثيراً علىٰ الجهاد، ومقاومة الغزاة، «وفي كلّ مناسبة يلعن ابن عربي الإبقاء علىٰ الصليبيين بين المسلمين، ويشيع كرهه الشديد لهم، داعياً إلىٰ اتحاد جميع المسلمين، تفادياً لزوال الإسلام»(٢).

---

(١) كالتي حظي بها الملك المظفر غازي بن أبي بكر (العادل) ابن أيوب ت (٦٤٥ هـ) (انظر: الأعلام ج ٥ ص ١١٢) وجاء في أولها: أقول وأنا محمد بن علي العربي الطائي الأندلسي الحاتمي وهذا لفظي، استخرت الله تعالىٰ، وأجزت السلطان الملك المظفر...

وقد ذكر هذه الإجازة الفيروزابادي في رسالة له إلىٰ الملك الناصر ضمّنها دفاعه عن ابن عربي (انظر خ رقم ١٣٤٦ الورقة ٤٣ ب مكتبة الأسد).

(٢) ابن عربي: لآسين بلاثيوس ص ٧٣، ترجمة عبد الرحمن بدوي وانظر: ظهر الإسلام لأحمد أمين ج ٤ ص ٢٢٢، التصوف العربي الإسلامي ص ١٠٠.

ومن وصاياه قوله: (أوصيك بتقوىٰ الله، وحفظ لزوم ظاهر الشرع، وحفظ حدوده، وعليك بالجهاد الأكبر، وهو جهاد هواك، فإنّك إذا جاهدت نفسك هذا الجهاد، خلص لك الجهاد الآخر في الأعداء، الذي إن قتلت فيه كنت من الشهداء الأحياء، الذين عند ربهم يرزقون. وفضل المجاهد في سبيل الله كالصائم القانت بآيات الله... واجهد أن ترمي سهماً في سبيل الله، وعليك بتجهيز المجاهد بما أمكنك، ولو برغيف إذا لم تكن أنت المجاهد، واخلف الغزاة في أهلهم بخير تكتب معهم، واحذر إن لم تغزُ أن لا تحدّث نفسك بالغزو، فإنّك إن لم تغزُ ولم تحدّث نفسك بالغزو، كنت علىٰ شعبة من النفاق. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنّه قال: من سأل الشهادة بصدق، بلّغه الله منازل الشهداء، وإن مات علىٰ فراشه)[1].

ويكرّر ابن عربي في مصنّفاته مثل هذه الوصايا، فيقول مثلاً في مواقع النجوم: «اعلم يا بني أنّ الله تعالىٰ لمّا أراد أن يرتقي عبده إلىٰ المقامات العليّة، قرّب منه أعداءه حتىٰ يعظم جهاده لهم، ويشتغل بمحاربتهم أوّلاً، ثم بمحاربة غيرهم من الأعداء الذين منه أبعد...»[2].

ونظّم ـ رحمه الله ـ أشعاراً في الجهاد، كالتي يخاطب بها السلطان النور بن الرشيد:

قصدت بلاد الكفر تبغي فتوحَها فأبشرْ فإنّ الروم فيك لفي خسرِ
رأيت لكم رؤيا تدلُّ علىٰ النصرِ وفتح بلادِ الكفرِ والقتلِ والأسرِ[3]

(١) الوصايا ص ٣٧ وما بعدها. وانظر: خ رقم ٣٩٧٥ (مكتبة الأسد) بعنوان وصية ابن عربي.
(٢) ص ٩٦.
(٣) مسامرات ج ٢ ص ٤٢١ اقتبسه: محمود غراب في ترجمة ابن العربي من كلامه ص ٥٦.

ويقول متحدّثاً عن نفسه:

وإذا فُلَّ سيفي لمْ تفلَّ عَزائمي فلي عزماتٌ شاهداتٌ صوارمُ[١]

ويقول أيضاً:

حملتُ به لأرمي الموت والردىٰ ولا أبتغي حمداً له النفس تعمل
ولكنْ ليعلو الدينُ عزّاً وشرعنا إلىٰ موضعٍ عنهُ الطواغيتُ تسفل[٢]

وقد مرَّ معنا في بداية هذا الكتاب عند كلام الشيخ الأكبر عن أصناف الأولياء قوله: «ومنهم السائحون، وهم المجاهدون في سبيل الله، لقيت من أكابرهم يوسف المغاور الجلاء، ساح مجاهداً في أرض العدو عشرين سنة، وممن رابط بثغر الأعداء. . .»[٣].

وقد انتصر لابن عربي كبار المؤرّخين والعلماء المحققين، وأثنوا عليه بما يليق بمقامه[٤].

---

(١) الأعلاق ص ٢٩٤.

(٢) الديوان ص ٤٠٧.

(٣) راجع ص ٤٧.

(٤) قال الذهبي: وله ذكاءٌ وقوة خاطر، وحافظة، وتدقيق في التصوف، وتآليف جمة في العرفان. وقال النووي: الذي عندنا يحرم علىٰ كل عاقل أن يسيء الظن بأحد من أولياء الله، ويجب عليه أن يؤول أقوالهم ما دام لم يلحق بهم. وقال عنه العز بن عبد السلام: هو قطب زماننا. (انظر: ص ١٣٦)

وقال أبو شامة: حضرت الصلاة عليه وشيعته، وكانت له جنازة حسنة، وله تصانيف كثيرة كانت عليه سهلة. وقال الفيروزابادي صاحب القاموس: لم يبلغنا عن أحدٍ في القوم أنّه بلغ في علم الشريعة والحقيقة ما بلغ الشيخ محي الدين أبداً.

وقال المقري: وبالجملة فهو حجة الله الظاهرة، وآيته الباهرة، ولا يلتفت إلىٰ كلام من تكلم فيه. وأُلِّفت الكتب الكثيرة في الدفاع عن ابن عربي منها: تنبيه الغبي علىٰ تبرئة ابن عربي للسيوطي، ولمحمد بن حمزة (شيخ السلطان محمد الفاتح) كتاب في الدفاع عنه (خ رقم ٥٦٠٥) (مكتبة الأسد).

وقد ذهب معظم العلماء المحققين، إلىٰ قبول كلامه الموافق لظاهر الشرع، وتأويل كلامه الذي يخالف ظاهره علىٰ المحامل الحسنة، بعد أن تبين تقواه في =



إجازة الشيخ الأكبر للملك المظفر

= الدين وظهر علمه بين المسلمين. وقال الشعراني: وليحذر من مطالعة أغلب كتب ابن عربي، لعلو مراقيها، ولأنه قد دسَّ فيها في مواضع عديدة.

ومن جليل أعمال الصوفية وآثارهم الحسنة في الأمة الإسلامية، أنَّ الملوك والأمراء متىٰ قصدوا الجهاد كان مشايخهم يحرّضون أتباعهم بالمشاركة في ردِّ العدوان، وكان هؤلاء يسارعون بذلك لعظيم اعتقادهم وانقيادهم، فيكون ذلك سبباً للظفر والنصر. وقد اشتهر من هؤلاء العارفين الشيخ:

أبو الحسن الشاذلي:

يذكر صاحب طبقات الشاذلية وابن العماد في كلامه علىٰ وفيات سنة (٦٥٦ هـ): (وفيها الشاذلي أبو الحسن المغربي الزاهد، (حجّة الصوفية) شيخ الطائفة الشاذلية، كان ضريراً، اشتغل بالعلوم الشرعية، ثم سلك منهاج التصوف حتىٰ ظهر صلاحه، قدِم إسكندريّة في المغرب وصار يلازم ثغرها من الفجر إلىٰ المغرب)[(١)].

ثم تحوّل أبو الحسن من المغرب إلىٰ مصر، وفيها يسطّر لنا مثالاً رائعاً عن مقاومة الصوفية للغزاة، فقد كان هو وأصحابه في مقدمة الصفوف التي دمّرت في وقعة المنصورة سنة (٦٤٧ هـ) حملة الملك الفرنسي لويس التاسع، بما أذكاه من حماسة في المجاهدين[(٢)]، يثبّت من جأشهم، ويبعث الحميّة في نفوسهم.

قال الشيخ ابن دقيق العيد: حضرت بالمنصورة مع الشيخ أبي الحسن وما رأيت أعرف بالله منه[(٣)]. ونصر الله المؤمنين نصراً مؤزّراً، عاد بعدها

---

(١) طبقات الشاذلية للدكدكجي خ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٧٩.

(٢) انظر: حوادث التاريخ بحسب ترتيب السنين (حوادث ٦٥٦ هـ)، من ضيع القرآن ص ١٩٨، مرآة الجنان ج ٤ ص ١٤٢، أبو الحسن الشاذلي الصوفي المجاهد والعارف بالله ص ٦٠ وما بعدها.

(٣) مقال: «أبو الحسن الشاذلي» مجلة العربي العدد ٦٨ لعام ١٩٦٤، تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية للسيوطي ص ٣١، ومن الأوراد التي أوصىٰ مريديه بقراءتها في الليل بعد ما تهدأ المعارك، حزبين ألّفهما وهما: «حزب النصر» وحزب «الطمس =

الشاذلي إلىٰ ما كان عليه من التدريس والوعظ وتهذيب النفوس بين مريديه، الذين اشتهر منهم وذاع صيته:

الشيخ أبو العباس المرسي، قال عنه ابن تغري بردي: «الإمام العارف قطب زمانه. . . وكان من جملة الشهود بالثغر»[(١)].

* * *



ضريح ومسجد الإمام أبو الحسن الشاذلي في صحراء عيذاب المصرية

= علىٰ عيون الأعداء».

(١) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٧١. وانظر عن مشاركة إبراهيم الدسوقي وأحمد البدوي في حروب الصليبيين الحركة الصوفية في الإسلام د. محمد علي أبو ريان ص ٣١٧ وما بعدها.

الفصل الحادي عشر

الناحية الصوفية عند الظاهر بيبرس

قائد معركة عين جالوت

(٦٠٧-٦٧٦ هـ)

والدارس لتاريخ التصوف، يجد أنّه بلغ ذروته في عصر المماليك. ويعزو أغلب الباحثين ذلك، إلىٰ الأخطار التي ألمَّت بالعالم الإسلامي في القرن السابع الهجري، علىٰ أيدي الصليبيين والتتار، وقضاؤهم علىٰ الخلافة العباسية في بغداد سنة (٦٥٦ هـ)، جعلت الكثيرين يرغبون في التوبة الخالصة إلىٰ الله، والزهد في الدنيا، والعودة إلىٰ سُنَّة السلف الصالح، للخلاص من الأوضاع السيّئة التي ألمّت بالمسلمين.

وليس من المغالاة القول أنّ السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري يأتي في المرتبة نفسها التي احتلّها صلاح الدين ونور الدين. وذلك للوقائع الهائلة والنجاحات العظمىٰ التي حقّقها علىٰ التتار وبقايا الصليبيين، وتوَّجها بالمعركة الفاصلة في التاريخ الإسلامي والعالمي (عين جالوت ٦٥٨ هـ).

والشيء الذي نريد إلقاء الضوء عليه في هذا الجانب، هو العلاقة الوطيدة التي كانت قائمة بين «بيبرس»، وبين شيوخ التصوف في عصره، وإكرامه لهم.

قال ابن شدّاد: «وأقام زوايا للمشايخ بدمشق والقدس، وأغدق عليها أعمال البرِّ وهذا من فرط مالهم في قلبه من المحبة والرغبة وصفاء النية وحسن العقيدة. وإذا ما ورد عليه المشايخ من أهل الحجاز والحرم النبوي، كان يعظّمهم ويتبرّك بهم»[١].

ويشبه هذا الكلام قول صاحب سيرته: «لمّا علم ـ تغمّده الله برحمته ـ أنَّ أفضل ما يتقرّب به المتقرّب إلىٰ الله، تعظيم أوليائه، ثابر علىٰ الوفود عليهم، والتودّد إليهم، والقيام بحقوقهم، والاهتداء بلوامع بروقهم، وصحب جماعة متأدّباً بآدابهم، ينكّس رأس العزّ لديهم بالخضوع»[٢].

ويبرز في طليعة هؤلاء: الولي الشهير:

أحمد البدوي ت (٦٧٥ هـ) وأخوه الشريف حسن.

يروي صاحب شذرات الذهب: «أنَّه بوصول السيّد البدوي إلىٰ مصر قادماً من المغرب، تلقاه الظاهر بيبرس بعسكره، وأكرمه وعظَّمه»[٣] وانتسب إلىٰ طريقته[٤]. وفي لقاءٍ وقع له مع أخيه الأكبر الشريف حسن، قال له: «سألتك بالله إلاّ ما أخذت عليَّ العهد، إني عندك ومريدك.. فكاشفه الشريف بإمارات خفيّة، وجعل الظاهر يقبّل قدميه»[٥].

---

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٢٣ وما بعدها.
(٢) تاريخ الملك الظاهر ص ٢٧١.
(٣) ج ٥ ص ٣٤٥.
(٤) الأعلام ج ١ ص ١٧٥.
(٥) الجواهر السنية والكرامات الأحمدية ص ٣٨، وانظر دائرة المعارف الإسلامية ج ١ ص ٤٦٦ وفيها توهّم، إذ ذكر أن الذي قُبِّلتْ رجله هو سيدي أحمد البدوي.
تعليق: ورد في الأحاديث الشريفة الصحيحة، أن بعض الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يقبّلون رجل الرسول ﷺ فضلاً عن تقبيل يده المباركة. انظر: الأدب المفرد للبخاري رقم ٩٧٥، الترمذي رقم ٣١٤٤، ابن ماجه رقم ٣٧٠٥، أحمد ج ٤ ص ٢٣٩. رياض الصالحين ص ١٥١. وذكر ابن كثير أنه خلال فتح بيت المقدس همّ عمر بتقبيل رجل أبي عبيدة (البداية والنهاية ج ٧ ص ٥٥). وقد ورد مثل ذلك في =

ولكنّ الذي لعب دوراً مهمّاً في حياة بيبرس هو الشيخ:

خضر الكردي العدوي ت (٦٧٥ هـ) قال ابن كثير وغيره: كان السلطان ينزل بنفسه إلىٰ زاويته التي بناها له بجبل المزّة في كلِّ أسبوع مرّة أو مرّتين. ووقف علىٰ زاويته شيئاً كثيراً جدّاً. وكان مُعَظَّماً عند الخاصّ والعامّ، بسبب حبّ السلطان وتعظيمه له. وكان فيه خير ودين وصلاح. وقد كاشف السلطان بأشياء كثيرة[١]. وكان بيبرس يستشيره في أموره، ولا يخرج عما يشير به، ويأخذه معه في أسفاره وغزواته، وأطلق يده، وصرّفه في مملكته[٢].

وهو الذي أخبر السلطان بأنّه سوف يتسلطن، وأخذ يقوّي روح الجهاد لديه. ومما يدلُّ علىٰ ملازمة الشيخ خضر للسلطان في معاركه، قول الشاعر المعاصر لتلك الفترة:

ماالظاهر السلطانُ إلاّ مالك الدنـ ـيا بـذاك لنـا المـلاحـمُ تخبـرُ
ولنا دليل واضح كالشّمس في وسـطِ السمـاءِ لكـلِّ عيـنٍ تنظـرُ
لمّـا رأينـا الخضـر يقـدمُ جيشـهُ أبـداً علمنـا أنّـهُ الإسكنـدرُ[٣]

ويحدّثنا ابن عبد الظاهر، رئيس ديوان السلطان، عن حضور الصوفية للحروب، وهو شاهد عيان بقوله: «وحضر العبّاد، والزّهاد، والفقهاء، والفقراء [الصوفية]، إلىٰ هذه الغزاة المباركة التي ملأت الأرض بالعساكر، وأصناف العالَم، ولم يتبعها خمر، ولا شيء من الفواحش، بل

= عهد التابعين كتقبيل أحدهم ليد إبراهيم بن أدهم ورجله (مختصر منهاج القاصدين ص ١٥٩).

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٧٨، طبقات الأولياء ص ٤٣١، تاريخ الملك الظاهر ص ٥٨.

(٢) المنهل الصافي لابن تغري بردي ج ٥ ص ٢١٨، الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٤٣٠.

(٣) الروض الزاهر ص ٢٣٨.

النساء الصالحات يسقين الماء في وسط القتال، ويجررن في المجانيق، وأطلق لجماعة من الصالحين الرواتب، مثل الشيخ علي المجنون[١]، والشيخ إلياس، من الغنائم والحوائج. وأطلق للشيخ علي البكّاء جملة من المال[٢].

وبعد فتح بيت المقدس، زار السلطان قبور الأنبياء والصحابة والصالحين، المدفونين هناك. ومن الأعمال التي قام بها وذكرها ابن كثير وعدّها من جملة مناقبه: (أنّه جدّد قبّة الخليل عليه السلام، وبنىٰ علىٰ قبر موسىٰ عليه السلام قبّة ومسجداً، ووقّف عليه وقفاً، وبنىٰ علىٰ قبر أبي عبيدة ـ رضي الله عنه ـ مشهداً، وقف عليه أشياء للواردين إليه، وجدّد قبر جعفر الطيّار، ووقف علىٰ الزائرين له شيئاً كثيراً، وجدّد مشهد زين العابدين...). وختم ابن كثير كلامه: وله من الآثار الحسنة والأماكن ما لم يبن في زمن الخلفاء، وملوك بني أيّوب، مع اشتغاله في الجهاد في سبيل الله[٣].

وبعد أن رتّب السلطان أمور القدس، توجّه إلىٰ الحجّ. وبعد أن أدىٰ المناسك، عمد إلىٰ الكعبة، فغسلها بيده، وحمل الماء في القرب علىٰ كتفه، وكلّ من رمىٰ إليه إحرامه، غسله له بما ينصبّ من الكعبة الشريفة، ويرميه إلى صاحبه، وبعد عودته إلى دمشق «تصدّق بعشرة آلاف إرْدَبّ قمح للفقراء والمساكين وأرباب الزوايا»[٤].

يصف المؤرّخون «بيبرس» هذا: بأنَّه كان ملِكاً، شجاعاً، مقداماً،

---

(١) ويصفه ابن عبد الظاهر «بالصلاح وله كرامات معروفة وكان له دورٌ متميزٌ في فتح أرسوف».
(٢) الروض الزاهر ص ٢٣٩.
(٣) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٧٥ وما بعدها.
(٤) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٨٠. والإرْدَبُّ: كيل ضخم معروف بمصر.

صالحاً، شديد التواضع[1]، متقشّفاً، هو وجيشه، كما كان علىٰ جانب كبير من الديانة، وأنّه صاحب حال ونفس قويّة.

حكىٰ ابن الفوطي أنَّ الظاهر بيبرس قال: «رأيت النَّبي ﷺ قبل وصولي إلىٰ السلطنة، وقد قلّدني سيفاً. ثم رآه قبل وفاته، فقال له: أعطني الوديعة، فأعاد إليه السيف، فأخذه ﷺ، وتُوفّي بعد ذلك بأيّام»[2].

وأخيراً لا عجب أن نجد من ألقابه: (الأسد الضاري) و (ركن الدنيا والدين) و (صاحب الوقائع الهائلة مع الصليبيين والتتار).

التي امتدّت من سنة ٦٦١ هـ حتىٰ وفاته سنة ٦٧٦ هـ.

ودفن في دمشق، غير بعيد من سلفيه، في مرحلة الكفاح الشاقّ والطويل، ونعني بهما نور الدين وصلاح الدين رحم الله الجميع وأسكنهم فسيح جناته.

* * *

---

(١) شكا الأمراء مرةً أنهم ينقلون الحجارة علىٰ أكتافهم، فكتب لهم بيبرس وكان علىٰ سور قيسارية ليهدمه بنفسه وفي كفه المطرقة وقد تجرحت يده:
«إنا بحمد الله ما تخصصنا عنكم براحة ولا دعة، ولا أنتم في ضيق ونحن في سعة، ما هنا إلا من هو مباشر الحروب في الليل والنهار، وناقل الأحجار، ومرابط الكفار، وقد تساوينا في هذه الأمور، وما ثمّ ما تضيق به الصدور» (السلوك للمقريزي ج ١ ق ٢ ص ٥٢٥).

(٢) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ص ١٨٨.

الفصل الثاني عشر

دور الصوفيّة في إسلام المغول

تجدر الإشارة إلى أنَّ من أسباب نجاحات الظاهر بيبرس وانتصاراته، هو الدعم الذي أسداه له «بَركة خان» ت (٦٦٥ هـ) حفيد «جنكيز خان»، وابن عم «هولاكو»، ويعدّ من عظماء ملوك التتر في بلاد القفجاق، وأحسنهم سيرة.

وكان «بركة خان» قد لقي وهو عائد من بخارىٰ الشيخ صفي الدين الباخرزي، خليفة زعيم الطريقة الكبراوية، «وأشهر إسلامه علىٰ يديه، وتأكّدت صحبته معه»[١].

(الكبراوية: مؤسسها الشهيد الصوفي نجم الدين الكبري الذي مرَّ ذكره معنا)[٢].

وحتىٰ يتمّ توثيق الصلات والعلاقات بين الملكين، تزوّج الظاهر بيبرس ابنة بركة خان.

---

(١) تاريخ ابن خلدون المسمىٰ «العبر» ج ٥ ص ٢٩، ٥٣٤، صبح الأعشىٰ ج ٤ ص ٣١٣.

وعن المراسلات التي كانت تجري بين بيبرس وبين بركة خان انظر: السلوك للمقريزي ج ١ ق ٢ ص ٤٩٥. وانظر ترجمة بركة خان وتبركه بالعلماء: النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٢٢.

(٢) انظر ص ١٠٠.

والكلام السالف يقودنا إلىٰ الحديث عن قصّة إسلام المغول. وفي الحقيقة «كما تصدّىٰ الصوفيون للغزو المغولي ـ بقدر ما أمكنهم التصدي ـ ووقع منهم شهداء، بذل الصوفيّون جهدهم كلّه لتحويل هؤلاء الغزاة المتوحّشين الوثنيين إلىٰ الدين الإسلامي، ونجحوا في ذلك النجاح كلّه»(١).

ويأتي في طليعة هؤلاء الدعاة، الشيخان: صفي الدين الباخرزي، وسعد الدين بن حَمُّوَيْه ت (٦٥٢ هـ).

قال صاحب النجوم الزاهرة عن هذا الأخير:

«كان زاهداً، عابداً، متكلّماً في الحقيقة، وله مجاهدات ورياضات، اجتمع بملك التتار، فأحسن به الظنّ، وأسلم علىٰ يده خلق كثير من التتار، وبنىٰ هناك خانقاه، وكان له قبول عظيم هناك»(٢).

وقد تواصل دخول التتار في الإسلام على شكل موجات، وأحدث دخول ملكهم غازان [حفيد هولاكو] في الدين الحنيف، علىٰ يد إبراهيم الجويني الشافعي الصوفي(٣) ت (٧٢٢ هـ)، دوياً واسعاً، إذ انضمّ إلىٰ غازان عساكره في إيران وأكثر بلاد ما وراء النهر، وتحوّلوا من ظلمة الكفر إلىٰ نور الإيمان.

وفي آسية الوسطىٰ، دخلت الهداية الربّانية قلب ملك كاشغر المغولي «تغلق تيمور خان» ت (٧٦٥ هـ) أثناء لقائه مع الشيخ جمال الدين البخاري النقشبندي(٤)، وذلك عندما قال تيمور للشيخ وأصحابه: إنَّ

---

(١) انتشار الإسلام بين المغول ص ٨٥، د. رجب محمد عبد الحليم.
(٢) ج ٧ ص ٣١ (وفيات ٦٥٢ هـ).
(٣) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ج ١، ص ٦٧، الأعلام ج ١ ص ٦٣.
(٤) انظر: الحدائق الوردية في أجلاء السادة النقشبندية ص ١١٠.

الكلب أغلىٰ ثمناً من أي واحد منكم، فأجابه جمال الدين: نعم، قد يكون ذلك لو أننا لم ندن بالدين الحق[1].

وفي منطقة جبال (البنغال)، نرىٰ أهلها يسارعون باعتناق الإسلام، ونبذ العقائد الوثنية. ويعود الفضل في ذلك للشيخ الصوفي جلال الدين التبريزي[2].

وأخذ الناس يقبلون علىٰ التصوف. واشتهرت طرق ومرشدون لها احتوت المسلمين، كالطريقة السهروردية، والطريقة المولوية، (نسبة إلىٰ مولانا جلال الدين الرومي) والتي كانت زواياها منتشرة في معظم المدن والقرىٰ في آسيا الوسطىٰ.

«وبرزت الطريقة النقشبندية بمظهر النفوذ والقوّة في القرن الرابع عشر الميلادي، وبثّت حماسة شديدة، وأمدّت الجماعة الإسلامية بحياة جديدة»[3].

وممّا يدلُّ علىٰ عظم نفوذ الصوفيين في تلك البلاد، أنَّ الأمير جوبان ت (٧٣٦ هـ) صار من أعظم وأخلص المريدين للشيخ صفي الدين الأردبيلي. مما جعل غالبيّة المغول وأُناساً كثيرين ينخرطون في سلك هذا الشيخ، حتىٰ أنَّ الأمير جوبان سأل هذا الشيخ يوماً: أيّهما أكثر، جنود السلطان أم أتباعه ومريدوه؟ فأجابه الشيخ: بأن عدد مريديه في إيران وحدها، يبلغ ضعف عدد جنود السلطان[4].

وكان آخر وأعظم إمبراطور مغولي أسلم في الهند وتصوّف بواسطة رجالات العارفين بالله هناك هو:

---

(١) انظر القصة في (الدين الحق) د. حسن حمصي، وانظر: ربانية لا رهبانية.

(٢) انظر: رحلة ابن بطوطة ص ٦١٥ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٨.

(٣) الدعوة إلىٰ الإسلام ص ٢٧٠.

(٤) شرفنامة للبدليسي (مترجم عن الفارسية) ص ١١٨، انتشار الإسلام بين المغول ص ٩٦.

محمد أورنك زيب عالم كير ت (١١١٨ هـ). وهو من سلالة تيمورلنك المشهور.

وقد أجمع من ترجم له علىٰ حسن سيرته، وتزهده، وتقشّفه. ووُصف في الأعلام: بالسلطان المجاهد، العالم الصوفي[١]. وقد أقام في الحكم مدة خمسين سنة، وفتح بلداناً كثيرة. ومن آثاره مصحف مكتوب بخطه.

وتسرَّب هؤلاء المخلصون الأتقياء من الدّعاة، ينتشرون بين التتار الغلاظ الجفاة، يفتحون قلوبهم إلىٰ الإسلام، ويدخلون في دين الله أفواجاً، حتىٰ أسلم جلُّهم، وصاروا من حُماة هذا الدين، وحملة رايته.

وزبدة الكلام: أنَّه لمّا أخلص الدّعاة الصوفية لله النيّة، أثّر كلامهم في القلوب القاسية، فليَّنها، وأزال قسوتها.

ولذلك لاغَرْوَ أن نجد الجاحظ ت (٢٥٥ هـ) يقول: «ومن تمام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرابياً، ويكون الداعي إلىٰ الله صوفياً»[٢].

* * *

(١) ج ٦ ص ٤٦، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ج ٤ ص ١١٣.
(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٤١.

الفصل الثالث عشر

فقهاء صوفيّة مجاهدون

١ ـ العزّ بن عبد السلام

تقدّم ذكر قائد معركة عين جالوت، ولكن، مَن صاحب الفتوىٰ المشهورة في الإعداد لهذه الموقعة الحاسمة في التاريخ ؟ إنّه سلطان العلماء:

عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي ت (٦٦٠ هـ) فلم يمنعه تقدّمه في السن من التحضير والمشاركة في الاجتماعات مع السلطان وقادة الأمّة وحثّهم علىٰ ملاقاة التتار وسحق المعتدين.

ولا مجال للشك، أنّ العز بن عبد السلام كان فقيهاً صوفياً. وبعض تصانيفه[١] وكلام مترجميه قاضية بذلك.

فقد حكىٰ السبكي والسيوطي وغيرهم: أنّ العز لبس خرقة التصوف من الشهاب السهروردي (صاحب عوارف المعارف).

وكان يحضر عند أبي الحسن الشاذلي، ويسمع كلامه في علم الحقيقة[٢].

---

(١) انظر مثلاً: وصية عز الدين بن عبد السلام (خ رقم ٦١٨٣ مكتبة الأسد) وانظر: شجرة المعارف والأحوال، مختصر رعاية المحاسبي، مسائل الطريقة في علم الحقيقة.

(٢) طبقات الشافعية الكبرىٰ (ترجمة رقم١١٨٣)، حسن المحاضرة ج١ ص٣١٥، طبقات =

وأثنىٰ علىٰ ابن عربي عندما قال: لا أرىٰ القطب في زمانِنا إلاّ هذا الشيخ[1].

وسُئل عن قول العلماء في الإحياء لمّا ذكر الغزالي في معرفة الله تعالىٰ والعلم به، قال: «والرتبة العليا في ذلك للأنبياء، ومن ثمّ للأولياء العارفين، ثم العلماء الراسخين، ثم الصالحين»[2].

وذكر الذهبي والأسنوي وغيرهما: «أنّه مع شدّته وصلابته، فيه حسن محاضرة بالنوادر والأشعار، كان يحضر السماع ويرخّص فيه»[3]. وقد أجاب عن هذه المسألة بقوله: «سماع ما يحرّك الأحوال السنية المذكّرة بالآخرة مندوب إليه»[4].

كما للعز مكاشفات وكرامات[5]، منها ما حصلت له أثناء غزو الإفرنج لمصر، ورواها لنا السبكي في طبقات الشافعية[6]. ونقرأ وصف البعض له: الإمام العلاّمة، قدوة الصوفية، بحر المعارف، شيخ الإسلام، سلطان العلماء[7].

= الأولياء الورقة ٥٠ ب، التاج المكلل (ترجمة رقم ١٦٨)، تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية للسيوطي ص ٧١.

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٣٢٢، اليواقيت والجواهر ج ١ ص ١٠، التاج المكلل، ترجمة رقم ١٦٨ رسالة باسم الملك الناصر للفيروزابادي خ الورقة ٤٣ ب.

(٢) الفتاوىٰ ص ١٣٨ وما بعدها.

(٣) العبر ج ٣ ص ٢٩٩، طبقات الشافعية للأسنوي (ترجمة رقم ٨١٣)، ذيل مرآة الزمان مجلد ٢ ص ١٧٥، فوات الوفيات ج ٢ ص ١٨٨.

(٤) فهرس مخطوطات التصوف ج ٢ ص ٣٤٩.

(٥) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (ترجمة رقم ٤١٢).

(٦) منها الكرامة المشهورة: «... فلما رأىٰ الشيخ العز حال المسلمين نادىٰ بأعلىٰ صوته: يا ريح خذيهم عدة مرات، فعادت الريح علىٰ مراكب الإفرنج وكسرتها، وكان الفتح، وغرق أكثر الإفرنج، وصرخ من بين أيدي المسلمين صارخ: الحمد لله الذي أرانا في أمة محمد ﷺ رجلاً سُخر له الريح» (طبقات الشافعية ج ٨ ص ٢١٦).

(٧) انظر: مرآة الجنان ج ٤ ص ١٥٣، جامع كرامات الأولياء ج ٢ ص ١٧١، غربال الزمان ص ٥٣٨.

وقد تحدّث ـ رحمه الله ـ في علوم القوم من الزهد، والمحبّة، والجمال، والجلال، والفناء، كما ذكر بإسهاب المعارف والأحوال والكرامات التي يختصّ بها الأولياء، ولا يعلو مقامهم في هذه الأمور سوىٰ الأنبياء[1].

وقال في فتاويه: (العارفون بالله أفضل الخلق، وأتقاهم لله تعالى.

لأنّ العلم يشرف بشرف المعلوم وبثمراته، والعلم بالله وصفاته أشرف من العلم بكلّ معلوم، ولا شكّ أنّ معرفة الأحكام لا تورّث شيئاً من هذه الأحوال. وأكثر علماء الأحكام مجانبون للطاعة، ويغلب عليهم عدم الخشية.

وممّا يدلّ علىٰ تفضيل العارفين بالله علىٰ الفقهاء، ما يجريه الله علىٰ أيديهم من كرامات، ولا يجري شيئاً منها علىٰ أيدي الفقهاء، إلاّ أن يسلكوا طريق العارفين، ويتّصفوا بأوصافهم)[2].

ويعتبر المجاهد العز بن عبد السلام أهلَ التصوف هم أهل الحقيقة. وفي بيان ذلك يقول: «وليست الحقيقة خارجة عن الشريعة، فمعرفة أحكام الظواهر معرفة لجلّ الشرع، ومعرفة أحكام البواطن معرفة لدقّ الشرع، ولا يُنكر شيئاً منها إلا كافر أوفاجر»[3].

---

(١) قواعد الأحكام ج٢ ص٢١٢، وراجع هامش ص٥٣ (التعليق علىٰ الفناء) ولمزيد من التوسع حول تصوف العز انظر: (العز بن عبد السلام وأثره في الفقه الإسلامي) ج ١ ص ١٣٠ وما بعدها.

(٢) فتاوىٰ العز بن عبد السلام ص ١٣٩ وما بعدها وانظر فتاوىٰ العز المخطوطة: رقم ٧٨٢٦ الورقة ٧ أ وما بعدها.

(٣) قواعد الأحكام ج ٢ ص ٢١٢، وراجع حول الباطن والظاهر هامش ص ٧٥، ١٠٦.

٢ـ الموفّق بن قُدامة المقدسي

وفي الحقيقة، أنّه لا يُعقل أن نجد أحداً من العلماء العاملين المجاهدين، وغير المجاهدين، يخلو قلبه من التصوف، الذي هو بمرتبة الإحسان التي قال عنها الرسول ﷺ: «أن تعبد الله كأنّك تراه»[(١)]. وإن غلب عليهم الاشتغال بالأمور الشرعية والفقهية. ومثال علىٰ ذلك الإمام العالم الزاهد المجاهد بالسيف في صدِّ الصليبيين وقتالهم:

موفّق الدين بن قُدامة المقدسي الحنبلي ت (٦٢٠ هـ) صاحب (المغني) وهو من أكبر المراجع للفقه الحنبلي.

فقد كان للموفق ولأخيه أبي عمر ـ المتقدّم ذكره ـ وتلاميذهما، خيمةٌ يتنقلون بها مع المجاهدين في سبيل الله، تحت ألوية البطل صلاح الدين المظفّرة. قال الذهبي في سياق ترجمته: «ارتحل في إحدىٰ وستين في طلب العلم إلىٰ بغداد، فنزل عند الشيخ عبد القادر، وسمع منه، وقد كان يقدم إلىٰ العدو، وجرح في كفه، وذكر له الضياء حكايات في كراماته»[(٢)]. ومنها أنّه مشىٰ علىٰ الماء[(٣)].

وقد لازم الموفق شيخه الجيلاني إلىٰ حين وفاته. ثم عاد بعدها إلىٰ دمشق. ويظهر أنَّه في هذا اللقاء سلك الموفق الطريقة القادرية. نستبين ذلك من كلام المؤرّخ والفقيه الصوفي ابن الملقّن (منتصف القرن الثامن) الذي يسند لبسه للخرقة القادرية عن أبي بكر الحنبلي، عن شيخه أبي

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم في كتاب الإيمان.

(٢) سير أعلام النبلاء ج ٢٢ ص ١٦٦.

(٣) مقدمة تحقيق كتاب المغني (ج ١ ص ٤) وانظر: الحكايات المقتبسة في كرامات الأراضي المقدسة لعبد الغني المقدسي ت (٦٤٣ هـ) (مخطوط في مكتبة الأسد برقم ٤٥٤١) الورقة ٨٩ وما بعدها.

إسحاق الواسطي، عن الشيخ موفق الدين الحنبلي، عن القطب عبد القادر الجيلاني[1]. وقد نعته السخاوي في طبقات الأولياء: بالزاهد الربّاني، وأطنب في ترجمته، وختمها قائلاً: ودفن في قاسيون وقبره يزار[2].

وقال فيه ابن كثير: «وكانت له أحوال ومكاشفات»[3]. ومن يقرأ بعض مؤلفات الموفق يرىٰ بوضوح أنّ الله قد نوّر له قلبه. ووصيَّته في الزهد طافحة بذكر أئمّة التصوف وأخبارهم، وأوصىٰ فيها بسلوك نهجهم وطريقهم، وعبادتهم علىٰ التجريد. إلىٰ أن قال: فعليك الاجتهاد في الدخول في أوليائه، الذين اختارهم عز وجل لنفسه، وأكرمهم بولايته، وأوقفهم علىٰ بابه، وشغلهم به، وعلّق قلوبهم بمحبته، لا يلتفتون إلىٰ ما سواه من دنيا ولا غيرها[4].

ونقل الموفق في مختصر منهاج القاصدين إثباته أنّ العارفين كالشهداء أحياء في قبورهم: «كلّ متجرّد لله في جهاد نفسه فهو شهيد»[5]. وذكر القول المأثور: «أعدىٰ عدوٍّ لك، نفسك التي بين جنبيك».

وقد كان ـ رحمه الله ـ رجلاً مباركاً يرقي المريض[6]، وقال بالتبرّك بالصالحين وبكتبهم[7]. كما أباح القصر في الصلاة لمن سافر إلىٰ زيارة

(١) طبقات الأولياء ص ٤٩٤.
(٢) طبقات الأولياء خ الورقة ١١٠ أ.
(٣) البداية والنهاية: ج ١٣ ص ١٠٠.
(٤) انظر: وصية ابن قدامة في الزهد والتصوف.
(٥) ص ١١٨.
(٦) انظر: الذيل علىٰ الروضتين ص ١٤٠.
(٧) انظر: المغني ج ١ ص ٣٠.

القبور والمشاهد[1]، وذكر حديثه ﷺ في الأبدال[2]، وقال بالتوسّل بالنبي الكريم لقضاء الحاجة[3]، وله رسالة في التصوف[4].

قال سبط ابن الجوزي: إنَّ من رأىٰ الموفق فكأنّما رأىٰ بعض الصحابة، وكأن النور يخرج من وجهه، ولم يكن في زمانه بعد أخيه أبي عمر أزهد ولا أورع ولا أعلم منه، وكان كثير الحياء، عزوفاً عن الدينا وأهلها، دائم السكون، قليل الكلام، كثير العمل، يستأنس الإنسان برؤيته قبل كلامه.

٣ـ الإمام النووي

ونموذج آخر من الفقهاء الصوفية المجاهدين، نذكر الزاهد والإمام الربّاني: محيي الدين بن زكريا النووي (محرر المذهب الشافعي) ت (٦٧٦ هـ)الذي كان يصدح بالحق، ولا يخاف في الله لومة لائم، وكثيراً ما حرّض الملك الظاهر بيبرس علىٰ الإسراع في ملاقاة التتار، وكان بيبرس يقول: «أنا أفزع من هذا الرجل»[5].

قال ـ رحمه الله ـ في كتابه (المقاصد) مبيّناً أصول طريق التصوف: (تقوىٰ الله في السر والعلانية، واتّباع السنّة في الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرضا عن الله في القليل والكثير، والرجوع إلىٰ الله في السرّاء والضراء).

---

(١) وأردف كلامه هذا: «لأنه ﷺ كان يأتي قباء راكباً وماشياً، وأما قوله ﷺ لا تشد الرحال إلا إلىٰ ثلاثة مساجد: فيحمل علىٰ نفي التفضيل لا علىٰ التحريم». انظر باب قصر الصلاة في المغني (ج ٢ ص ٩٣).

(٢) التوابين ص ٥٢٥ وفيه أيضاً حكايات كثيرة من أخبار الصوفية.

(٣) الوصية ص ٢٦.

(٤) مقدمة تحقيق المغني ص ٢٩.

(٥) التذكرة الأيوبية خ رقم ٧٨١٤ الورقة ٥٣ أ.

وقال أيضاً: (ومن أصول هذا الطريق: علوّ الهمّة، ونفوذ العزيمة، وصحبة المشايخ، ومن يدلّك علىٰ الله، وترك الرخص للتحفّظ، وضبط الأوراد للحضور، واتّهام النفس في كلّ شيء للخروج من الهوىٰ)[1].

ومن الكتب التي قرأها الإمام النووي علىٰ تلامذته في دار الحديث بدمشق كتاب «صفوة التصوف»[2] للحافظ المقدسي المتوفىٰ (٥٠٧ هـ). أفاد أصحاب التراجم والمؤرّخون أنّ النووي كان يقتدي في التصوف بالشيخ الكبير ياسين المراكشي، ويستشيره في أموره، ويجلّه إجلالاً كبيراً. وكان يتأدّب معه، ويرجو بركته[3].

ومن يطّلع علىٰ تآليف النووي، يلمح بجلاءٍ الجانب الروحي في ذلك، وخاصّة في «بستان العارفين»، وفي مجموعة أوراده، وعدّه القاري من جملة من أباحوا السماع للصالحين[4]، وشدَّ ـ طيّب الله ثراه ـ الرحال إلىٰ زيارة قبر الإمام الشافعي[5]، وانتصر للصوفية في مسألة حياة الخضر عليه السلام[6]، وذكره السخاوي في طبقات الأولياء[7].

قال عنه تاج الدين السبكي: الشيخ الإمام، شيخ الإسلام، أستاذ المتأخّرين، حُجّة الله علىٰ اللاحقين، ما رأت الأعين أزهد منه، ولا

---

(١) المقاصد (المقصد السابع في التصوف).
(٢) انظر مقدمة تحقيق: الترخيص بالقيام لذوي الفضل والمزية من أهل الإسلام للنووي ص٢٣ ت أحمد حموش دمشق ١٩٨٢.
(٣) انظر: الطبقات الكبرىٰ للسبكي (ترجمة رقم ١٢٨٨)، المنهل الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي ص ٤٨، غربال الزمان ص ٥٥٥.
(٤) فتح الأسماع في شرح السماع للقاري خ رقم ٧٦٦٧ الورقة ١٠٥ ب وراجع التعليق علىٰ السماع هامش ص ١١٢.
(٥) إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب علىٰ القبور ص ١٧.
(٦) تهذيب الأسماء واللغات ج ١ ص ١٧٦.
(٧) الورقة ١٠٤ أ.

عاينت أكثر اتّباعاً منه لطرق السالفين من أمّة سيّدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام. . .

. . . ونطق مُعتصماً بالباطن والظاهر. إلىٰ أن قال:

قطب زمانه، وسيّد وقته، وسرّ الله بين خلقه. والتطويل بذكر كراماته تطويل في مشهور، وإسهاب في معروف.

* * *

الفصل الرابع عشر

الناحية الصوفيّة عند محمد الثاني فاتح القسطنطينية

(٨٣٣ ـ ٨٨٦ هـ)

إذا كان المقريزي قد عدَّ الظاهر بيبرس من أعظم ملوك الإسلام، فإن **محمداً الثاني (الفاتح)** يعدّ من أعظم سلاطين زمانه علماً وتهذيباً، وأشدهم بأساً وجهاداً، وأكثرهم علىٰ الله توكلاً واعتماداً، وشهادة الرسول ﷺ كافية في علوِّ شأنه ومقامه، فقد صحّ في الحديث الشريف: «لتفتحنَّ القسطنطينية فنِعم الأمير أميرها، ونِعمَ الجيش ذلك الجيش»[1].

وقد أجمع من ترجم للفاتح من المتقدمين علىٰ النزعة الصوفية القوية عند هذا البطل، وأنّ شيخه كان الطبيب العالم محمد بن حمزة الملقب آق شمس الدين، الذي أدخله الخلوة[2]، ولقّنه الأوراد. والحكاية التي

---

(١) الجامع الصغير للسيوطي حديث رقم ٧٢٢٧.
ويعدّ فتح القسطنطينية دفاعاً، وذلك قد يحدث هجوم في حال ظهر قصد عدواني من الكيد والتخطيط علىٰ الإسلام والمسلمين، وهذا ما حصل في فتح المسلمين للقسطنطينية، فقد كان رداً علىٰ خطط الأعداء، وكيدهم للدولة الإسلامية، منذ زمن بعيد.

(٢) قال الإمام الشافعي: «من أحبّ أن يفتح الله قلبه، ويرزقه العلم، فعليه بالخلوة، وقلة الأكل، وترك مخالطة السفهاء، وبعض أهل العلم الذين ليس معهم إنصاف ولا أدب». =

يوردها مصنف أخبار الدول والشوكاني في البدر الطالع وغيرهم توضح ذلك:

(ومن مشايخ الطريقة في زمانه الشيخ العارف بالله، الواصل إلىٰ الله آق شمس الدين... لما أراد السلطان محمد خان فتح القسطنطينية، أرسل وزيره إلىٰ الشيخ المذكور يدعوه إلىٰ الجهاد، وإلىٰ الحضور معه في فتح المدينة العظيمة، فحضر وبشّر بالنصر وقال:

ستفتح القسطنطينية إن شاء الله تعالىٰ علىٰ يد المسلمين هذا العام، في اليوم الفلاني، من ناحية القلعة.

فبشّر الوزير السلطان بما بشر به الشيخ من خبر الفتح، فلما صار ذلك الوقت الموعود ولم تفتح القلعة، ذهب الوزير إلىٰ الشيخ يستفسر، فوجده ساجداً علىٰ التراب في خيمته وهو يتضرع ويبكي، ثم قام وكبّر وقال: الحمد لله الذي منحنا فتح هذه المدينة.

قال الوزير: فنظرت إلىٰ جانب المدينة فإذا العسكر قد دخل بأجمعه، ففتح الله ببركة دعائه في ذلك الوقت، وكانت دعوته تخرق السبع الطباق، وقال السلطان كلمته الشهيرة:

«ما فرحت بهذا الفتح، وإنما فرحي من وجود مثل هذا الرجل في زماني».

ثم بعد يوم، جاء السلطان إلىٰ خيمة الشيخ آق شمس الدين وهو مضطجع وقبّل يده، وقال له: جئتك لحاجة عندك، قال ما هي؟ قال: أريد أن أدخل الخلوة عندك أيّاماً، فقرأ الشيخ عليه الأوراد، والسلطان جالس أمامه علىٰ ركبتيه يستمع للأوراد، فلمّا أتمّها التمس السلطان من

= والخلوة عند الصوفية، مأخوذة من بداية حياة النبي ﷺ عندما كان يتحنث في غار حراء، وفيما كان يخضع له نفسه من مجاهدة، وعزلة عن الناس.

الشيخ أن يعيّن له قبر أبي أيوب الأنصاري [الصحابي الذي استشهد علىٰ أبواب القسطنطينية].

فقال آق شمس الدين: التقت روحي مع روحه، وهنأني بهذا الفتح، ثم سار الشيخ إلىٰ منطقة وقال: إنّي أُشاهد في هذا الموضع نوراً، لعلّ قبره هاهنا، فاحفروا مقدار ذراعين من جانب الرأس من القبر فحفروا في الموضع المُشار إليه، فظهر رخام عليه خط فقرأه من يعرفه وفسّره فإذا هو ما قرره الشيخ! . .

فغلب علىٰ السلطان محمد حالٌ، كاد أن يسقط، لولا أن أخذوه، ثمّ أمر ببناء مسجد وقبّة علىٰ قبر الصحابي الجليل)[1] ا. هـ.

كما بنىٰ قربهما زاوية لتوزيع الطعام، وصومعة شريفة للدراويش.

وقد كان الجيش العثماني يضم عدداً كبيراً من المشايخ، ومن بينهم الدراويش (من أتباع الطرق الصوفية) يقوّون روح الجهاد والحماس في الجنود، «وكان السلطان قد استصحبهم علىٰ عمد لا لاستغلالهم فقط في سبيل إنهاض القوّة المعنويّة للجنود، ولكن تبرّكاً بهم وتيمّناً بصحبتهم»[2].

ومن المستحسن ذِكره، أنه عشية الفتح، تناول الجنود طعام الإفطار، فقد كانوا صائمين بأمر من السلطان، وذلك تطهيراً لنفوسهم، وتقوية لعزائمهم، كما أمرهم بالإكثار من الصلاة، وذكر الله، والدعاء. وفي

---

(١) انظر:
- أخبار الدول للقرماني ص ٣٠٧ وما بعدها.
- البدر الطالع في محاسن ما بعد القرن السابع ج ٢ ص ١٦٦ وما بعدها.
- الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ج ٢ ص ١٦٦ وما بعدها.
- نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والآثار ج ٢ ص ٢٧ وما بعدها.
- شرفنامه (مترجم عن الفارسية) للبدليسي ج ٢ ص ١١٠.

(٢) السلطان محمد الفاتح ص ٦٦ د. محمد مصطفىٰ صفوت.

المساء أُشعلت المشاعل، ودقّت الطبول، «وبدأ الجنود والدراويش يتواثبون ويرقصون ويكبّرون»[١].

وسقطت القسطنطينية ـ المدينة الحصينة ـ بعد تشديد الحصار لها، وذلك بإشارة من الشيخين: أحمد الكوراني وآق شمس الدين[٢]، فقد انقسمت الآراء، وكان رأيهم تكثيف الضربات علىٰ السور بشدّة وعنف، وأنّه لا يجب ترك المدينة قبل أن يتمّ فتحها.

وقد عدّ المؤرخون ذلك الحدث العظيم الذي هزّ أوربة بأكملها نهاية للعصر الوسيط، وبداية للعصر الحديث.

كان السلطان محمد يعيش حياة بسيطة للغاية، يغلب عليها طابع التقشف والزهادة وكان عدوّاً للترف، منصرفاً عن حياة إرضاء الشهوات، ولننظر إلىٰ وصيته لابنه:

«حذار حذار لا يغرّنّك المال ولا الجند، واحذُ حذوي، واعمل علىٰ تعزيز هذا الدين وتوقير أهله. . .» وأنذره في ختامها إذا لم يفعل بوصيته، فسيكون ذلك من أعظم أسباب الهلاك. وكان قد عُرف عن الفاتح حبّه وإكرامه للعلماء والأدباء والشعراء، وخاصة الصوفية منهم، فقد كان يرسل إلىٰ «خواجه جيهان» (أحد متصوّفيّ كُتّاب الهند) ألف دوقية كل عام[٣]، كما أنه أرسل دعوة للعالم والشاعر الصوفي الإيراني مولانا نور

---

(١) الشقائق النعمانية ص ١٢٠.

(٢) محمد الفاتح: د. محمد مصطفىٰ صفوت ص ٩٨. ويقول أمير حسين أنيسي في مناقب آق شمس الدين: اجتمع العلماء والأمراء العثمانيون، وقابلوا السلطان الفاتح، وقالوا له: إنك دفعت بهذا القدر الكبير من العساكر إلىٰ هذا الحصار، جرياً وراء كلام أحد المشايخ [يقصدون آق شمس الدين] فهلكت الجنود، ولم يَعدْ أمل في الفتح فوصل خبر هذا الاجتماع إلىٰ الشيخ آق شمس الدين، الذي بعث برسالة إلىٰ مريده السلطان قائلاً: «إن الفتح قريب، ولا بد أن يمنّ الله به».

(٣) محمد الفاتح د. عبد السلام فهمي ص ٣٥.

الدين عبد الرحمن الجامي لزيارة استانبول[١]، كما قصد الشيخ أبا الوفاء ت (٨٥٨ هـ) وكان جامعاً للعلوم الظاهرة والباطنة[٢]، كما أنه أجلَّ العالِمَيْن: محمد بن قطب الأزنيقي ت (٨٨٥ هـ) صاحب شرح «سبحانك ما عرفناك حقّ معرفتك»، وابن الأعرابي الخلوتي، الذي صار فيما بعد مفتياً لدار الخلافة الإسلامية.

وقد شيد في القسطنطينية جامع زيرك، وسمّاه علىٰ اسم مولانا زيرك، العالم الصوفي الشهير.

وبالجملة، فقد كان للعلماء في عصر الفاتح قوّة روحية كبيرة، ومقام سام، لتقدير السلطان لهم، ولمكانتهم عند الناس، وكان لا يردُّ لهم طلباً ولا شفاعة، ويتبسّط معهم[٣].

ومن أشهر هؤلاء الشيخ الصوفي:

آق شمس الدين الذي مرّ ذكره.

وقد نعته أحد الكتَّاب الفرس بـ «الغازي المجاهد العظيم، صاحب الكشف والكرامة»[٤]. وتلقّبه الكتب التركية بـ «الفاتح المعنوي لاستانبول»[٥].

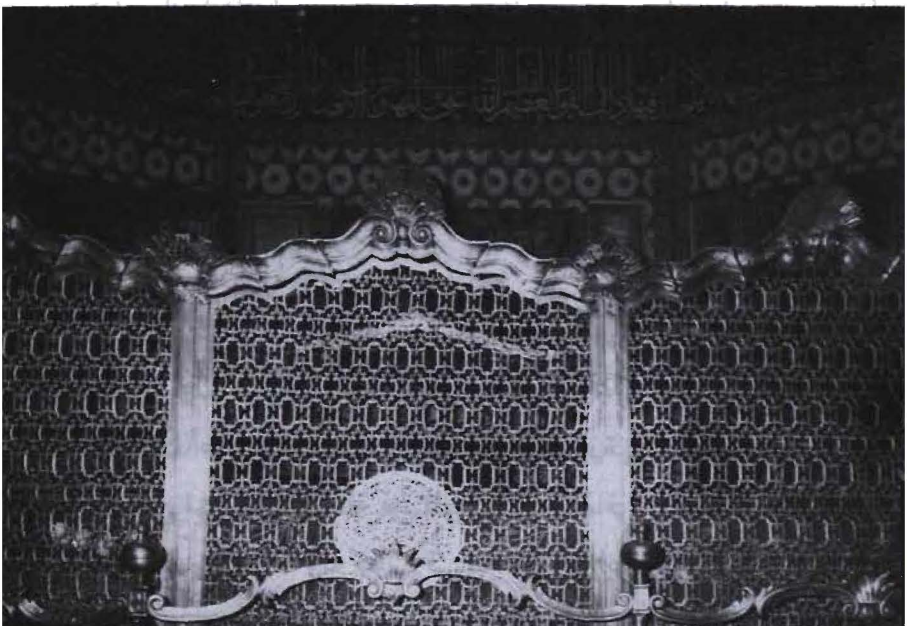
هذا فضلاً عن أنّه عَلَمٌ من أعلام الحضارة الإسلامية في عهدها العثماني. من مؤلّفاته: رسالة في الطب، رسالة في التصوف، رسالة في دفع مطاعن الصوفية[٦]، وله كتاب في الدفاع عن ابن عربي[٧].

---

(١) انظر مجلة العربي العدد ١٦٧ ت ١ ٩٧٢.
(٢) الشقائق النعمانية ص ١٤٥.
(٣) محمد الفاتح د. محمد مصطفىٰ صفوت ص ١٨٦.
(٤) شرفنامه ج ٢ ص ١١٠.
(٥) العثمانيون في التاريخ والحضارة ص ٣٧٤.
(٦) معجم المؤلفين ج ٩ ص ٢٧١ وانظر المرجع السابق ص ٣٧١.
(٧) انظر: خ رقم ٥٦٠٥ (مكتبة الأسد).

ونعود لتلميذ آق شمس الدين (السلطان محمد الفاتح) ووصف المؤرخين له: قال السخاوي في الضوء اللامع: «إنّه كان ملكاً عظيماً، زاحم العلماء ورغِب في لقائهم وتعظيم من يرِد عليه منهم، وله مآثر كثيرة من مدارس وزوايا وجوامع»[1]. وقال المكي: وله كرامات عجيبة، وآثار بديعة[2].

إنّ صورة الفاتح الناصعة وآثاره الحسنة، لا تزال ماثلة في جميع قلوب المسلمين. وإنّ فتحه للقسطنطينية كان أشبه بالمعجزة، وما يزال مجالاً للتأمل والاستنتاج. فنال بذلك شرف بشارة الرسول ﷺ، سيّما وأنّ هذه المدينة استعصت علىٰ الفاتحين منذ فجر الإسلام، بعد أن حاصرها عشر مرات.



واجهة ضريح الصحابي أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه وقد بناه السلطان محمد بعد فتحه القسطنطينية

(١) ج ١٠ ص ٤٧.
(٢) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ج ٤ ص ٦٧.

الفصل الخامس عشر

كشف أدعياء الطريق الصوفي

كنّا قد أسلفنا حضور الدراويش فتح القسطنطينية مع مشايخهم. وقد كان لهم ـ أفراداً أو جماعات ـ دور هام في وصول الجيوش العثمانية ونشرها الإسلام في أماكن واسعة من أوربّة.

قال صاحب التاريخ العثماني: (قام الدراويش أيام الفتوحات العثمانية الأولىٰ وهم أتباع الطرق الدينية بإضافة قوة الإيمان الفتيّة إلىٰ الإسلام، ولقد كرّسوا مبدأ الجهاد، وقد كانوا يتقنون حمل السيوف والرماح والقتال في سبيل الله حتىٰ الشهادة.

لقد كان الدرويش الأول متحصناً بالإيمان، وبحماية النفوس، وبضبط الأخلاق، ومستعدّاً عند الحاجة لأنْ يتقدم صفوف المقاتلين مشرعاً سيفه. ولهذا كان من الصعب أن نفرق بين الفارس وبين الدرويش في بدايات الفتوحات العثمانية. إنّ نموذجِ الدراويش والمتسوّلين والكسالىٰ الذين يتمسّحون بأعتاب الأغنياء، إنّما هو نموذج انبثق من الفساد والتفسخ اللذَيْن عمّا فيما بعد. . .)[1].

والعبارة الأخيرة تدعونا إلىٰ الحديث عن بعض الأشخاص

---

(1) ص ١٩٣.

والجماعات من أدعياء الطريق الصوفي، الذين شوّهوا جمال التصوف وبريقه، فقد ظهر هؤلاء المنحرفون خلال العصور المتوالية، وتكاثر عددهم مع مرور الزمن، متشبهين بالقوم في الزي والهيئة، وهم شَيْنٌ عليهم، كما تشبّهت بالفقهاء العاملين أقوام قاصرون، فكانوا بدورهم شيناً عليهم.

ولم تزل كلّ طائفة من طوائف الناس، فيهم الصالحون وفيهم الفاسدون.

وبديهي أنّ الحقّ لا يعرف بالرجال، ولكنّ الرجال يُعرفون بالحق.

وقد حذّر العلماء المحققون من أولئك المنحرفين.

قال التاج السبكي في مُعيد النعم: «إذا علمت أنّ خاصة الخلق هم الصوفية، فاعلم أنّه قد تشبّه بهم أناس، فأورث ذلك سوء الظن».

ويعيب الإمام الغزالي والإمام الشعراني والحافظ ابن رجب الحنبلي علىٰ الذين لبسوا الصوف علىٰ أجسادهم، ولم يُصوّفوا قلوبهم، واغترّوا بالزي والنطق والهيئة، فتشبّهوا بالصادقين من الصوفية في الظاهر. وعدّهم السهروردي في عوارفه بأنهم من المفتونين، وأنهم في غرور وغلط، إلىٰ أن قال: فكل حقيقة ردتها الشريعة فهي زندقة.

وهذا شرح لكلام مشايخ الطريق من المتقدمين، كأبي سعيد الخَرَّاز ت (٢٧٠ هـ) الذي يقول: «كل باطن يخالف ظاهر فهو باطل».

وأبو طالب المكي ت (٣٨٦ هـ) الذي يصرّح: من تكلّم في علم الباطن علىٰ غير قواعد العلم الظاهر وأصوله، فذلك من الإلحاد في الشريعة[١].

كما ناصب الشيخ الأكبر ابن عربي العداء للمتفقّهة والمتصوّفة

---

(١) قوت القلوب ج ١ ص ١٦٤.

المزيفين، فقال في ذمِّ الصنف الثاني: «إنني ذممت الصنف الذي تزيّا بزي الصوفية عند الناس، وباطنه مع الله بخلاف ذلك، فإن الحلولية والإباحية وغيرهم من هذا الطريق، ظهروا وتظاهروا بالدعاوىٰ واتصفوا، فإنهم قرناء الشيطان وحلفاء الخسران»[١].

وقال في الفتوحات مشدداً النكير علىٰ أصحاب الحلول والاتحاد: «وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد، ومن قال بالحلول فهو معلول، وهو مرض لا دواء لدائه»[٢].

وكذلك ربط أئمة المذاهب الإسلامية بين الشريعة والحقيقة، وأن تلازمهما الوثيق كتلازم الروح والجسد.

يقول الإمام مالك رضي الله عنه: «من تفقه ولم يتصوف فقد تفسّق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق»[٣].

ويُروىٰ عن الإمام الشافعي رضي الله عنه قوله في ديوانه:

فقيهاً وصوفياً فكن ليس واحداً … فـإنّـي وحـق الله إيـاكَ أنصـحُ
فـذلـك قـاسٍ لـم يـذق قلبُـه تقـىٰ … وهذا جهول كيف ذو الجهلِ يصلحُ[٤]

وقال سيد القوم الجنيد: اجتنب صحبة ثلاثة: «العلماء الغافلين، والقرّاء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين».

وحتىٰ يقطع ـ رحمه الله ـ الطريق في المستقبل علىٰ الدخلاء والشاذين قال: «الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا من اقتفىٰ أثر الرسول ﷺ»، ونحوه قول الشيخ أبي عبد الرحمن السلمي ت (٤١٢ هـ): «أصل

---

(١) روح القدس ص ١٠٠.
(٢) الفتوحات المكية ج ٤ ص ٣٧٢، ٣٧٩.
(٣) شرح عين العلم وزين الحلم للإمام ملا علي القاري ج ١ ص ٣٣ وانظر حقائق عن التصوف ص ٥٦٦.
(٤) ص ٢٠٤ بتحقيق: محمد سالم البواب.

التصوف: ملازمة الكتاب والسنّة، وترك الأهواء والبدع، وتعظيم حُرمات المشايخ، والدوام علىٰ الأوراد».

ويظهر من خلال الدراسة أنّ التصوف في المغرب (في القرنين التاسع والعاشر الهجريين) كان أحسن حالاً مما كان عليه في المشرق.

نفهم ذلك من خلال حديث أحد علماء صوفية المغرب وهو:

علي بن ميمون الشاذلي الحسني ت (٩١٧ هـ) الذي زار المشرق، فأنكر بشدّة علىٰ المتشبهين بالصوفية، وكذلك المتشبهين بالفقهاء، وعدّهم سبب ضعف المسلمين، وألّف كتاباً مستقلاً بعنوان: «بيان غُربة الإسلام بواسطة صنفي المتفقهة والمتفقرة من أهل مصر والشام وما والاهما من بلاد الأعجام»(١).

ويلاحظ أنّه قال: المتفقهة ولم يقل الفقهاء، وأيضاً قال: المتفقره ولم يقل الفقراء. وإذا كان هذا في أهل زمانه والإسلام أصبح غريباً؛ مآله هؤلاء المتلبّسون الكثر، فماذا يقول ـ رحمه الله ـ لو وجد عصرنا وما نحن

(١) خ رقم ٧٨٢٨ محفوظ في مكتبة الأسد. قيل عن مؤلفه أنه مجدد القرن التاسع الهجري. قال في مقدمة كتابه المذكور: «الفقه الفهم، والفقيه من فقي الحجاب عن عين قلبه...

لكن لما عدم الفقه بالقلب، ولم يبق إلا فقه النفس، سمّىٰ أهله أنفسهم بذلك مجازاً ووهماً وظناً، فتحلّوا بحلية غيرهم، مقالاً لا حالاً، ... فالفقيه النفسي، ملبس الحق بالباطل، ضال ومضل، عاصٍ لله ورسوله، لأنّه يقتدي به الجاهل الذي لا يعرف بين فقه النفس الشيطاني وفقه القلب الذي هو محل نظر الرب.

وقال في الورقة ٢٠ أ: لم يبلغْنا أحد من أنّ أصحابه ﷺ كانوا علماء الظاهر وبعضهم علماء الباطن، بل كانوا كلهم علمهم في قلوبهم، وهي البواطن فظهر ذلك علىٰ ظواهرهم، لكن لما طال الزمان وقصرت الأفهام عن إدراك معاني الكتاب والسنة سُمّي فريق اشتغلوا بمراقبة قلوبهم وهي بواطنهم عن ما سواها من الخلق بعلماء الباطن».

عليه، وقد انقلبت فيه السنّة بدعة، وجعل الدوران في ظلمات الأهواء سنّة. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

«بدأ هذا الدين غريباً وسيعود غريباً، فطوبىٰ للغرباء» كما قال المصطفىٰ ﷺ[1].

ونقرأ ترجمة هذا العالم الصوفي المجاهد في شذرات الذهب: «العارف بالله، سيدي علي بن ميمون، المرشد المربي، القدوة الحجة، وليّ الله تعالىٰ، اشتغل بالعلم، ولازم الثغور علىٰ السواحل، وكان رأس العسكر»[2].

وفي عصرنا الحديث يذكر الإمامان المجاهدان سعيد النورسي ت (١٩٥٨ م) ومحمد عبده ت (١٩٠٥ م) قريب من ذلك.

يقول النورسي: «قلّما يوجد في الأشياء أمور ومشارب ومسالك بلا قصور، لأن الذين ليسوا أهلاً إذا دخلوا أمراً يعملون سوء استعمالات، ولكن للأسف أن بعض العلماء الظاهرين يجعلون ما يرونه بين أهل الطريقة من بعض الخطيئات، فيسعون لتخريب تلك الخزينة العظمىٰ، وتنشيف منبع ذلك الكوثر»[3].

أمّا **محمد عبده** فيقول: «قد اشتبه علىٰ بعض الباحثين في تاريخ الإسلام، وما حدث فيه من البدع والعادات التي شوّهت جماله، السبب في سقوط المسلمين في الجهل فظنّوا أنّ التصوف من أقوىٰ الأسباب، وليس الأمر كما ظنوا. . .»[4].

ويُعدّ الشيخ والمصلح الصوفي محمد عبده الأب الروحي للثورة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.
(٢) ج ٨ ص ٨١. وانظر الأعلام: ج ٥ ص ٢٧.
(٣) المكتوبات من رسائل النور ص ٥٨٥. وانظر: فصل تركية ص ٢٢٢.
(٤) حقائق عن التصوف ص ٥٨٥ نقلاً عن مجلة المسلم العدد ٦ ص ٢٤ لعام ١٣٧٨ هـ.

العرابية أثناء الغزو الإنكليزي لمصر سنة (١٨٨٢ م)، وقد تحمَّل في سبيل ذلك السجن والنفي. ورد في الأعلام أنّه:

(من كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام، تعلّم بالأزهر وتصوف، ولما احتل الإنجليز مصر ناوأهم، وشارك في مناصرة الثورة العرابية، ثم نفي. من مؤلفاته رسالة الواردات في الفلسفة والتصوف)[١].

كما يتعرّض عمر الفوتي التيجاني ت (١٨٦٤ م) ـ وهو من العلماء المجاهدين في غرب إفريقية ـ في كتابه الرماح، لذكر الفاسدين من المتصوفة، ويدافع عن الصوفية الصادقين ويقول:

(لا يعترض عليهم إلاّ جاهل غبي، أو معاند شقي، لأنّ فساد الفاسد إليه يعود، ولا يقدح في صلاح الصالح شيئاً، والفرع يعتبر بأصله وقاعدته، ولا يترك المذهب الحقّ الثابت بانحراف بعض المنتسبين له، وظهورهم فيه)[٢].

* * *

---

(١) ج ٤ ص ٢١٧.

(٢) رماح حزب الرحيم في عنق حزب الرجيم ص ٢٠. وانظر: فصل السنغال عن الكتاب.

الفصل السادس عشر

دور الصوفيّة في المغرب والأندلس في جهاد الصليبيين

إذا ولّينا وجوهنا نحو المغرب والأندلس، نرىٰ ظاهرة التصوف بدأت بالزهد، كما في المشرق، فبعد الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس، بقيت أمور المسلمين هناك علىٰ ما يرام، ما داموا متمسّكين بكتاب الله وسنّة نبيه، وزاهدين في خيرات الأندلس ومواردها، ولكن عندما غرّتهم الدنيا وزهرتها، أُصيبوا بالضعف والوهن، وأضحت الدولة الواحدة منقسمة إلى مجموعة دول وإمارات، سُمّيت بدول الطوائف، وحصل ما حصل من التقاتل والنزاع ما بينها، كما هو معروف للجميع.

ولقد حذّر الوعّاظ والزهّاد من نتائج هذه الأمور، ومن هذه التفرقة والتناحر، ومثال علىٰ هؤلاء: الخطيب بن نُباته الأندلسي ت (٣٧٤ هـ) يقول منبّهاً: «قد دَخلَتْ علينا الفتنة من كلّ باب، وأطمعتنا الدنيا أطماع السراب، نتهارش علىٰ مطامعها تهارش الكلاب، ونلبس فيها جلود الضأن علىٰ قلوب الذئاب، . . . وقد أظلّنا من العدوّ سحاب، ممتدّة الأطناب، ودبّت في ديارنا منه عقارب الخراب. . . ».

وفي موطن آخر، يقدّم ابن نباته الحلّ لتلك المصيبة، بتقديم مجاهدة النفس وأهوائها، قبل مجاهدة السيف، يقول:

«واعلموا أنّه لا يصلح الجهاد بغير اجتهاد، كما لا يصلح السفر بغير زاد، فقدّموا مجاهدة القلوب، قبل مشاهدة الحروب، ومغالبة الأهواء، قبل محاربة الأعداء، وبادروا بإصلاح السرائر، فإنها من أنْفَس العُدَد والذخائر»[1].

ومثل هذا الكلام مرَّ معنا في وصايا الشيخ ابن عربي، من تقديمه جهاد النفس أوّلاً، ثم جهاد الأعداء ثانياً.

وقد علَّق زكي مبارك علىٰ خطب ابن نباته بقوله: إنّها استطاعت أن تملك ألباب الجماهير، كما أدّت الأغراض المرجوة منها، وغرست في صدور العامّة التقىٰ والإباء، وأكثر ما وجدتْ هذه الخطب آذاناً صاغية عند الصوفية، «فشارك المطّوّعة منهم بجهود كبيرة في ميادين الجهاد في الأندلس»[2].

وفي المغرب:

وحيث كان الصليبيون يشنّون غارات متوالية علىٰ هذه البلاد، ساعدت حركة الزهد والتصوف علىٰ نشوء دول مشهورة، فنجد أنّ دولة المرابطين (منتصف القرن الخامس) منشؤها رباط أقامه الشيخ الزاهد عبد الله بن ياسين المصمودي، في محلٍّ ناءٍ من الصحراء، وانضمّ إليه بعض أصحابه، فكثر الواردون عليهم، لِمَا علموا من صلاحهم وتقواهم، وأنّهم اعتزلوا بدينهم، يطلبون الجنة والنجاة من النار.

---

(١) ديوان خطب ابن نباته ص ١٧٩ وما بعدها شرح الشيخ طاهر الجزائري. وقد ذكر صاحب شذرات الذهب: أن ابن نباته رأىٰ النّبي ﷺ في المنام، وتفل في فيه، فلم تزل رائحة المسك توجد فيه إلىٰ أن مات.

(٢) المطوعة ودورهم في حراسة ديار العروبة والإسلام مقال نشر بمجلة العربي العدد ٢٨٧ ص ١٥٦ بقلم د. إحسان صدقي.

وبعد فترة من الإقامة، خرج الشيخ عبد الله من الصحراء ومعه أتباعه، فافتتح بلاد المغرب، وأُصيب بجراح بعد عدّة وقائع كانت سبب وفاته سنة (٤٥١ هـ) وأُقيمت علىٰ قبره قبّة معروفة إلىٰ اليوم.

قال عنه صاحب الاغتباط: «دوّخ المغرب إلىٰ أن صار يدين بتعاليم الإسلام، بعد أن كاد يتقلّص منه»[(١)].

وترجم له صاحب الأنيس المطرب بقوله: «المجاهد المرابط، الورع الزاهد، الصوّام القوّام. . .»[(٢)].

وكان ممّن صحب الشيخ عبد الله بن ياسين في رباطه ومعاركه، ولازمه فترة من الزمن، يوسف بن تاشفين ت (٥٠٠ هـ) وكانت هذه المدّة كافية لتجعل منه رجلاً صالحاً للحكم.

وقد وافق علىٰ خلافته أشياخ المرابطين، لما يعلمون من دينه وورعه وشجاعته، ولكونه من خاصّة الخاصّة بين مريدي ابن ياسين، قال صاحب الاستقصاء فيه: «وكان رحمه الله زاهداً في زينة الدنيا وزهرتها، ورعاً، متقشّفاً، لباسه الصوف، لم يلبس قطّ غيره، ومأكله الشعير»[(٣)].

وابن تاشفين هذا، هو صاحب موقعة «الزلاّقة» المشهورة مع الإفرنج سنة (٤٧٩ هـ)، والتي تعدّ من أعظم المعارك التي جرت بين الإسبان والمسلمين في الأندلس.

وممّا يروىٰ أن الإمام الغزالي الفقيه والصوفي الكبير ت (٥٠٥ هـ) كان يُعجب بورع يوسف وصفاته، حتّىٰ أنّه فكّر في الرحيل إلىٰ المغرب

---

(١) الأعلام ج ٤ ص ١٤٤.

(٢) انظر مقال: عبد الله بن ياسين موحد الصحراء في المغرب الأقصىٰ مجلة العربي العدد ٧٧ ص ١٣٧.

(٣) الاستقصا لأخبار المغرب الأقصىٰ ج ٢ ص ٦٠.

لزيارته، لكنه عدل عن ذلك حينما بلغه وفاته[1].

وهناك نصّ كامل للخطاب الذي كتبه الغزالي، وأرسله إلىٰ ابن تاشفين، يحضّه فيه علىٰ العدل ونصرة الدين[2].

كما عُثر علىٰ فتوىٰ موجّهة لحجّة الإسلام، بشأن ما كانت عليه ملوك الطوائف من التفرقة، والتخاذل عن الجهاد.

فأجاب ما ملخّصه: (أنَّ يوسف كان علىٰ حق في إظهار شعار الإمامة للخليفة المستظهر، وأنّ هذا هو الواجب علىٰ كلّ ملك استولىٰ علىٰ قطر من أقطار المسلمين.

وإذا نادىٰ الملك المشمول بشعار الخلافة العباسيّة، وجبت طاعته علىٰ كلِّ الرعايا والرؤساء، وكلّ من تمرّد واستعصىٰ، فحكمه حكم الباغي، ومن حقّ الأمير أن يردّه بالسيف).

ودعا للالتفاف حول يوسف، وعدم مخالفته، ناشراً محامده: (استصرخ المسلمون الأمير ناصر الدين، وجامع كلمة المسلمين فلبّىٰ دعوتهم، وأسرع لنصرتهم بنفسه ورجاله وماله، وجاهد بالله حقّ جهاده، ومنحه الله تعالىٰ استيصال شأفة المشركين...)[3].

ولم تعمِّر دولة المرابطين طويلاً، إذ لم يكن خلفاء يوسف بنفس المستوىٰ الذي تمتّع به زعيمهم، واختلّ أمرها بعد الخمسمئة، لأسباب عديدة لا مجال لذكرها هنا. وكانت هذه الحالة وهذا الانحلال، خير

---

(١) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢١٧.

(٢) انظر: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ص ٤١.
وانظر: الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي افريقية ص ٢٨٧ وما بعدها.

(٣) انظر نص الفتوىٰ في عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ص ٥٣٠ وما بعدها.

مساعد لانبعاث حركة الموحّدين ونجاحها.

ويُعدّ **محمد بن تومرت** المشهور بالمهدي (٤٨٥ـ٥٢٤ هـ) المؤسّس الحقيقي لدولتهم.

قال ابن خلدون في تاريخه: «كان أهل بيته أهل نُسك ورباط. وشبّ محمد هذا قارئاً، محبّاً للعلم، وارتحل في طلب العلم إلىٰ المشرق، علىٰ رأس المئة الخامسة، ولقي هناك أئمّة الأشعرية من أهل السنّة، وأخذ عنهم، واستحسن طريقهم، وذهب إلىٰ رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث»[١].

وقد اجتمع ابن تومرت في سياحته هذه، مع الإمام الغزالي أثناء تزهده بالشام، وأخذ عنه.

ويؤكّد معظم المؤرخين القدماء هذا اللقاء[٢]. وقال الهروي (الرحّالة في أواخر القرن السادس): «وبالجامع الأموي، المنارة الغربية التي أقام بها الغزالي، وابن تومرت الذي ملك بلاد المغرب»[٣].

ويذكر المراكشي والسلاوي: أنّ أبا حامد، كان يتفرّس في ابن تومرت، وكان كثيراً ما يشير إليه، بعدما شهد فيه صفاته وشمائله، وتبيّن فيه من العلامات ما يدّل علىٰ أمره ومستقبله[٤].

غادر التلميذ والمريد الصادق المشرق، مودّعاً شيخه، بعد أن لازمه

---

(١) العبر ج ١ ص ٢٢٦.

(٢) انظر مثلاً: وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤٦، نظم الجنان لابن قطان المراكشي ص ٧٣، روض القرطاس لابن أبي زرع ص ١١٠، صبح الأعشىٰ ج ٥ ص ١٩١، نزهة الأنظار ج ١ ص ٢٤٢، شرح رقم الحلل في نظم الدول لابن الخطيب ص ١٩٦، المختصر لأبي الفداء ج ٢ ص ٢٣٢، تاريخ الإسلام للذهبي.

(٣) الإشارات إلىٰ أماكن الزيارات ص ١٥.

(٤) انظر المعجب ص ١٧٨، الإستقصاء ج ٢ ص ٧٧.

ثلاث سنوات[١]، حاملاً معه إلىٰ المغرب دعوة التوحيد، ومجدّداً للمفاهيم الإسلامية، التي زرعها في نفسه أستاذه الغزالي.

وقد ذكر صاحب المُعجب: أنّ كرامة حصلت لابن تومرت وهو في السفينة، مما جعله يعظم في صدور ركّابها[٢].

ولم يزل كذلك وأحواله صالحة، وأصحابه ظاهرون، وأحوال المرابطين تختلّ، إلىٰ أن توفي سنة (٥٢٤ هـ) بعد أن قرّر القواعد ومهّدها، ورتّب الأحوال ووحّدها.

وقد وصلتنا من آثار ابن تومرت بعض خطبه الجهادية، نقتطف منها: (. . . واعلموا وفّقكم الله أنّ العدوّ لا يغلب بالعدد، ولا بالقوة، وإنما يغلب بحسن النيّة والتقوىٰ والأعمال الصالحة، والتوكّل علىٰ الله، كما قال أبو الدرداء: إنّما تقاتلون بأعمالكم. . .)[٣]. وأيضاً خلّف لنا كتاباً، نذكر منه قوله: (وأمّا أُصول الفتن فهي: الافتراق وعدم الاجتماع، والاختلاف وعدم الاتّفاق، وحفظ سواد الحروف، وتضييع حدود القرآن، واتّباع رسوم العبادات، وتعطيل حقائق الدين، وموت القلب،

---

(١) الإعلام بمن حل مراكش من الأعلام ج ٤ ص ٦٨، الاستقصاء ج ٢ ص ٧٧ نقلاً عن القرطاس وقد ذكر الغزالي في بداية كتابه سر العالمين، اجتماعه مع ابن تومرت.
وانظر بحث: أبو حامد الغزالي في الذكرىٰ المئوية التاسعة لميلاده. المجلس الأعلىٰ لرعاية الفنون والآداب دمشق ص ٧٠١.

(٢) ص ٩٩.

(٣) أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ص ٣.
وأبو الدرداء: هو عويمر بن زيد، من كبار زهّاد الصحابة، شهد مع رسول الله ﷺ وقائع كثيرة، وتوفي في خلافة عثمان بن عفان. كان يحثّ رضي الله عنه علىٰ لزوم البيوت، ويقول: نعم صومعة الرجل بيته. قيل له وهو في مرضه الأخير: أندعو لك طبيباً؟ قال: هو الذي أضجعني، فقيل له ما تشتكي؟ قال ذنوبي. من مأثوراته: «أحب المرض تكفيراً لخطيئتي وأحبّ الموت اشتياقاً لربي».
(الزهد للإمام أحمد ص ١٣٥، طبقات ابن سعد ج ٧ ص ٣٩٢، صفة الصفوة ج ١ ص ٣٢٤، حلية الأولياء ج ١ ص ٢٠٨).

وخساسة الهمّة، والشحّ المطاع، والهوىٰ المتّبع، والدنيا المؤثرة)[١].

يصفه ابن خلّكان أنه: (كان ورعاً، ناسكاً، شجاعاً، مخشوشناً، لا يصحبه من متاع الدنيا إلا عصا وركوة.

فقد كان قوته رغيفاً كلّ يوم، وكان يقول: منِ اتّبعني للدنيا فماله عندي إلاّ ما رأىٰ، ومن تبعني للآخرة فجزاؤه عند الله)[٢].

وكان ابن تومـرت كثيراً ما يردّد بعض الأشعار الزهدية، من ذلك:

تجـرّد مـنَ الـدّنيـا فـإنّـك إنّمـا خرجت إلى الدنّيا وأنتَ مجرّدُ[٣]

ولذلك لا عجب أن نجد من الباحثين من يقول: إن من السّمات التي اتّسم بها ابن تومرت، التديّن الشديد، البالغ حدّ التصوف[٤].

ذكر المراكشي فيه: «كان قد وضع له في النفوس هيبة، وفي الصدر عظمة، كان شديد الصمت، كثير الانقباض، سُخرت له الرعيّة، وذلّلت له الجبابرة»[٥].

فهو حقيقة عبقرية زمانه، التي جاد بها الزمن علىٰ العالم الإسلامي.

وقد أسفرت حركته في المغرب «والتي تعدّ كردٍّ فعل لإحياء الغزالي في المشرق»[٦] عن قيام دولة من أعظم الدول الإسلامية وأقواها، وهي الدولة الموحّدية الكبرىٰ.

---

(١) أعز ما يطلب ص ١٨ وقد ذكر محقق الكتاب في المقدمة أن ابن تومرت أمر المؤذنين إذا طلع الفجر أن ينادوا «أصبح ولله الحمد» وكذلك في الاستقصاء ج ١ ص ١٩٩.
(٢) وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤٧.
(٣) ن.م ونفس الصفحة.
(٤) قيام الدولة الموحدين ص ١٦٦.
(٥) المعجب ص ١٩٥.
(٦) محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب ص ٨.

وتحت تأثير هذه الدعوة، اندفع الموحدون لمقاومة القوات الإسبانية الغازية.

وهناك رواية نقلها المراكشي: أنّ السلطان الموحّدي أبا يوسف، كتب قبل خروجه سنة (٥٩٢ هـ) إلىٰ الوقعة الكبرىٰ، التي أذلّ الله فيها الأدفنش وجموعه، كتب إلىٰ جميع البلاد بالبحث عن الصالحين وحَمْلِهم إليه، فاجتمعت عنده جماعة كبيرة، كان يجعلهم كلما سار بين يديه، فإذا نظر إليهم قال لمن عنده: هؤلاء الجند لا هؤلاء، ويشير إلىٰ العسكر[١].

وفي الواقع، فقد كان أبو يوسف محمد بن يعقوب الملقب بالناصر ت (٦١٠ هـ) يعتقد بالصوفية ورجالهم.

فقد أمر بإحضار الشيخ أبي مدين التلمساني ت (٥٩٤ هـ) ليتبرّك به[٢] فتوفي وهو في الطريق إليه، فأقام هذا السلطان المجاهد علىٰ قبره قبّة[٣].

ويذكر المؤرخون أنّه لولا قيام الدولة الموحدية، التي أعطت المغرب طابعه العربي الإسلامي والتي استطاعت أن توحِّد الصفوف، وتجمع الكلمة، وتكوّن من أقطار إفريقية هذه القوّة العتيدة، التي حاربت في آن واحد في كلتا الجبهتين: الأندلسية والإفريقية، لعصفت القوّات الصليبية بتلك البلاد في ذلك الحين.

وتحدّث ابن خلدون عنهم قائلاً: (وكان لهم شأن في الاهتمام بالعلم والجهاد، وتشييد المدارس، واختطاط الزوايا والربط، وسدِّ الثغور،

---

(١) المعجب ص ٢٨٦. وهذا شبيه بما مرّ معنا من اصطحاب قتيبة بن مسلم في معاركه الزاهد الصوفي محمد بن واسع. وكذلك نور الدين زنكي مع جماعة من الصوفية.انظر الصفحات ٦٠، ٩١.

(٢) انظر: الطبقات الكبرىٰ للشعراني ج ١ ص ١٥٤، وفي الأعلام ج ٣ ص ١٦٦ أن السلطان كان يخاف أبا مدين. وانظر: التشوف إلىٰ رجال التصوف ص ٣١٩.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ج ١ ص ٤٠٠.

وبذل النفس في ذات الله... وظهر فيهم الكاملون في النوع الإنساني، من الأولياء المحدّثين، أهل النفوس القدسية، والعلوم الموهوبة)[1].

ولذلك نلاحظ ازدهار التصوف في عهد الموحّدين. وبرز جماعة في المغرب، من كبار رجال الصوفية، منهم: أبو مدين، وابن عربي، وأحمد البدوي، وأبو الحسن الشاذلي وغيرهم رضي الله عنهم. وقد لقيت الحركة الطّرقية تطوراً ملموساً في القرن التاسع الهجري، مع أحد مريدي الطريقة الشاذلية، وهو: الشيخ الجزولي، صاحب (دلائل الخيرات) المتوفىٰ سنة (٨٧٠ هـ) الذي نشر الطريقة في جميع أرجاء المغرب، ولاقت نجاحاً واسعاً، حتىٰ من الزعماء المحليين، لا سيّما عندما تبنّت حركة المقاومة المغربية ضدّ البرتغاليين المحتلين للشواطىء العربية باسم الجهاد.

وقد بدأت الزوايا تدعو إلىٰ الجهاد، ومقاومة الأجنبي، وبث الحميّة الوطنية. ووجد نداء الصوفية آذاناً صاغية، بعد ما وثق العامّة بحسن سلوكهم[2].

منهم مثلاً في الجزائر: العالم والزعيم الروحي المجاهد عبد الرحمن الثعالبي ت (٨٧٥ هـ) صاحب «الأنوار المضيئة الجامع بين الحقيقة والشريعة»، وله خطابات في استصراخ الأهالي، وحثهم علىٰ صدٍّ الهجمات الصليبية، وحماية الشواطىء من غاراتهم[3].

وتحوّل شيوخ الزوايا في القرن العاشر الهجري، إلىٰ وحدات

---

(١) العبرج ٦ ص ١٠٥.

(٢) انظر: الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي ص ١٥٩، الحركة الفكرية في المغرب في عهد السعديين ج ١ ص ٤١، مقدمة كتاب التقاط الدرر ص ٩٩، المغرب الحديث والمعاصر ص ١٨، المغرب العربي ص ٥٣.

(٣) انظر مقال: الحضور الصوفي في الجزائر علىٰ العهد العثماني، مجلة التراث العربي (العدد ٥٧ لعام ١٩٩٤).

سياسية، كانت نواة دول في المغرب علىٰ أساس صوفي، كالدلاّئيين والسعديين الذين أخذوا علىٰ عاتقهم، تحرير سواحل البلاد من البرتغاليين، وجمع الأموال لافتداء الأسرىٰ.

وقويت زعامة السعديين، وحماسهم للجهاد، خصوصاً بتأييد الطرق الصوفية المنتشرة آنذاك، والتي كان أبرزها الشاذلية.

وفي طليعة الناهضين لحرب البرتغاليين من أصحابها: الشيخ الشهيد محمد الزيّاني الملقب بالعياشي ت (١٦٤١ م).

وصفه صاحب الاستقصاء: «الولي الصالح، العالم العامل السائح، المجاهد في سبيل ربّ العالمين، والمرابط في الثغور»[(١)].

وصفوة القول: إن المجتمع المغربي، كان مبنياً روحياً علىٰ الظاهرة الصوفية، التي وحّدت المجتمع، وصارت هذه الظاهرة عند المغاربة قوّة واحدة، أمام التهديد والعدوان الخارجي.

نتيجة

مما تقدّم معنا، من شواهد قيّمة، ومن خلال تحليلنا واستقرائنا للنصوص والأخبار السالفة الذكر، نستنتج أنّنا في سبر أغوار حياة وشخصيات أمراء الموحدين، والزنكيين، والأيوبيين، والمماليك، والعثمانيين، الذين دحروا الصليبيين والتتار، وقهروا البيزنطيين، نجد ناحية التصوف واضحة جليّة، لا تقبل مجالاً للشك والريب.

فقد كانوا جميعاً، نسيجاً روحياً واحداً، رغم تباين قبائلهم، واختلاف

---

(١) ج ٦ ص ٨٥ وانظر: الزاوية الدلائية ص ٢٤، تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ص ٨٨.

شعوبهم. ولا غرابة في ذلك فقد أصبح التصوف ـ كما أشرنا آنفاً ـ وخاصة في العصور الوسطىٰ، يُعبر عن الدين الخالص، والتمسك الدقيق بالشريعة والحقيقة.

وإذا كان لكل عظيم مكونات ومؤثرات لعبت دوراً مهمّاً في نجاحه، فإن الفضل الأول في انتصارات نور الدين، وصلاح الدين، والمظفر غازي، والظاهر بيبرس، ومحمد الفاتح، وابن تومرت في المغرب، يرجع إلىٰ عاملين: عامل مادي، يُبينه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وعامل روحي، هو نشوؤهم في بيئة زرعت في قلوبهم حبّ التصوف، ورجالاته العارفين، فكشفوا لهم حقيقة الدنيا ونزارتها، وعلّموهم حقيقة الاعتقاد، وفضيلة الصبر والمصابرة، والتضحية بالنفس والنفيس، ويصفون لهم منازل المجاهدين، وثوابهم يوم القيامة، ويُذكرونهم بالجنة ودرجاتها.

فكان هؤلاء العارفون بمثابة الجذور، التي أنبتت أشجاراً باسقة من الأبطال، لا يهزهم ريح، ولا تنال منهم عاصفة، ولا نزال نحن ننعم بثمار هذه الأشجار حتىٰ الآن.

ومهمة الجذور دائماً بعيدة عن الأعين، لأنّها لو برزت إلىٰ السطح، لضاعت منها قوتها الفاعلة.

والتاريخ الحقّ هو البحث عن الجذور، وعدم الإصغاء إلىٰ الذين يحاولون تزييف الحقيقة، وإظهار التصوف بأنه ضعف وخنوع وكسل، بهدف القيام بمهمة تفريغ الحضارة الإسلامية من مضمونها الروحي، وهم يعلمون حقّ اليقين أنّ التصوف هو روح الإسلام، وهو قوته النافذة الضخمة، وشعلته الوضاءة المشرقة.

وجدير بالذكر أنّ الاهتمام بالكتابة عن التراث الإسلامي بشكل عام،

والتراث الصوفي بشكل خاص، من قبل المستشرقين[1]، ظهر في أعقاب الحروب الصليبية، ولا سيما الحديثة منها، مما أوجد حاجة مُلحّة من قبل المستعمرين، للتعرف علىٰ سر انتصارات المسلمين، فتوصلوا أنّ ذلك سببه الوحدة، وأنّ التصوف هو الاتحاد الحقيقي الذي جمع القلوب.

* * *

(١) تقدمت إحدىٰ المؤسسات الغربية إلىٰ جامعة دمشق، تعرض عليها استعدادها لتقديم جميع المعونات الممكنة، لمساعدتها علىٰ دراسة التصوف. ولما طلب منها بعض المسؤولين مساعدة الجامعة بالمخابر للكيمياء والفيزياء، أبدت المؤسسة أسفها وعدم إمكانيتها.

الفصل السابع عشر

الإمام الغزالي ومسألة الجهاد

ونحاول أن نقف قليلاً عند أبي حامد الغزالي الذي أخذ عليه بعضهم عدم مشاركته في قتال الصليبيين. وفي الواقع يجب علينا هنا ملاحظة أمرين:

الأمر الأول: أنّ حياة الغزالي امتازت بكونه فيلسوفاً وفقيهاً صوفياً، ومصلحاً اجتماعياً، ومخططاً سياسياً.

فقد كان ـ رحمه الله ـ دائرة معارف زمانه.

والأمر الثاني: أنّ العصر الذي عاش فيه الغزالي، كان عصر ضياع وتشرذم، فيه مزيج من اختلاطات المذاهب والآراء والأفكار، فأراد أن يأخذ علىٰ عاتقه عبء النهضة والإصلاح، فبينما كان الصليبيون يتأهبون لمهاجمة العالم الإسلامي مستغلين فقدان الخلافة العباسية هيبتها، كان الغزالي يتهيأ لمعالجة جذور المشكلة، وأسباب الداء الذي بدأ ينخر داخل جسد الأمة، وتفسير هذا الخلل بالخلاف. (أي: افتراق المسلمين فرقاً متصارعة، والتماس الحل في توحيد الذهن والسياسة، وطريق هذا كلّه يتمثّل بالعودة إلىٰ إسلام الأصل)[1] حتىٰ يتماسك الجسم الإسلامي

---

(١) الإصلاح والنهضة ق ٢ ص ٤٨٤، محمد كامل الخطيب.

المنخور، وتعود إليه العافية والسلامة، وتنتشر الفضيلة، التي إن تمسك المسلمون بها، فذلك سيُمكّنهم من النصر علىٰ أعدائهم.

وفي وصية عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلىٰ قادة عسكره ما يعزز هذا الكلام: «إن لم ننتصر عليهم بفضلنا، لم نغلبهم بقوتنا، . . . ولا تقولوا إنّ عدونا شرٌّ منّا، فلن يُسلط علينا، فربَّ قوم سُلّط عليهم شرٌّ منهم، كما سُلّط علىٰ بني إسرائيل لمّا عملوا بمعاصي الله، فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولا».

ومع شخصية ذات عمق وسعة، ونظرٍ ثاقبٍ، كشخصية الغزالي، (رأت أنّ إصلاح الميدان الأخلاقي، كفيل بإصلاح بقية نواحي المجتمع، من سياسية وعسكرية وغيرها. وعَدَّ ذلك فرض عين بالنسبة له، لا يسدُّ مسدّهُ سواه)[١]. ولا يغير الله ما بقوم، حتىٰ يغيّروا ما بأنفسهم.

وقد أقام الحقّ تعالىٰ الغزالي، حتىٰ يكون في الناس من يحفظ به العقائد الصحيحة، ويدفع شبه الملحدين والمبطلين، وأجره أعظم من أجر المجاهد بكثير[٢]. فاستحقّ عند الجميع أن يكون حُجّة الإسلام.

ونحن هنا نشارك الدكتور محمد زنيبر ـ رحمه الله ـ في عزوه الأسباب العميقة، للانتصارات علىٰ الصليبيين: إلىٰ الجهد الذي رصده هذا المفكر الإسلامي الكبير، (أبو حامد الغزالي) من اقتناع بأنّ الإسلام أصبح في حاجة إلىٰ من يعرّف به من جديد، حتىٰ يحيا في القلوب، ويدرك أهله سرّ تعاليمه، وعنوان مؤلفه الأكبر ذو دلالة كبيرة «إحياء علوم الدين» وقد تجسّدت روح الاحتساب، وإخلاص النيّة، التي دعا إليها منذ بداية الحروب الصليبية في أبطالها[٣]. وعلىٰ رأسهم نور الدين وصلاح الدين،

---

(١) الإمام الغزالي الذكرىٰ المئوية التاسعة لوفاته، جامعة قطر ١٩٨٦ ص ١٤١.
(٢) سيرة الغزالي وأقوال المتقدمين فيه ص ١٢٢.
(٣) راهنية صلاح الدين، مقال: نشر في جريدة «الشرق الأوسط» العدد ٥٤٧٤ تاريخ =

اللذان تأثّرا بأفكاره غاية التأثّر، كما مرّ معنا، عند كلامنا عن النوازع الصوفية، عند هذين البطلين.

وهذا التحليل لا يدعو للغرابة، فصيحة الإمام الغزالي لم تكن صيحةً في واد، ولا نفخةً في رماد، ذلك أنّ الفكرة الصالحة تعبق وتنتشر ولو بعد سنين، والبذرة الطيبة تخصب وتنبت ولو بعد حين. ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الرعد: ١٧].

ويفرد الغزالي في كتابه (مكاشفة القلوب) باباً خاصاً عن فضل الجهاد، ويورد في ذلك عدداً من الأحاديث الشريفة. منها ما ملخصه: (أنّ رجلاً أراد الاعتزال، ثم استأذن رسول الله ﷺ، فقال له الرسول الكريم: لا تفعل، فإنّ مقام أحدكم في سبيل الله أفضل، ألا تحبون أن يغفر الله لكم، ويدخلكم الجنة، اغزوا في سبيل الله تعالىٰ).

وعلّق ـ طيب الله ثراه ـ علىٰ ذلك: إذا كان الصحابي الجليل لم يأذن له رسول الله ﷺ في العزلة، مع اجتهاده في الطاعات، بل أرشده إلىٰ الجهاد، فكيف يليق بنا تركه، مع قلة طاعاتنا، وكثرة سيئاتنا(١).

ويركّز ـ رضي الله عنه ـ في سِفْرِه العظيم (الإحياء) علىٰ الزهد، وينتهي في الجزء الأخير إلىٰ القول:

(فالحاصل أنّ الزهد عبارة عن الرغبة عن البقاء في الدنيا... لذلك لما كُتب عليهم القتال ـ أي المنافقين ـ ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ﴾ [النساء: ٧٧] فقال تعالىٰ ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] أي لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا أمّا الزاهدون المحبون لله تعالىٰ،

= ٢٣/ ١١/ ١٩٩٣.

وانظر عن الجهاد القتالي عند الغزالي: سيد المصنّفين الإمام الغزالي، محمد باسل الخاني.

(١) الباب السادس والسبعون في فضل الجهاد ص ٢٧٤.

فقاتلوا في سبيل الله كأنّهم بنيان مرصوص، وانتظروا إحدىٰ الحسنيين، وكانوا إذا دُعوا إلىٰ القتال، يستنشقون رائحة الجنة، ويبادرون إليه مبادرة الظمآن إلىٰ الماء البارد. . . وهكذا كان حال الصادقين في الإيمان، الذين تركوا تمتّع عشرين سنة مثلاً، أو ثلاثين سنة، بتمتع الآبد، واستبشروا ببيعهم الذي بايعوا به.

وأما المنافقون ففروا من الزحف، خوفاً من الموت، فإيثارهم البقاء علىٰ الشهادة، استبدال الذي هو أدنىٰ، بالذي هو خير)[1].

وفي موطن آخر يقول الغزالي: «أكمل اللذات للشهداء، الذين قتلوا في سبيل الله، لأنّهم ما أقدموا علىٰ القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا، مشتاقين إلىٰ لقاء الله، راضين بالقتل في مرضاته. . . ونعيم الجنة الذي يدركه الشهيد، انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين»[2].

وبعد ما ذكر الغزالي، أن رتبة الشهادة عظمت، لأنّ فيها من الفضائل ما لا يحصىٰ، عدَّ ـ رضي الله عنه ـ من أهم هذه الفضائل:

(القدوم علىٰ الله، والقلب مستغرق بالله عز وجل، فإنّه لو لم يُقتل وبقي مدة ربّما عادت شهوات الدنيا إليه. . . ولقد عظُم الخوف من أمر الخاتمة، فأسلم الأحوال عن هذا الخطر، خاتمة الشهادة)[3].

فانظر إلىٰ هذا الكلام من حُجّة الإسلام، وهل تراه جبن عن القتال، كما يتّهمه الناقدون من أعدائه، أم أنّ الأبطال في أوهامهم وخيالهم فقط رجال سيف ورماح. وعندما وصفه السبكي أنّه الضرغام، الذي تتضاءل الأُسود بين يديه، كان يعي ما يقول، ويعرف أشكال البطولة، وأنواعها.

وقد ذكرنا آنفاً أنّه كان أستاذاً ومُرشداً لمؤسس الدولة الموحدية، وله

---

(١) الإحياء ج ٤ ص ٢٤٢.

(٢) الإحياء ج ٤ ص ٥٢٨، عذاب القبر ونعيمه ص ١٢٩ وما بعدها.

(٣) الإحياء ج ١ ص ٣٥٩.

في الجانب السياسي كتاب: (التبر المسبوك في نصيحة الملوك)، وله علاقات مع السلاطين لا يتسع المجال لذكرها هنا.

ويكفيه شرفاً الثناء العطر من أقوال المتقدمين فيه.

فالذهبي ـ وهو ناقد الرجال ـ أطلق عليه في سير أعلام النبلاء: الإمام البحر، حجّة الإسلام، أُعجوبة الزمان، زين الدين، صاحب الذكاء المفرط. وقال عن كتابه الإحياء: لو ذهبت كتب الإسلام وبقي الإحياء، لأغنىٰ عمّا ذهب.

وقال ابن النجار في حقه: إمام الفقهاء علىٰ الإطلاق، ورباني الأمّة بالاتفاق، ومن شاع ذكره في البلاد، واشتهر فضله بين العباد، وشهد له الموافق والمخالف في التقديم.

وقال ابن الزيات ت (٦١٧ هـ): وما طعن علىٰ الغزالي إلاّ علماء الدنيا الذين أظهر عوارهم، والنهار لا يحتاج إلىٰ دليل.

ومن المعلوم أنّ الجهاد فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الباقين. وقد قيّض الله للصليبيين، من طردهم من هذه البلاد المباركة.

وكما أنه ليس دور الطبيب حمل السلاح، فكذلك دور العالم الفقيه الزاهد حمل مشاعل النور للأجيال. قال تعالىٰ:

﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

نقل الموفق ابن قدامة المقدسي: أنّ الفقه المقصود في الآية الكريمة: هو الفقه عن الله، ومعرفة صفاته. والذي يحصل له الإنذار غير هذا العلم أي علم أمور الشرع[١].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٤١. وانظر الفصل اللاحق (فضل العلم الرباني).

وقال صاحب عوارف المعارف: رتبة الإنذار من أكمل المراتب وأعلاها، وهو خاص بالعالم الزاهد في الدنيا.

وما قيل عن الغزالي يقال عن غيره من أعلام التصوف. أمثال الشيخ عبد القادر الجيلاني ت (٥٦١ هـ) يقول شكيب أرسلان عن هذا المرشد الكبير: «إنّ له أتباعاً لا يُحصىٰ عددهم، ووصلت طريقته إلىٰ إسبانية، فلما زالت دولة العرب في غرناطة، انتقل مركز الطريقة القادرية إلىٰ فاس، وبواسطة أنوار هذه الطريقة زالت البدع بين البربر»(١). وقد كان لخلفائه فضل كبير في المحافظة علىٰ روح الدعوة والجهاد، وكثير من الذين قاوموا النفوذ الاستعماري في إفريقية، كانوا من أتباع الطريقة القادرية ـ كما سنذكر بعد قليل ـ.

ومهما يكن من أمر فقد قدّم علماء التصوف للمجتمع خدمات جليلة، وخلّفوا تراثاً زاخراً في الأدب والأخلاق، «وإنهم كانوا من قادة الفكر والبيان» كما يقول زكي مبارك. وإنّ حكمهم ومواعظهم سارت في مشارق الأرض ومغاربها، ولا تزال تتناثر علىٰ الأفواه، وتتناقلها الألسن.

يقول الإمام محمد عبده: «لا شكّ أنّه لا يوجد في أمة من الأمم، من يضاهي الصوفية في علم الأخلاق، وتربية النفوس، وإنه بضعف هذه الطبقة فقدنا الدين»(٢).

ويقول الدكتور محمد إقبال: «كان الصوفيون عبر التاريخ، نماذج للجلال والجمال الخلقي والروحي، ونماذج للكمال التعبّدي والإيماني، ونماذج عالية ساطعة في أفق العلم والمعرفة».

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ج ٢ ص ٣٦٧ وانظر ص .

(٢) الأعمال الكاملة ج ٣ ص ٥٣٠، وفي نفس الصدد يذكر الدكتور زكي مبارك في الأدب والأخلاق في التصوف الإسلامي ج ٢ ص ٢٤٨: «أنَّ الصوفية كانوا دعاة أخلاق، فمن حق الناس أن يحسدوهم علىٰ دعوىٰ التفرّد بالشّرافة، والاستقامة، والتدين».

الفصل الثامن عشر

بيان فضل العلم الرباني

وجدير بالذكر أنّ هناك عدداً من الآيات الكريمة، تبيّن المكانة السامية للعلماء، وأنّ بعض الأحاديث النبوية الشريفة، نصّت علىٰ فضل العلماء علىٰ الشهداء، وأنّ رتبة العلماء، تلي رتبة الأنبياء مباشرة[1]. من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «بأنّ مداد العلماء، يرجح يوم القيامة علىٰ دماء الشهداء»[2].

وقسّمَ علي ـ كرم الله وجهه ـ الناس إلىٰ ثلاثة أقسام: عالم رباني، ومتعلم علىٰ سبيل النجاة، وهمج رعاع يتبعون كل ناعق، ثم بكىٰ عليه السلام وقال:

وهكذا يموت العلم بموت حامليه[3].

ونصّ أئمّة من الذين عليهم المدار والمعوّل: أنّ العلم المقصود به هو العلم الرباني، وهو علم العارفين بالله تعالىٰ. وجاء في مختار الصحاح:

---

(١) منها: «العلماء ورثة الأنبياء» (رواه الترمذي) ومنها «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء» (أخرجه الدارمي).

(٢) انظر كنز العمال ج ١٠ الأحاديث أرقام: ٢٨٩٠٢/ ٢٨٧١٥/ ٢٨٩٠١.

(٣) كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة لابن رجب الحنبلي ص ٢١.

الربّاني: هو المتألّه، وهو العارف بالله، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾[1] [آل عمران: ٧٩].

وذكر العز بن عبد السلام في شرح قوله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨] فقال: إنّما أراد العارفين به، وبصفاته، وأفعاله، دون العارفين بأحكامه[2].

وأجاب ـ سلطان العلماء ـ عن معنىٰ قوله ﷺ: «من عمِل بما يعلم، أورثه الله علم ما لم يعلم»[3] قال: أورثه الله تعالىٰ من العلم الإلهامي[4]، وهو (اللدني).

وصرّح الحافظ الفقيه ابن رجب الحنبلي: أكمل العلماء وأفضلهم، العلماء بالله وبأمره، الذين جمعوا بين العلمين، وهؤلاء خلاصة الخلق، وهم أفضل الناس بعد الرسل[5].

وقال الإمام أبو القاسم الجنيد: العلم علمان، علم ربوبية، وعلم عبودية، والباقي إنما هو هوس النفس.

ولا يتحقق علم الربوبية إلا عن طريق علم العبودية.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي ليعرفونِ.

ولا شك أنّ المعرفة تورث الخشية للمولىٰ عز وجل.

فعن عبد الله بن أحمد بن حنبل أنه قال: قلت لأبي: هل كان مع

---

(١) انظر مادة «رب».

(٢) الفتاوىٰ ص ١٣٨.

(٣) الحديث رواه أبو نعيم في الحلية ج ١٠ ص ١٥ وله شاهد هام من القرآن الكريم، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

(٤) الفتاوى ص ١٤٩.

(٥) ورثة الأنبياء ص ٥٦.

معروف الكرخي شيء من العلم؟ قال لي: يا بني كان معه رأس العلم، خشية الله[1].

وفي مختصر منهاج القاصدين، أشرف العلوم وأهمُها، هو العلم المتعلق بالآخرة، ومعرفة سلوك الطريق، وقطع عقبات القلب.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله: «العلم علمان، علم في القلب، فذلك العلم النافع، وعلم علىٰ اللسان، فذلك حُجَّة الله علىٰ خلقه»[2].

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً: «أنا أعلمكم بالله تعالىٰ»[3].

كما أنّه جاء في فضل الذكر والذاكرين أحاديث وآثار. بعضها يعطي الذكر منزلة لا يعدلُها حتىٰ منزلة الجهاد.

كقول معاذ بن جبل - رضي الله عنه -: «ما عمل آدمي عملاً، أنجىٰ له من عذاب الله من ذكر الله، قالوا يا أبا عبد الرحمن ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا أن يضرب بسيفه حتىٰ ينقطع، لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[4] [العنكبوت: ٤٥]».

* * *

---

(١) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلىٰ ج ٢ ص ٣٨٢، تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٢٠١، مناقب معروف الكرخي لابن الجوزي ص ٨٦.

(٢) رواه الحافظ الخطيب في تاريخه كما ورد في الترغيب والترهيب ج ١ ص ٦٧.

(٣) رواه البخاري. وله لفظ عن أبي ذر «أنا أعرفكم بالله».

(٤) الزهد للإمام أحمد ص ٢٢٩ وذكره الغزالي في الإحياء ج ١ ص ٣٥١ بلفظ مشابه من حديث رسول الله ﷺ وأخرجه الترمذي والحاكم وابن ماجه وصحح إسناده من حديث أبي الدرداء.

الفصل التاسع عشر

التصوف وحركات الجهاد في العصر الحديث

في تاريخ العالم الإسلامي الحديث[1]، لا يستطيع الباحث أن يتجاهل الدور الضخم، الذي قامت به الحركات الصوفية كجزءٍ من حركة اليقظة، والإصلاح الإسلامي[2].

وقد كان للطرق الصوفية أثرُها الواضح في توسيع رقعة الإسلام، وخاصةً في إفريقية وآسية، فقد أدخلت ملايين كثيرةً في الدين الحنيف.

ويندر أن نجد من المجاهدين، من عملوا علىٰ إنقاذ الوطن من براثن الاستعمار، لم يسلك الطريق الصوفي.

لقد وجدوا أنّ من واجبهم محاربة العدوان، والشرّ المادي، كما يحاربون المآثم والشهوات، لأنّها كلَّها من فصيلة واحدة، تُدمِّرُ الروحَ الإنساني.

«وأنه يبدو لدارس أحوالهم أنَّهم كانوا نموذجاً للصحابة ـ عليهم رضوان الله ـ في هذا العصر المتأخر، نفس الحبّ والتفاني، ونفس الحنين

---

(١) مما يدعو إلىٰ الاستغراب، أنّ ما دونه الغربيون عن تاريخ الإسلام الحديث، قد خلا ـ تقريباً ـ من أيّة إشارة إلىٰ الحركات الإصلاحية الهامة التي كان للتصوف فيها اليد الطولىٰ في غضون القرن التاسع عشر للميلاد.

(٢) العالم الإسلامي والاستعمار الثقافي والسياسي والاجتماعي ص ٣٠٤.

إلىٰ الشهادة، والرغبة عن الدنيا، والحنين إلىٰ الآخرة»[١].

إن الوميض المتجدّد لجهاد الصوفية الحربيّ، عاد ليظهر جلياً من خلال الهجمة الأوربية الاستعمارية الشرسة، علىٰ بلدان العالم الإسلامي. فسطّروا بذلك أروع آيات الكفاح، ويخلّدهم التاريخ بين صفحاته. وحريٌّ بنا أن نتناول ذكرهم بشيء من التفصيل، لقول الشيخ السنوسي ـ رحمه الله ـ: ليكن اعتناؤك يا أخي بأخبار من تأخر من الأولياء والصالحين.

وسأترك الآن للقارىء المجال فسيحاً مع الحقائق والوقائع، التي لا يرقىٰ إليها الشكُّ، ولا يخالطها ريبة، فهي وحدها البيان والترجمان.

١ـ الطريقة السنوسية وعمر المختار (ليبية)

في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، قاد نضال الاحتلال في ليبية، الطريقة الصوفية السنوسية، ومؤسسها:

محمد بن علي السنوسي (١٧٨٧ـ١٨٥٩ م) تعلّم بفاس وتصوّف[٢]، وغدا بين مريدي سيدي أحمد بن إدريس الفاسي ت (١٨٥٣ م)، رئيس الطريقة الخضيرية الشاذلية[٣].

قال صاحب طبقات المالكية والكتاني في فهرسه: «هو الإمام العارف، الداعي إلىٰ السنّة، ختم المحدثين، حجة الله علىٰ المتأخرين، الولي المقرب، أبو عبد الله محمد بن علي السنوسي، الجزائري ولادةً، المكّي هجرةً، الجغبوبي مدفناً، . . . أخذ الطريقة الشاذلية بالمغرب عن

(١) ربانية لا رهبانية ص ٤٧.
(٢) الأعلام ج ٦ ص ٢٩٩.
(٣) دراسات في تاريخ إفريقية العربية ص ١٥.

مولاي العربي الدرقاوي، وزار المشرق آخذاً عن جماعاتهم طرقهم»[1].

ثم عاد إلى ليبية ولواحة الجغبوب، وانقطع فيها للخلوة، مع الورع والزهد والعبادة، وصنّف عن رحلته هذه كتابين وهما: «الشموس الشارقة في مالنا من أسانيد المغاربة والمشارقة»، وكتاب «السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين»، والذي وصف فيه لقاءه مع مشايخ صوفية عصره، وتأثّره بهم، فقال: «وقد حصل لنا ولله الحمد التئام بأئمة أعلام، وجهابذة من أهل الله فخام، وحصل لنا من طرائقهم أخذاً وإجازة عدّة وافرة، ثم بدا لي أن أنتخب من تلك الطرائقِ أربعين سوية، وأفردها برسالة لأسانيدها العلية»[2].

تحلّىٰ السيّد السنوسي بالذكاء وقوّة الشخصية، وحبّب إلىٰ القلوب وكثر مريدوه، «واتجه أول ما اتجه إلىٰ أنه نهج منهجاً صوفياً في تربيتهم»[3].

وعمل علىٰ بناء قوة عربية إسلامية في صحراء ليبية، تقوم دعاماتها علىٰ أساس الزوايا والرباطات، التي لم تكن للعبادة والوعظ فقط، وإنّما كانت مراكز نشاط وحيوية وإصلاح. فكان شيخ الزاوية، يربّي أتباعه علىٰ ضرورة تعلّم الرماية، وإتقان أساليب القتال، وتحوّلت هذه الزوايا جميعها عند الغزو الإيطالي لليبية في مطلع هذا القرن، إلىٰ معاقل حقيقية للدفاع عن السيادة والكرامة، تحمّل عبء النضال من خلالها السنوسيون، بقيادة البطلَيْن المجاهدين: عمر المختار وأحمد الشريف السنوسي.

---

(١) انظر: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص ٢٩٩، فهرس الفهارس ج ٢ ص ١٠٤٠.

(٢) السنوسية دين ودولة ص ٤١.

(٣) تربية الأولاد في الإسلام ج ٢ ص ٨٥٤.

وكان **عمر المختار** (١٨٥٨ـ١٩٣١ م) قد التحق بزاوية الجغبوب وعمره ستة عشر عاماً، تعلّم فيها علىٰ أيدي كبار شيوخ السنوسية، ومارس داخلها العبادة، ورياضاته الروحية، فقد كان لا ينام من الليل إلا ساعتين أو ثلاثاً، ويختم المصحف كلَّ سبعة أيام، وكانت فترته هناك عاملاً هاماً في تكوين شخصيته السياسية والاجتماعية، وتركت آثاراً باقية في سلوكه وتفكيره وصفاته فيما بعد[(١)].

وقد جعل من زاويته الكبرىٰ في الجغبوب، مقرّاً ومركزاً للعمليّات العسكرية حتىٰ استشهاده.

فأضاف بذلك إلىٰ صحائف الأبطال، صحيفة عبقة فوّاحة، وجهاد وليٍّ من أولياء الله (مثّل الصوفية المجاهدة بالنفس والروح والمال، وبقي يكافح مع مريديه الاستعمار الإيطالي عشرات السنين، وما في يد أحدهم إلاّ بُلَيْحات من التمر، وجرعات من الماء)[(٢)]. فسجّل بصموده لأبناء الإسلام، عزّة قائد باسل، رفض الزائف من المال والجاه، وظلّ شامخ الرأس إلىٰ حين أسلم الروح إلىٰ باريها.

أما **أحمد الشريف السنوسي** (١٨٦٧ـ١٩٣٣ م) العالم الجليل والمحدّث الصوفيُّ الشهير[(٣)]، فيعدّ أيضاً من كبار مجاهدي السنوسيين، قاتل بضراوةِ الإيطاليين[(٤)].

ومع ذلك كان علىٰ علم غزير. من مصنفاته في مجال التصوف: «الأنوار القدسية»[(٥)] و «الفيوضات الربّانية».

---

(١) عمر المختار نشأته وبيئته الأولىٰ ص ٢٢.
(٢) من ضيع القرآن ص ٢٨١.
(٣) معجم الشيوخ ص ١٣٦.
(٤) الأعلام ج ١ ص ١٣٥.
(٥) الأنوار القدسية في مقدمة الطريقة السنوسية، ومما قاله عن دعامة هذه الطريقة: متابعة=

كما صنّف كتاباً عن الجهاد بعنوان: «بغية المساعد في أحكام المجاهد» ذكر فيه أنّه الواجب الرئيسي عند كلِّ مريد أن يكون مستعدّاً لأمر الجهاد وفي أي وقت يُطلب منه.

وما أحسن وصف شكيب أرسلان لهذا البطل وأشباهه: فبينما هم أشدّاء علىٰ الكفار، إذ هم بالليل رهبان، وبينما هم في شجاعتهم من الأبطال، هم في عبادتهم من الأبدال، يجمعون بين الشدّة واللين، والأنفة والتواضع، مما يذكّر بالمجتمع الإسلامي خلال القرون الأولىٰ.



المجاهد الشهيد عمر المختار

= السنّة في الأقوال والأفعال والأحوال، ثم أخذ الأوراد اللازمة، وبعدها علىٰ المريد أن يشتغل بالصلاة علىٰ النبي ﷺ إلىٰ أن يستولي علىٰ قلبه، ويخامر سرّه تعظيمه، بحيث يهتزّ عند سماع ذكره، فيسبغ الله عليه نعمه ظاهراً وباطناً.

وذكر شعراً:

اعلم بأنّ عمدة الطريق ... ثلاث أركان علىٰ التحقيق
توبٌ، وزهدٌ، ودوام العمل ... بالصدق، والخوف، وقطع الأمل

الأنوار القدسية في مقدمة الطريقة السنوسية

لحضرة العلامة الامام قدوة العلماء الاعلام شمس الاسلام
العارف بالله والغازى فى سبيل الله المحفوف باللطف
القدوسى سيدنا و استاذنا وملاذنا السيد احمد
الشريف السنوسى رضى الله عنه و ارضاه
ونفعنابه و بكل خير حباه امين

استانبول — مطبعة عامره

١٣٣٩ — ١٣٤٢

غلاف كتاب الأنوار القدسية تأليف

العارف بالله والغازي في سبيل الله

أحمد السنوسي

٢ـ الأمير عبد القادر الجزائري والشيخ الحداد (الجزائر)

وفي الجزائر، ورغم تفرّق القبائل والإمارات في هذا البلد إبّان العهد العثماني، إلاّ أنهم سرعان ما توحدهم كلمة الجهاد في سبيل الذود عن حرمة الإسلام من تهديد المدّ الصليبي، «وإنّ الصوفية كانت في الغالب هم الذين كانوا يغذون تلك الوطنية الدينية»[١].

وفي خلال الاحتلال الفرنسي للجزائر، لاحظ الخبراء الفرنسيون أن زعماء حركة الجهاد التي تولّت محاربتهم، انطلقت من الطرق الصوفية، وخاصة المرتكزة منها حول الزوايا، التي كانت منذ قرون تعتني بالعلم والتصوف، «وعند الخطر تدقُّ طبولها، وتسفر عن وجهها، وتتعاون للدفاع عن البلاد، وصدِّ العدوِّ المشترك. ومع أن الحماس الديني والوطني مشترك بين جميع فئات الشعب، فإنّما كان دور الطرق الصوفية، إعطاء القيادة، وتوحيد الكلمة»[٢].

وقد صوّر أحمد توفيق مدني في كتابه: «تاريخ الجزائر» دور هذه الطرق فقال: إنّها استطاعت أن تحفظ الإسلام في هذه البلاد في عصور الجهل والظلمات، ولولا تلك الجهود التي بذلوها، لما كنّا نجد الساعة في بلادنا أثراً للعربية، ولا لعلوم الدين.

ومن أبرز تلك الطرق في القرن الماضي القادرية والرحمانية. وقد أنجبت الأولىٰ:

الأمير عبد القادر الجزائري (١٨٠٧ـ١٨٨٥ م) الذي يعدّ (بلا منازع)

---

(١) مقال: الحضور الصوفي في الجزائر علىٰ العهد العثماني، مجلة التراث العربي العدد ٥٧ ت ١ ١٩٩٤.

(٢) الحركة الوطنية الجزائرية ج ١ ص ٢٩٨.

شيخ المجاهدين في العصر الحديث، فضلاً عن كونه من كبار صوفية عصره. وقد ترجم له مُعاصره عبد الرزاق البيطار، ترجمة عارفٍ بفضله ونبله، فقال: «هو الهُمام الكامل العارف، والإمام المتحلّي بأعلىٰ العوارف، الراسخ القدم في العلم الإلهي، والكاشف عن أسرار الحقائق حتىٰ شهدها كما هي... ومع ذلك فهو فارس ميدان اليراع، وليث الرماح، فهيهات أن يصفه الواصف، وإن أطال في الكلام...»(١).

نشأ الأمير عبد القادر في بيت علم ودين، وصحب والده في رحلة طويلة، إذ زار في بدايتها الأماكن المقدّسة لأداء فريضة الحج، ثم توجّه إلىٰ الشام، آخذاً عن علمائها الطريقة النقشبندية، ثم سار إلىٰ بغداد، لزيارة ضريح جدِّه عبد القادر الجيلاني، ونال هناك ممن اجتمع بهم الطريقة القادرية، ثم قصد بلاد الحجاز مرة ثانية، وتشرّف وتبرّكَ بزيارة الرسول الأعظم ﷺ، وأصحابه الغرّ الميامين، كما التقىٰ مع العارف بالله محمد الفاسي، فأخذ عنه الطريقة الشاذلية، ونظم قصيدة يمتدح بها شيخه، ويثبت ولايته.

وأخيراً عاد إلىٰ بلاده ليجد الجحافل الجرَّارة من المستعمرين الفرنسيين وقد بدأت تداهم الجزائر، فاجتمع الأشراف، والعلماء، وأعيان القبائل، عند شجرة عظيمة، وهناك بايعه الجميع علىٰ تقلد الإمارة، والزعامة الجهادية، فذهبت البشائر في أقطار الأرض(٢). ووضع الأمير لنفسه خاتماً نقش عليه:

ومن تكن برسولِ اللهِ نصرته   إن تلقه الأُسدُ في آجامها تجم

---

(١) حلية البشر ج ٢ ص ٨٨٣ وانظر: الحدائق الوردية في أجلاّء السادة النقشبندية (ترجمة الأمير عبد القادر الجزائري).

(٢) تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر ج١ ص٩٥ وما بعدها، وانظر حلية البشر ج ٢ ص ٨٨٤ وما بعدها.

حارب الأمير الفرنسيين بلا هوادة، وقام بأدوار مدهشة حيّرت أعداءه. مثل: «عدم النوم خلال أسابيع، وندرة إغماد سيفه، حتىٰ استحق ما قيل عنه، من أن سرجه كان عرشه»[١].

وبقي في كفاحه مدة ثمانية عشر عاماً، اضطر بعدها مكرهاً إلىٰ مغادرة الجزائر، وتسليم راية الجهاد طاهرة مطهرة إلىٰ الشعب، لمواصلة الجهاد في ميدان آخر، له رجاله وأبطاله أيضاً.

واهتزّت لقدومه دمشق، التي اختارها لتكون مقرّاً له، واستقبل فيها استقبال الفاتحين، وقرأ علىٰ علمائها شرح صحيح البخاري، وأشهر كتب التصوف، كما ألّف فيها عدداً من الكتب أشهرها كتاب: «المواقف» في الوعظ والتصوف والإرشاد[٢]

وكانت وفاته فاجعة في قلوب الجميع الذين ألفوه وأحبّوه، ودفن ـ بوصية منه[٣] ـ في سفح قاسيون، لصيقاً لابن عربي الحاتمي، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا...

---

(١) مقال: عبد القادر الجزائري والوحدة الوطنية، مجلة «الدوحة» ص ٦٣ العدد ٦٥ لعام ١٩٨١.

(٢) وهو من ثلاثة أجزاء، يقول في مقدمته: «هذه نفثات روحية، وإلقاءات سبوحية، بعلوم وهبية، خارجة عن أنواع الاكتساب، والنظر في كتاب... وطريقة توحيدنا طريقة الكتب المنزلة، وسنّة الرسل المرسلة، التي كانت عليها بواطن الخلفاء الراشدين، والصحابة والتابعين، والسادات العارفين، وإن لم يصدّقوا الجمهور فعند الله تجتمع الخصوم...».
ويقول الأمير عبد القادر في الموقف (٢٣): «إنّ القوم رضي الله عنهم لمّا استقامت ظواهرهم وبواطنهم علىٰ الطاعات، واتباع السنّة قولاً وعملاً وحالاً، قوي نور إيمانهم، ... ظهرت لهم أشياء، ظهور السمن باطناً في اللبن عندما خضّ...».
وللأمير ديوان شعر مطبوع منه قوله:
جمـــالنـــا بعلـــوم أنـــت تجهلهـــا ... بهـا حبـانـا الـذي أهـدىٰ وجمّلنـا

(٣) مقابلة شفهية مع الأميرة بديعة الجزائري الحسني، حفيدة الأمير عبد القادر الجزائري.

ونقل رفاته إلىٰ الجزائر سنة ١٩٦٦ م، في موكب رسمي وشعبي مهيب. وصف المؤرخ الفرنسي برنار الأمير عبد القادر فقال: «كان أنيقاً، جميلاً، شجاعاً، وكان متديناً عن إخلاص، ومن صميم الفؤاد، ولم يطلب الإمارة لإشباع أطماع نفسية، بل ليقود أمّته في طريق الفلاح، وكان قاسياً عند اللزوم، ورحيماً عند الاقتضاء، وكان أجلّ وأبرز أعدائنا في الجزائر».



الأمير عبد القادر الجزائري

وممن حضر معظم وقائع الأمير الحربية، ابن أخيه محمد المرتضىٰ الجزائري، شيخ مشايخ الطريقة القادرية المتوفىٰ في بيروت سنة (١٩٠١ م)[١].

وكذلك ابنه محي الدين بن عبد القادر المتوفىٰ (١٩١٧ م)، وله شعر لطيف، بعضه علىٰ نمط القوم، قال يمتدح الشيخ الأكبر ابن عربي:

لله در الصالحية مذ بدتْ   محفوفة بحدائق النوّار
حوت المفاخر إذ غدت للحاتمي   داراً فأضْحت مطلع الأنوار[٢]

ومن المفيد ذكره، أنّ الثورات توالت بعد حرب الأمير، وكان أشدّها وأعنفها التي قامت سنة ١٨٧١ م، بزعامة الحاج محمد المقراني والشيخ:

محمد الحداد شيخ الطريقة الدرقاوية[٣] الشاذلية، أو الطريقة الرحمانية الخلوتية، كما ورد في بعض المصادر. وهذا لا يهمّ، ما دام ليس ثمة خلاف بين الطرق في الأسس والمبادىء، وإنما الفرق في نوع الأذكار والأوراد التي يواظب عليها المريد من أتباع كل طريقة.

وكلهم من رسول الله ملتمسٌ   غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم

وكانت مراكز زوايا الشيخ الحداد، أماكن لتنظيم خلايا المجاهدين، وكانت هي الوسيلة التي تزرع الحماس في صفوف المواطنين، وتناديهم إلىٰ الجهاد المقدس بجانب الحاج محمد المقراني، «وقد اعتمد عليها هذا البطل اعتماداً كبيراً»[٤].

وبتدخل الشيخ الحداد تغيّر طابع الثورة، حيث فسحت المكان

---

(١) تاريخ علماء دمشق ج ١ ص ١٨٩.
(٢) حلية البشر ج ٣ ص ١٤٢٩.
(٣) مقال نشر في مجلة حضارة الإسلام العدد ٦٥ لعام ١٩٦٠ (عدد خاص عن الذكرىٰ السابعة لثورة الجزائر).
(٤) ثورة المقراني ص ٤٥.

للحرب الشعبية، وذلك للنفوذ الكبير الذي كان يتمتع به هذا الزعيم الصوفي بين الفلاحين، وإنّه لم يعد المقراني يلعب فيها الدور الرئيسي[1].

وكادت الجزائر تستعيد حريتها، لولا تدخل بسمارك لصالح فرنسة، وسقط المقراني شهيداً سنة (١٨٧١ م).

وخلّف علىٰ قيادة الثورة، الشيخ الحدّاد وولديه الشيخين: محمد وعزيز. وفي هذه الرحلة أخذت الثورة طابعاً أعنفَ، واتّسع نطاقها، وأحرز المجاهدون تقدّماً مخيفاً، علىٰ حدّ تعبير الجنرال لا ألماند، ولم يتمّ القضاء عليها إلا بعد أن جنّدت فرنسة لها كلَّ طاقاتها. وحُكم علىٰ الشيخ الحداد وولديه بالنفي إلىٰ جزيرة في المحيط الهادي، مع الأشغال الشاقة المؤبدة.

صحيح أن الثورة تمَّ القضاء عليها عسكرياً، لكنّها خلّدت روح القتال والنضال، وأعطت الدفع لثورات أُخرىٰ متلاحقة، أبرزها ثورة الشيخ الصوفي بوعمامة سنة ١٨٨١ م. مما دعا الفرنسيين أن يصفوا هذه الثورات بالتزمت الديني، والكراهية للأجنبي، وبأنّها من عمل رجال الزوايا وشيوخها[2].

---

(١) تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ص ٤٤٠.

(٢) ثورة الأوراس ١٨٧٩ م ص ٦١.



راية المجاهدين الصوفيين في الجزائر ، من أصحاب الطريقة الرفاعية



الحمد لله وحده — صلى الله على سيدنا محمد

انموذج من الرسائل للثورة والجهاد على المستعمرين في الجزائر وتبدو عبارات الصوفية واضحة على هذه الرسالة

٣ـ محمد أحمد المهدي (السودان)

ويُشبه نضال الأمير عبد القادر والشيخ الحداد للفرنسيين، جهاد زعيم صوفي آخر في السودان للإنجليز، وهو محمد أحمد الملقّب بـ «المهدي» (١٨٤٣ـ١٨٨٥ م). الذي حفظ القرآن الكريم منذ صغره، ثم نهل من علوم الفقه، وبهرته دون أترابه في الدرس أنوار التصوف فأقبل عليها[١]، ووجد مبتغاه في أحد خلفاء الطريقة السمانية[٢] الشاذلية، ولازمه إلىٰ حين وفاته، وبعد أن أقام مع أصحابه علىٰ قبره قبّة، انقطع في جزيرة «أبا» في النيل الأبيض خمسة عشر عاماً، للخلوة والعبادة، وهناك بدأ ممارسة رياضاته السلوكية، ليقهر جماح النفس علىٰ الصعب، ليبدأ مرحلة رفع عمد الإسلام، والحرب في سبيل الله. ولا سيّما، والسودان كلُّه يتطلع إلىٰ الخلاص من كابوس الاحتلال الإنجليزي.

وفي «أبا» سلك الطريق عليه سكّان المنطقة. وذاع صيته كرجل صلاح وتقوىٰ. وبدأ المكاتبة لرجال الدين، من مشايخ الطرق وعلماء الشريعة، وذلك للتجهّز والاستعداد لملاقاة العدوِّ، فأُحضرت الرايات من كافّة أنحاء البلاد، ومكتوب علىٰ كل واحدة منها:

(لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وأمر محمد أحمد بإضافة الجيلاني وليّ الله، الرفاعي وليّ الله، الدسوقي وليّ الله، البدوي وليّ الله.

يقول صاحب كتاب حلية البشر: (وفي سنة أربع وتسعين ظهر رجل بالسودان يسمّىٰ محمد أحمد، ولم يدّعِ أنّه المهدي.. وكان قبل ظهوره مشهوراً بالصلاح، ومن مشايخ الطرائق، وكثر أتباعه ومريدوه، فلمّا دخل

---

(١) محمد أحمد المهدي ص ٧، تاريخ السودان الحديث ص ١٠٣.

(٢) مؤسّسها في المدينة المنورة العارف بالله محمد بن عبد الكريم السمان المتوفىٰ ١١٨٩ هـ.

الإنجليز حاربهم، وحصل له وقائع كثيرة، والغلبة في تلك الوقائع كلّها له عليهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً، فتملّك جميع السودان. وكان أمره معهم عجيباً، يأتون إليه بالعساكر الكثيرة، والمدافع والآلات الشهيرة، فيقابلهم بجيوشه السودانيين، وليس معهم إلا السيف والرمح والسكاكين)(١).

ولقد صدقت فيه إشاراتُ الحديثِ القدسيّ: «ما زال عبدي يتقرّب إليَّ بالنوافل حتّىٰ أحبّه، فإذا أحببته كنت يدَه التي يبطش بها...»(٢).

وقد تمكّن الثوّار بقيادة المهدي من محاصرةِ الخرطوم سنة ١٨٨٥ م، وقتل حاكم السودان الإنجليزي غوردن، وقيل إنّ المهدي كان يريده حياً ليفتدي به أحمد عرابي، رفيق دربه في العقيدة والكفاح، ويخرجه من منفاه في سيلان. إنّ بين الزعيمين الكبيرين عواطف روحية حية، وتعشّقاً للحرية والوطن، واللقاء دوماً حول شعار الله أكبر الذي هز أركان المستعمرين، وهدّد كيانهم(٣).



«إن المؤرخ العربي الذي سيكتب تاريخ السودان، يجب أن لا ينسى أن يكتب في طليعة أبطال الشعب العربي اسم محمد أحمد»

«تشرشل»

محمد أحمد المهدي

---

(١) ج ٢ ص ٨٠١.

(٢) جزء من حديث طويل رواه البخاري.

(٣) توفي المهدي عن عمر لم يتجاوز الثانية والأربعين بالحمىٰ، وقد وصل حقد الجنرال الإنكليزي عليه حتىٰ بعد وفاته، إذ فجر القبة التي أقيمت فوق ضريحه بكل وحشية وبربرية. وهذا العمل المشين يذكّرنا بما قام به الصليبيون من تخريبهم للمشاهد الدينية عند احتلالهم بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ. (انظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٢٧).

٤ـ أحمد عرابي وصوفية مصر

والكلام عن السودان والمهدي، ينقلنا للحديث عن مصر والثورة العرابية وزعيمهما أحمد عرابي (١٨٤١ـ١٩١١ م).

الذي نشأ وترعرع في بيئة صوفية، وفي ذلك يذكر عرابي عن أبيه أنّه كان شيخاً جليلاً ورعاً، وأن جدّه تزوّج شقيقة السيّد أحمد الرفاعي الصيادي[١]، وينتهي نسب عرابي إلىٰ العارف بالله السيّد صالح البطائحي[٢]. وكان لهذه النشأة أثر بعيد في تكوين خُلُقه وشخصيته.

وجاء في بعض الكتابات: (أحمد عرابي الحسيني، مسلم صوفي، محبّ لأهل البيت، جاور في الأزهر عامين، اتصاله وثيق مع العلماء، قد التفّ حوله جند مؤمنون بالله، يقضون الليل في الاستماع إلىٰ القرآن، وفي حلقات الذكر)[٣].

وقد تمتّع عرابي بشخصية قوية، وكان استشهاده ببعض الأحاديث الشريفة، والحكم المأثورة، له تأثير كبير علىٰ نفوس الضباط الذين أحبّوه، وانضمّوا تحت لوائه[٤]، وشاهدوا في أقواله موافقة لأفعاله.

فقد كان يعيش ـ رحمه الله ـ عيشة الزاهد المتقشّف، متأسّياً بذلك بالسلف الصالح، وهو القائل: «لا نجاح لأمة نبذت أحكام دينها ظهريّاً، ولا فلاح لقوم استعبدوا شهواتهم»[٥].

---

(١) أحمد عرابي الزعيم المفترىٰ عليه ص ٣.

(٢) الأعلام الشرقية ج ١ ص ١٣٤.

(٣) الإسلام وحركات التحرر العربية ص ٤٢، ٤٤، ٤٦ نقلاً عن: مؤسسو مصر الحديثة ص ٨٦، ٩٧، مجلة الهلال إيلول ١٩٧١، مجلة المسلم حزيران ١٩٥٦.

(٤) الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي ص ٨٤.

(٥) كشف الستار عن سر الأسرار (مذكرات كتبها الزعيم أحمد عرابي بقلمه) ص ٢.

وكان من ضمن مجلس القيادة الأعلىٰ الذي شكله عرابي الشيخان الجليلان الصوفيان: الشيخ حسن العدوي صاحب «نفحات الشاذلية» وهو من خطباء الثورة، والشيخ محمد عُليش ت (١٨٨٢ م) الذي توفي في سجن المستشفىٰ، الذي اقتيد إليه وهو مريض، لتحريضه علىٰ ثورة عرابي، ويهمّنا من مؤلفاته: «القول المنجي حاشية علىٰ مولد البرزنجي»[١].

ولا ننسىٰ في هذه العُجالة أن نذكر الدور النضاليَّ للشيخ محمود الشاذلي، والشيخ محمد القاياتي، وأخوه أحمد[٢]، والعلاّمة النقشبندي محمد الطنطاوي[٣] ت (١٨٨٨ م).

وإذا عُدنا إلىٰ الوراء قليلاً، إلىٰ حملة نابليون بونابرت علىٰ مصر سنة ١٧٩٨ م، نرىٰ البطش والإرهاب أوّل ما طال علماء التصوف في الأزهر، الذين كانوا من طراز خاص، ويستطيعون مخاطبة الجماهير وتحريكهم، وقد قتل نابليون وسجن ونفىٰ عدداً منهم.

نذكر من هؤلاء: الشيخ محمد السادات شيخ السادة الوفائية، حيث قاد سنة ١٧٩٨ م ثورة القاهرة الأولىٰ، والشيخ عمر مكرم نقيب الأشراف، الذي قاد ثورة القاهرة الثانية سنة ١٨٠٠ م[٤].

ومنهم علي البكري الصدّيقي شيخ السجّادة البكرية، ولقَّبَتْه الجرائد بشيخ الأمّة[٥]. وقد تقلّد من بعده ابنه محمد توفيق البكري ت (١٩٣٢ م) مشيخة الطرق الصوفية، وهو أوّل من نادىٰ: (مصر للمصريين)، «وأنا

---

(١) انظر: الأعلام ج ٦ ص ٢٠، ص ١٩٩، الإسلام وحركات التحرر العربية ص ٤٦ الطريقة الشاذلية وأعلامها ص ١٧٥.

(٢) الإسلام وحركات التحرر العربية ص ٤٦.

(٣) تاريخ علماء دمشق ج ١ ص ٧٣.

(٤) التراث الروحي للتصوف الإسلامي في مصر ص ١٨٨.

(٥) الإسلام وحركات التحرر العربية ص ٣٦.

ضدّ أيّ احتلال أجنبي» وعمل على تكتيل الرأي العام تجاه الاستعمار البريطاني وفعل بمصر في النفوس والعقول ما تفعله شعلة النار أُلقيت في بحر من البترول[١].

ومن المعروف أنّ الذي اغتال القائد الفرنسي كليبر، هو سليمان الحلبي، الطالب الأزهري السوري. وقبل أن يقدم علىٰ هذا العمل الكبير، أخذ نفسه ببرنامج شديد بالصوم والعبادة، وعندما آنس من نفسه القوّة الروحية، خرج من معتكفه[٢]، ولم يفشِ سرَّه إلاّ إلىٰ ثلاثة من عائلة الغزي (الفلسطينية المشهورة بالتصوف). وقد أُعدم البطل الحلبي سنة ١٨٠٠ م، كما أُعدم معه الثلاثة المذكورون.

٥ـ الشيخ الحكيمي (اليمن)

ولمع في سماء اليمن الشيخ: عبد الله الحكيمي، المصلح الشاذلي ت (١٩٥٩ م) وكان قد هاجر في بداية حياته إلىٰ جزر «كارديف» حاملاً معه الإسلام إلىٰ أهلها، وهدىٰ كثيرين إلىٰ الدين الحنيف، وأسس هناك «الجمعية العلوية الشاذلية»، وفي أيامه الأخيرة عاد إلىٰ اليمن، وتزعّم حركة التحرير الوطني حتىٰ لقي وجه ربّه[٣].

٦ـ محمد بن عبد الكريم الخطابي (المغرب)

وإنّ الذي كفل للشخصية الإسلامية الاستمرار والصمود في المغرب العربي، عمق المشاعر الروحية، وهذه الظاهرة تفسّر لنا انتشار الطرق

---

(١) ن.م ص ٣٨ نقلاً عن جريدة المؤيد الصادرة في ٣/ ٤/ ١٩٠٦.

(٢) مقال: رواق الشام بالأزهر إبّان العصر العثماني (المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ج ٢ ص ١٧).

(٣) الإسلام وحركات التحرر العربية ص ٢٢٣.

الصوفية في إفريقية. ويؤكّد الباحثون المنصفون في هذا الصدد علىٰ أمرين:

الأوّل: أنّ مريدي هذه الطرق هم الذين سعوا في نشر الإسلام ووُفّقوا إليه في إفريقية.

والأمر الثاني: أنّ القاسم المشترك بين زعمائها المجاهدين، أنّها كانت تسير علىٰ هدىً من التصوف.

وقد كانت زوايا الطرق الصوفية من أهمّ مراكز التعبئة لمواجهة الوجود الأجنبي «وكانت المعاقل الحقيقية للدفاع عن السيادة والكرامة والعقيدة، لا تستسلم ولا تساوم»[١].

ومن أشهر تلك الطرق في القرن الماضي، الطريقة الدرقاوية الشاذلية، التي قامت بدور فعّال إبّان الاستعمار الفرنسي للمغرب[٢].

وفي الحقيقة فإنّ من أبرز شخصيات المغرب البطولية، شخصية البطل المراكشي الأمير:

محمد بن عبد الكريم الخطّابي (١٨٨١ـ١٩٦٢ م). ولد في بيت علم وجهاد، كان عظيم الهمّة، وعلىٰ درجة كبيرة من الشجاعة الفائقة، (والزّهد الشديد ولا سيّما في المال، وكان لا يقابل الناس إلاّ نادراً، وقد اعتكف عدّة سنوات، أخذ نفسه بالرياضة الروحية الخالصة، حتىٰ يصقل نفسه، ويصفّيها من شوائب الدنيا وأعراضها)[٣].

---

(١) مقال: «الحضارة في المغرب والشخصيات الإفريقية المسلمة» مجلة العربي العدد ٣٧٧ لعام ١٩٩٠، وانظر: دراسة في كتاب الإسلام في غرب إفريقية، عالم الفكر المجلد ٢٢ لعام ١٩٩٣، الإسلام والثقافة العربية في مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب لأنور جندي، أضواء علىٰ الطرق الصوفية في القارة الإفريقية د. عبد الله عبد الرزاق إبراهيم.

(٢) حاضر العالم الإسلامي ج ٢ ص ٣٩٦.

(٣) الأمير محمد عبد الكريم الخطابي، بطل الشمال الإفريقي ص ٨٨.

خصوصاً والأمير مسلم صوفي[1]، تربّىٰ علىٰ محبّة الله ورسوله، وحبِّ الصالحين. وقد كان لهذا الاعتكاف، وهذه النشأة، أثرها علىٰ الأمير، ليبدأ بعدها مرحلة طويلة من الكفاح ضد الإسبان، بأسلحة متواضعة، وقد سأله بعض مريديه: لو طلبت المساعدة والسلاح من دولة كبرىٰ ؟ فأجاب: لقد طلبت المساعدة، وستصل في الوقت المناسب، إنّها قوة الله، وكفىٰ بالحقِّ ناصراً، فبايعه الجميع قائلين له: سِر علىٰ بركة الله. وقد نفىٰ الخطابي أكثر من مرة، أن يكون لديه طموح شخصي في التطلّع إلىٰ السلطنة علىٰ المغرب الأقصىٰ.

حارب الأمير ببسالة وعزم وصبر منقطع النظير، ولم يُهزم إلاّ بعدَ أن تكاتفت عليه الجيوش الإسبانية والفرنسية، وبعد أن خلّف عدداً كبيراً من المريدين، حملوا بعده راية الكفاح حتىٰ تمَّ قطف ثمار جهادهم. كتب عنه معاصره شكيب أرسلان: «لا نبالغ إذا قلنا إن الأمير محمد عبد الكريم هو بطل الإسلام، وأسده الضرغام، والعلم المفرد، الذي سار بذكره القاصي والداني. لا بل إذا نظر الناس بعين الإنصاف، يجدونه بطل العصر الحاضر بين جميع الأمم، لا بين المسلمين وحدهم».

وتجدر الإشارة أنّ الإرهاب الذي طال علماء الصوفية في المغرب، من قِبَل الاستعمار الفرنسي، أدّىٰ إلىٰ تشتّتهم في الأقطار الإسلامية، فممّن نزل سورية وصحب الشيوخ العارفين فيها: الشريف محمد المكّي الكتّاني ت (١٩٧٣ م) مفتي المالكية.

وقد لازم في دمشق العالم بالله أمين سويد، الذي قرأ عليه الفتوحات المكية، وعلوم الشيخ الأكبر ابن عربي. ومن ثم عاد الكتاني إلىٰ المغرب، واشترك مع والده محمد جعفر الشاذلي الدرقاوي في الجهاد

---

(١) الإسلام وحركات التحرر العربية ص ١٩٧، من ضيع القرآن ص ٢٨١.

ضد الفرنسيين، وبعد عودته إلىٰ سورية شارك المجاهدين السوريين في الثورة علىٰ فرنسة.

كما أسّس «جمعية تحرير المغرب العربي» لدعم المجاهدين المغاربة والجزائريين [(١)].

٧ـ محمد عبد الله حسن (الصومال)

أَمَّا في الصومال فقد قاد السيّد: محمد عبد الله حسن ت (١٩٢٠ م) أبرز خلفاء شيخ الطريقة الصالحية (وهي فرع من الشاذلية) بلاده من نصر إلىٰ نصر أكثر من عشرين عاماً.

وقد اتّجه جهاده منذ البداية إلىٰ شعبتين:

إحداهما دينية لنشر مبادىء الطريقة الصالحية، لمقاومة عمليات التبشير، والأخرىٰ حملت الطابع العسكري للوقوف في وجه القوىٰ الأوربية.

وظلّ هذا الشيخ يحمل السيف ويحارب قوات أكبر ثلاث دول في القرن التاسع عشر، وهي بريطانية وإيطالية والحبشة، ناهيك عن بعض القبائل المحلية التي تحالفت مع القوىٰ الأوربية ضدّه.

ولبسالة الأعمال الحربية التي قام بها، سمّاه بعض أنصاره بالمهدي، بينما هو نفىٰ عن نفسه أن يكون المهدي المنتظر، ولا يعرف متىٰ يظهر، ووصف نفسه بأنّه من الدراويش [(٢)].

وكان السيّد قد وحّد القبائل الصومالية روحياً، قبل توحيدها عسكرياً، وذلك من خلال بثّ أتباعه في أرجاء البلاد، للمبايعة وأخذ العهد. وبذلك استطاع أن يجعل من رابطة الطريقة، أقوىٰ من رابطة العصبيّة القبَلية.

---

(١) تاريخ علماء دمشق ج ٢ ص ٩٠٩، وانظر: الزاهر في الحديث العاطر ص ١١٠.

(٢) انظر: المسلمون والاستعمار الأوربي لإفريقية ص ٢٢٣.

٨ـ الشيخ ماء العينين وابنه الهيبة (موريتانية)

وتزعّم حركة المقاومة في موريتانية في وجه الفرنسيين، وتصدّىٰ لمطامعهم، وكبّدهم خسائر جسيمة، الزعيم الروحي:

مصطفىٰ بن محمد فاضل الشنقيطي أبو الأنوار الملقّب (ماء العينين) (١٨٣٠ـ١٩١٠م) الذي اعتنق الطريقة الفاضلة التي أسّسها والده[١]. (وهي فرع من القادرية). ويعدّ ماء العينين من أشهر علماء عصره، وأعظم أئمّة التصوف. وله مشاركة في التفسير والفقه والحديث واللغة والفلك والقانون. وألّف المؤلفات الكثيرة في تلك الفنون يهمّنا منها: «مبصر المتصوف» و «قرّة العينين علىٰ الرؤيا في الدارين» و «مغري الناظر والسامع علىٰ تعلّم العلم النافع».

قال صاحب معجم الشيوخ: «وأحواله وأخباره في العلم والطريق والسياسة، واسعة طويلة، تحتاج إلىٰ مؤلّف خاص»[٢].

اتصل الشيخ ماء العينين في بداية حياته السياسية بحكّام مراكش، لتكوين جبهة إسلامية، من أجل الوقوف سدّاً منيعاً أمام موجات التوسّع الأوربي في المغرب العربي، فأحسّ الفرنسيون بخطورة هذا الشيخ، وانقلبت مخاوفهم إلىٰ حقيقة مفزعة عندما اغتيل أحد كبار القواد الفرنسيين، واتُّهم الشيخ بالتخطيط لهذا العمل[٣].

فوجد ـ رحمه الله ـ بأن الثورة علىٰ المحتلّ قد آن أوانها.

فأعلن صيحةَ الجهاد صريحة، وقاد أتباعَه في ثورة كادت تعمّ المغرب

---

(١) جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقية ضد الاستعمار الفرنسي ص ٢٠٠.

(٢) معجم الشيوخ أو رياض الجنّة ص ٣٧.

(٣) أضواء علىٰ الطرق الصوفية في القارة الإفريقية ص ١٣٢.

كلَّه، بعدما زحف نحو فاس[1]، لولا أن حشد له الفرنسيون قواهم، فطاردوه وتغلّبوا عليه.

ومع ذلك فإنّ النضال ضدّ الاحتلال لم يتوقّف، بل تجدَّد بشكل أعنف علىٰ يد ابنه:

أحمد الهيبة (١٨٧٦ـ١٩١٨ م) نشأ أحمد في حجر والده، وصحبه، وأخذ عنه الفقه والتصوف.

فلما توفي الأب جمع عليه تلامذته من المريدين، وبايعته العلماء، وشيوخ القبائل، وسكّان الحواضر، بعد أن عظم اعتقادهم فيه. وصار يبثّ لهم النصح والدعاية إلىٰ نصرة الإسلام، واجتمع له جيش ضخم، فقصد مدينة مراكش ودخلها، وحقق انتصارات مذهلة علىٰ الفرنسيين، الذين حشدوا له جموعاً بعضهم من أعوان الاحتلال. وتمّ القضاء نهائياً علىٰ هذا الزعيم الصوفي[2]، الذي أبىٰ، كما يقول صاحب المعسول: «إباءً كلياً أن ينقاد إلىٰ الاحتلال، بعدما حاول رجال الاحتلال ذلك بكل حيلة. وقد طمّعوه أن يكون خليفةً علىٰ كل سوس فأبىٰ، وأطمعوه في المالِ والراحة فأبىٰ».

وصفه أحمد الشنقيطي ـ وهو مؤرخ معاصر للبطل الهيبة ـ بقوله: «هو العلاّمة الوحيد. . . كريم الأخلاق، كثير الإنفاق. . . متىٰ بلغ الإنسان قريباً منه، يسمع دويّ مريديه، يذكرون الله وينشدون. . . ولولا رداءة سلاح أهل الصحراء، وعدم انتظامهم في أنفسهم، لدافعوا الفرنسيين سنين كثيرة»[3].

---

(١) الأعلام ج ٧ ص ٢٤٣ (الهامش).

(٢) انظر: الإعلام بمن حل مراكش من الأعلام ج ٢ ص ٤٧٣، الأعلام للزركلي ج ١ ص ٢٦٥.

(٣) الوسيط في أدباء شنقيط ص ٣٦٥.

٩ـ الشهيد عمر التكروري وأحمد حبيب الله (السنغال)

وفي الواقع، فإنّه في إفريقية عموماً، اعتنق زعماء الجهاد تعاليم الطرق الصوفية، التي لا يستطيع أحد أن ينكر دورها في نشر الدين والثقافة الإسلامية بين الوثنيين[١]، وفي المقاومة المستميتة لكلِّ مظاهر السيطرة والوجود الأجنبي في القارّة السوداء، فضلاً عن دور هذه الطرق الهامّ في توطيد العلاقات الروحية والاجتماعية والسياسية، بين بلدان متباعدة متناثرة.

وإضافة لما تقدّم من تراجم لشخصيّات بطوليّة عملاقة، نجد أبرز أعلام السنغال:

الحاج الشهيد عمر الفوتي التكروري، والشيخ أحمد حبيب الله بامبا.

وقد اهتمّ كثير من المؤرّخين بحياة الأول (١٧٩٧ـ١٨٦٤ م)، نظراً للدور الكبير الذي اضطلع به في مقاومة الاستعمار الفرنسي. درس الحاج عمر اللغة العربية، وحفظ القرآن الكريم، ودرس صحيح البخاري ومسلم، ثم «تاقت نفسه ـ كما يقول مؤرّخوه ـ للانضمام في سلك أرباب الكمال، وصرف الهمّة إلىٰ تهذيب النفس»[٢].

ومنّ الله عليه فاجتمع مع أحد خلفاء التيجانية، وأخذ الأوراد اللازمة

---

(١) كان يقول المبشرون: ما ذهبنا إلىٰ أقاصي المناطق البعيدة عن الحضارة والمدنية في إفريقية وأقاصي آسية، إلا وجدنا الصوفي يسبقنا إليها، وينتصر علينا. (تربية الأولاد في الإسلام ج ٢ ص ٨٥٥). وانظر: الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقية د. عمار هلال.

(٢) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ج ٦ ص ٢٠.

التي تمكّنه من تقلد منصب شيخ الطريقة[1]. وعكف علىٰ وضع أسس كتابه الرماح[2].

وعندما اشتهر أمر الشيخ، وفد إليه الناس من كلِّ صوب، ينتفعون بمواعظه، ويتأدّبون بآدابه، ويدخلون في جماعته أفواجاً. وحدّد الحاج عمر أهدافه وتتلخّص في:

مقاومة الوثنية، ونشر الإسلام، والوقوف في وجه المتكالبين علىٰ السلطة، والمتعاونين مع الاستعمار، وبذل ما أمكن من جهد من أجل تحقيق وحدة البلاد الإفريقية، لتقليص المدِّ الأوربي الزاحف إلىٰ قلب إفريقية الغربية[3].

وبعد أن تكاثر أنصارهُ، شمّر الحاج عُمر عن ساعِد الجهاد، وأخذ يحضُّ أتباعه علىٰ حمل السلاح، ويدعو الله أن يُريَه مُلْك الإسلام في البلاد الإفريقية.

واتّخذ من زاويته الكبرىٰ مقرّاً روحياً وعسكريّاً له[4].

---

(١) المسلمون والاستعمار الأوربي لإفريقية ص ٤٠ وما بعدها. والطريقة التيجانية: هي فرع من الخلوتية، ومؤسسها: أحمد بن المختار التيجاني ت (١٨١٤ م). يصفه أرنولند في الدعوة إلىٰ الإسلام ص ٣٦٧: «أنه كان رجلاً كريم السجايا، ذا نفوذ ومظهر يوحي بالسيطرة والقوة، اشتهر بعلمه وورعه».

(٢) قال في مقدمته: ومقصودنا الأعظم من تأليف هذا الكتاب، الذبّ عن أعراض أولياء الله، ومن انتسب إليهم، ممّن أراد الله إسعادهم. والردّ علىٰ من ينكر عليهم، ممّن أراد الله شقاوتهم، وهو واجب علىٰ كل عالم متدين، لأن الله ورسوله أمرنا بذلك، قال تعالىٰ: ﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾ وإنّ من نَصَر العلماء العارفين بالله، فقد نَصَر الله، ومن خذلهم، فقد خان الله ورسوله، وهالك في الدنيا والآخرة، وصحّ في الحديث: «من عادىٰ لي وليّاً فقد آذنته في الحرب». طبع كتاب «رماح حزب الرحيم علىٰ نحور حزب الرجيم» علىٰ هامش كتاب «جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني» دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٣.

(٣) حضارة الإسلام وحضارة أوربة في إفريقية الغربية ص ١٢٦.

(٤) أضواء علىٰ التصوف ص ٦٨.

كما شيَّد حصناً، وجَنَّد جيشاً[١]، استطاع به سنة ١٨٥٤ م أن يسيطر علىٰ قسم كبير من السنغال، واعترف الحاكم الفرنسي بذلك، وأكّد في مراسلاته المستمرة إلىٰ باريس علىٰ أنّ الحاج عمر ينوي شنَّ هجوم شامل علىٰ الفرنسيين، أُسوةً بالأمير عبد القادر الجزائري[٢].

فعمل الاحتلال علىٰ مطاردته، ممّا اضطره للاعتصام في مغارة، فأطلق أعداؤه الدخان عليه حتىٰ اختنق[٣].

واستشهد هذا الشيخ الصوفي، ولم يتحقّق حلمه في بناء دولة إسلامية قوية، وترك لابن أخته أحمد التيجاني متابعة ذلك. إلاّ أنه فشل في التغلّب علىٰ الجيش الفرنسي، الذي فاقه عدداً وعتاداً، لكن هذا الفشلَ لم يطل مبادىء الطريقة التيجانية، التي ظلت عالقةً في القلوب، بل ازداد المسلمون تمسّكاً بها في وجه التيارات الوثنية والتبشيرية. ويمكن القول:

لقد كان الحاجّ عمر أكبر ممهّد لمن أتوا بعده من الزعماء الإفريقيين، الذين قاوموا علىٰ غراره الاستعمار الفرنسي، لأنّه كان يمثّل الطموح والحماس الصوفيّيْن[٤].

والشخصية الثانية البارزة التي أكملت المشوار النضالي للشيخ عمر في السنغال:

السيّد أحمد حبيب الله بامبا (١٨٥٠ـ١٩٢٧ م) الذي درس الشريعة

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ج ٥ ص ٤٣٢.
(٢) انظر هذه الوثيقة وغيرها من الوثائق في «المسلمون والاستعمار الأوربي لإفريقية» ص ٨٩ وما بعدها.
(٣) دائرة المعارف الإسلامية ج ٥ ص ٤٣٣.
(٤) حضارة الإسلام وحضارة أوربة في إفريقية الغربية ص ١٢٨.

الإسلامية وهو في سنٍّ مبكرة، ثم انضمّ إلىٰ الطريقة القادرية، وعاش حياة الزهد والتقشّف[١].

وقد لمس فيه الناس أيضاً كرهه الشديد للاستعمار، وتحدّث عنه الأوربيون أنه رجل متعصّبٌ[٢].

وتوافد عليه أبناء القبائل، وزعماء ثائرون، وذاعت شهرة الشيخ أحمد، ونظر إليه الكثيرون علىٰ أنّه المخلِّص لهم من نير الاحتلال الفرنسي، ومن حكّام تقليديين عجزوا عن حمايتهم من الاستعمار الأوربي[٣].

وانتشرت شائعات بأنّ الشيخ أحمد يشتري السلاح، وينظّم الأتباع، وأنّه يخطّط للقيام بثورة عامة، واتُّهم بأنه ينشر أفكاراً بين الناس علىٰ أنّه يحمل رسالة من الله لطرد الكافرين، وأنه يجب عدم دفع ضريبة الرأس للحكام الأجانب، وضرورة الاستعداد للحرب المقدسة[٤].

وبسبب هذه الاتّهامات، نُفي الشيخ عدّة مرّات. وسُمح له في السنوات الأخيرة من حياته بالعودة إلىٰ بلاده، علىٰ أن يوقف عملية هجرة الناس إلىٰ معسكره. ووضعت القيود حول نشاطه، واستمرّ كذلك حتىٰ وفاته.

لم يكن الشيخ أحمد مجاهداً فحسب، بل وكان عالماً جليلاً أيضاً، عرّف الناس في تلك البلاد بالثقافة العربية، والدين الإسلامي، وترك لنا مؤلفات، منها في الأخلاق والتصوف: «حدائق الفضائل» و «الجوهر النفيس» و «مسالك الجنان» و «سفينة الأمان».

---

(١) أضواء علىٰ الطرق الصوفية في القارة الإفريقية ص ١١٢.
(٢) حضارة الإسلام وحضارة أوربة في إفريقية الغربية ص ١٢٩.
(٣) أضواء على الطرق الصوفية في القارة الإفريقية ص ١١٤.
(٤) ن.م ص ١١٦.

١٠ـ الشيخ عثمان بن فودي (نيجيرية)

وفي نيجيرية، كان للشيخ عثمان بن فودي (١٧٥٤ـ١٨١٧ م) دور بارز في تاريخ هذا البلد الإفريقي المسلم.

نشأ الشيخ عثمان علىٰ حبِّ العلم، فدرس الفقه، وكان مولعاً بالعبادة والذكر، ثم مال بكلّيته إلىٰ التصوف، ففتح الله عليه، ونوّر قلبه بنور الإيمان، وأخذ بالتدريس والوعظ، وذاعت شهرته في آفاق البلاد، وحمل لقب «أمير المؤمنين». ثمّ أخذ يتصدّىٰ لتربية المريدين والسالكين، بعد ما شاهد ـ وهو في سنّ الأربعين ـ رؤيا تضم سيّد البشر ومعه الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ والسيّد عبد القادر الجيلاني، الذي قلّده سيف الحقِّ، وطلب منه إعلان الجهاد ضد أعداء الله. قال الشيخ عثمان عن هذا التبشير: كان لي خيراً من الدنيا وما فيها[١]. وأصبح بعد ذلك قطباً للطريقة القادرية.

وأخذ يقوّي الروح القتالية لدىٰ أتباعه، الذين بثّهم بين القبائل الوثنية، التي رحّبت بجماعات القادريين، ودخل الناس أفواجاً في الدين الإسلامي.

كان جهاد الشيخ عثمان في البداية، بالقلم والكلمة المسموعة، ونادىٰ بضرورة مقاتلة البغاة، ثمّ انتقل إلىٰ الجهاد بالسيف بدءاً من سنة ١٨٠٤ م، وتوالت انتصاراته، وسقطت إمارات عديدة بيد أتباعه[٢].

خلّف ـ رحمه الله ـ تراثاً عريض الثراء، يشهد علىٰ سعة اطّلاعه وعلوٍّ

---

(١) انظر مقال: «التراث الحضاري الإسلامي لزعماء نيجيرية في القرن التاسع عشر» مجلة: «عالم الفكر» المجلد (٢١) لعام ١٩٩٣.

(٢) انظر: الجهاد الإسلامي في غرب إفريقية ص ٥٨ وما بعدها، دائرة المعارف الإسلامية ج ٥ ص ٤٣٠.

همّته، وقد أصبح هذا التراث ينبوعاً للفكر والثقافة في غرب إفريقية[1]. يهمّنا منه: «السلاسل الذهبية للسادات الصوفية» و «السلاسل القادرية للأمّة المحمدية». وكتاب: «أصول الولاية وشروطها» وله أسانيد في الطريقة الخلوتية، وفي أحزاب القطب أبي الحسن الشاذلي، وله بعض القصائد منها ما يبثّ فيها شوقه إلىٰ زيارة ضريح الرسول ﷺ[2]، ومنها في مدح أستاذه محمد المختار، العالِم الدينيّ الذي تتلمذ علىٰ يديه، ولقد أشار إليه عندما قال: «أخذت منه علم التصوف الذي للتخلّق والذي للتحقّق».

وله قصيدة طويلة يتوسّل بها بسلطان الأولياء عبد القادر الجيلاني، وحتىٰ لا يحصل لَغَط من الجهلاء وبعض المتفقّهين، في موضوع التوسّل، ألّف الشيخ عثمان كتاب: «رفع الاشتباه في التعلّق بالله وبأهل الله».

قال ابنه محمد في ترجمته: «والدي عثمان، العالم الرباني، والغوث الصمداني. بمثله تضرب الأمثال، وفي وصفه تفنىٰ الأجيال. قد أنعم المولىٰ علينا بالجهاد ببركاته في هذه البلاد، وأمدّنا بجنوده، وأيّدنا بنصره، حتىٰ شاهدنا من انتصاره لأوليائه وأصفيائه عجائب وغرائب وكرامات، مما يزيد المؤمنين إيماناً، ويكسب الكافرين ذلاً وخسراناً»[3].

وقد ذكر محمد أنّ الولاية حصلت لوالده، ببركة الصلاة علىٰ النبي ﷺ، وبواسطة الشيخ عبد القادر، أمدّه الله بأنوار الفيض، وقلّده

---

(١) أضواء علىٰ التصوف ص ٤٤.

(٢) منها قوله:

هل لي مسير نحو طيبة مسرعاً ... لأزور قبر الهاشمي محمد

وقسمت بالرحمن مالي مفصل ... إلا حوىٰ حب النبي محمد

(٣) الجهاد الإسلامي في غرب إفريقية ص ١٢٣.

الحقّ تعالىٰ، تاج العناية والهداية[1].

وقد تقاسم مع الشيخ عثمان جهاده الطويل، أخوه وتلميذه، الشيخ عبد الله بن فودي ت (١٨٣٠ م) النحوي، والفقيه الصوفي، وصاحب أشعار رائعة، منها في مدح الرسول الكريم والتوسّل به:

فحقِّقْ رجائي فيك يا سيِّدَ الورىٰ فراجيكَ في الدَّارَيْنِ لَيْسَ بخائبِ

ويُفاد من كلامه عن التصوف: بأنّه إصلاح للقلوب، وصدق في التوجه إلىٰ الله تعالىٰ، وأنّه مقام الإحسان، ولا تصوف إلاّ بفقه، وكذلك لا فقه بدون تصوف، وتلازمهما كتلازم الأرواح بالأجسام.

وكذلك ساعد الشيخ عثمان في كفاحه ابنه محمد بلو. كان يمضي محمد نهاره في الدعوة والجهاد، وليله في العبادة والتأليف. فكتب في مجالات عديدة، منها في الطب، وفي حقل التصوف صنّف: «النصيحة الوضيئة في بيان أنّ حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة» و «مفتاح السداد بشأن الأربعة الأوتاد».

ومهما يكن من أمر، فإنّ الشيخ عثمان وأخاه وولده، يُعدّون من الرجال العباقرة الذين تفتخر بهم نيجيرية اليوم. استطاعوا بعد جهاد شاق ومرير علىٰ أكثر من صعيد، أن يرسوا دعائم الحضارة والهويّة الإسلامية في أكبر دولة من القارّة الإفريقية.

١١ ـ حمىٰ الله الشريف (مالي)

وأخيراً لا يستطيع الباحث في تاريخ إفريقية الحديث، أن ينسىٰ الدور الروحي والبطولي للشيخ: حمىٰ الله الشريف التيجاني مؤسس الطريقة الشريفية.

وُلد «حمىٰ الله» في مالي سنة (١٨٨٦ م)، وتلقّىٰ علوم الشريعة

---

(١) الدعوة الإسلامية في غرب إفريقية وقيام مملكة الفولاني ص ٢٠٠.

والحقيقة عن أحد أولياء منطقته، من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وقد كان مرهف الحسّ، شديد الذكاء، قوي الحجّة، ذا مظهر مهيب. بدأ دعوته بنفسه سنة ١٩٠٦ م، فلزم التعبّد والاعتكاف في رباطه[١].

وبعد عدّة سنوات من عزلته هذه، اتّجه «حمىٰ الله» في الدعوة إلىٰ الطبقة الشعبية. فكثر تلاميذه، وأصبح من الشيوخ المشهورين. وانطلق في الجهاد بمحاربة خصومه، من العائلات الإقطاعية المؤيّدة للفرنسيين[٢]. وشعرت فرنسة بخطره، فنفي مرتين، الأولىٰ: إلىٰ إحدىٰ واحات موريتانية، والأُخرىٰ إلىٰ ساحل العاج، إلاّ أنّه كان يعلن في كلّ مرّة رغبة الطريقة الشريفية في استئناف الجهاد ضد فرنسة، حتّىٰ حُكم عليه أخيراً بالسجن، الذي توفي فيه سنة (١٩٤٢ م).

يقول أحد القادة الفرنسيين، واصفاً تصرّف حكومته ضد أتباع الشريف: «عمدنا إلىٰ الحكم بالسجن علىٰ ستمائة من أتباع هذه الطريقة، وحكم بالموت علىٰ ثلاثة وثلاثين، منهم اثنان من أبناء الشريف».

تلك صور رائعة، ومواقف خالدة، لزعماء مخلصين، وأبطال صادقين، جاهدوا في الله حقّ جهاده، وهم جميعاً رفضوا الاستسلام، رغم كلّ العروض المادية والمعنوية، وبالرغم مما أصاب زعماء هذه الحركات من خسائر، فقد فضّلوا الاستشهاد في سبيل الله.

«وإذا كان زعماء بعض هذه الطرق، قد عقدوا معاهدات صلح مع بعض القوىٰ الأجنبية، فذلك حتىٰ تستردّ الأنفاس، وتنظّم القوات، وتبدأ مرحلة جديدة من النضال والكفاح»[٣].

---

(١) حضارة الإسلام وحضارة أوربة في إفريقية الغربية ص ١٣٣.

(٢) ن.م ص ١٣٤.

(٣) المسلمون والاستعمار الأوربي لإفريقية ص ٢٧١.

١٢ـ جهاد أعلام الصوفيّة في الهند

وكما في إفريقية، فإنّه لا يستطيع أحد أن يبخس علماء الصوفية، أو ينكر الدور الكبير والمزدوج الذي قاموا به في الهند في نشر الإسلام، وفي مقاومة كافّة أشكال الاستعمار.

«فقد كان علىٰ رأس كل حركة جهاد وكفاح شخصية روحية قوية»[١].

ويذكر أبو الحسن الندوي، أنّ العهد الإسلامي في الهند يبدأ بهؤلاء الصوفية، والحديث عن أدوارهم التاريخية يحتاج إلىٰ مجلد ضخم. ويعدّ إمام الطريقة المجددية:

أحمد الفاروقي السهرندي ت (١٦٢٤ م) رائد ثورة الإصلاح والتجديد في الهند، قيل إنّه لم يكن له مثيل في عصره في علم الحقائق، وقد نعته سعيد النورسي: «بطل الشريعة والحقيقة». ورأى صاحب نزهة الخواطر فيه: «آية من آيات الله العظام، ونادرة من نوادر الأيّام». ونذكر من مؤلّفاته «المعارف اللدنّيّة»[٢].

يقول عنه أرسلان: «فهو في هذا المشرب من الأفراد الأفذاذ، ربّما لا يوجد نظيره في المتأخرين، فقد كان شيخ طريقة، وزعيماً روحياً، كما كان مجاهداً وقائداً أيضاً»[٣].

وإنّ جمعه العجيب بين هذا وذاك مع أصحابه، ليذكّرنا بالقرون الأولىٰ، فكان في ذلك نفحة طيبة هبَّت في الأرض، فأحيتها بعد موتها،

---

(١) ربانية لا رهبانية ص ١٢٠.

(٢) الأعلام ج ١ ص ١٤٣.

(٣) حاضر العالم الإسلامي ج ٢ ص ١٧٣، وللتوسع انظر: أحمد الفاروقي السهرندي رسالة دكتوراة غير منشورة ـ أحمد عبد الوهاب عزام ـ جامعة الأزهر ١٩٨٨.

«فبرهن أنّ التوحيد والصلة بالله والتربية والسلوك علىٰ منهاج النبوة يصنع العجائب، وأنّ التضحية والإيثار والفداء من غير روحانية صافية، حلم لا يتحقق، وغاية لا تنال»[١].

وقد تمكّن السهرندي من التأثير علىٰ الحكومة المغولية اللادينية التي كانت تحكم الهند، فأصبحت تدين بدين الإسلام بدل البراهمة والوثنية، ولم يكن الملك المجاهد:

محمد أُورنك عالم كير ت (١٧٠٧ م) إلا ثمرة من ثمرات دعوته وجهاده.

وهذا السلطان من سلالة تيمور لنك المشهور، أقام في الحكم خمسين سنة، وفتح بلداناً كثيرة، ويعدّه المؤرخون أعظم امبراطور مغولي مسلم صوفي بلغت الدولة في عهده الذروة التي لم تبلغها قبله أو بعده.

وقد أجمع من ترجم له، علىٰ صلاحه وزهده طوال مدة حكمه، حتّىٰ إنّ صاحب سلك الدرر وصفه: «المجاهد في سبيل الله، العالم الصوفي، العارف بالله، الملك القائم بنصرة الدين، الذي أباد الكفّار في أرضه، وقهرهم، وأيّد الإسلام، وأعلىٰ في الهند مناره»[٢].

والشخصيّة الثانية البارزة في الهند:

شاه ولي الله الدهلوي ت (١٧٦٢ م) الذي يعدّ رأس العلماء المجاهدين في سبيل دينهم ووطنهم، بما قام به من مجهود عظيم في تنبيه المسلمين والحكّام منهم إلىٰ خطر الإنجليز[٣].

قال الكتّاني في فهرسه: «أحيا الله به وبأولاده وتلاميذهم الحديث

---

(١) ربانية لا رهبانية ص ١٣٣.
(٢) ج ٤ ص ١١٣، وانظر الأعلام: ج ٦ ص ٤٦.
(٣) تاريخ الإسلام في الهند ص ٤١٢ وما بعدها.

والسنّة بعد مواتِهما» وله مؤلفات جليلة منها: «البدور البازغة» و «القول الجميل في بيان سواء السبيل». وكلاهما في التصوف. وقد كان كثير من العلماء المنتسبين إلىٰ مدرسته الفكرية الصوفية، قد أثّروا تأثيراً كبيراً في مجرىٰ الحياة، وفي حوادث الهند وثورتها[1].

ويعدّ سيّد:

أحمد عرفان (الشهيد) أحد تلامذة شاه وليّ الله، والسالكين علىٰ طريقته. ولد سنة (١٧٨٦ م) وتلقّىٰ الصوفية من شاه عبد العزيز[2] الملقب سراج الهند ت (١٨٢٤ م)، حيث لازمه في دلهي بضع سنوات[3]. استطاع خلال هذه المدّة، وبعد مجاهدات مضنية، أن يحرز مكانة عالية، في أُفق المعرفة والعلم بالله، فارتقىٰ إلىٰ منازل ودرجات كبيرة، واكتسب من العلوم الباطنية والروحانية والنفحات القدسية، ما تندهش له العقول[4].

وبعد أن نال إجازة شيخه العلمية، ألّف في التزكية والتصوف كتاب «الصراط المستقيم»[5]. ثم قام برحلة دينية للوعظ والإرشاد، وقد ذاع صيته في أرجاء الهند، ولا سيما بين العلماء والشيوخ مع مريديهم.

يقول أحد كتّاب سيرته: إنّ نيفاً وأربعين ألفاً من الهندوس والكفار، قد اعتنقوا الإسلام متأثّرين بدعوته.

وبعد هذه الرحلة، أخذ السيّد أحمد ـ بإشارة من شيخه ـ يعدّ العدّة

---

(١) ن.م ص ٤١٥.
(٢) ن.م ص ٤١٨.
(٣) دائرة المعارف الإسلامية ج ١ ص ٤٩٦.
(٤) انظر: أحمد بن عرفان الإمام المجاهد الشهيد ص ١٨، إذا هبت ريح الإيمان ص ٢١٥.
(٥) المسلمون في الهند ص ٤١.

لإعلان الجهاد علىٰ صعيدين، الأول: مقاومة خطر الزحف الإنجليزي علىٰ الهند، والثاني: تحرير المسلمين القاطنين في إقليم البنجاب من نير السيخ. فتوزّعت أعمال السيّد بين التربية الروحانية واشتغاله بالأمور العسكرية. وبلغ عدد أنصاره أكثر من عشرة آلاف، وفي طليعتهم: «العلماء والفضلاء وشيوخ الزوايا»[١]. فوصل معهم إلىٰ غزنة، وأقام بجوار ضريح ومشهد السلطان محمود الغزنوي[٢]، وبايعه في هذا المكان عدد كبير من الناس. وعندما وصل إلىٰ لاهور واجه جيشاً كبيراً من جنود السيخ، وقاتل المجاهدون بجرأة وشجاعة بالغة، وخاضوا معارك طاحنة ضد السيخ وأسيادهم من الإنجليز، وكاد النصر أن يكون حليف السيّد أحمد إلاّ أنّ اختفاءه المفاجيء ومن ثمَّ تبيُّن استشهاده، جعل فلول جيشه يتشتت. ليبقىٰ هذا الشيخ الصوفي صفحة من ألمع وأمجد وأروع صفحات البطولة والاستبسال، وأثراً لا يمحىٰ في قلوب الملايين من أهل الهند.

وجدير بالذكر، أنّ الطريقة الصوفية الأكثر شيوعاً في الهند، هي النقشبندية «ولقد كانت عاملاً هامّاً في ثورة المسلمين الكبرىٰ في تركستان الصينية، كما أَوقدت الثورات ضد النفوذ الاستعماري، في جزائر الهند الشرقية»[٣].

وقد ظهر في إقليم البنجاب الهندي، الفيلسوف والسياسي والشاعر الصوفي:

محمد إقبال ت (١٩٣٨ م)، الذي كانت له اليد الطولىٰ في قيام دولة

---

(١) إذا هبت ريح الإيمان ص ٢٢٦.

(٢) هو محمود بن سبكتكين الغزنوي، فاتح الهند وتركستان ت ٤٢١ هـ قال عنه ابن الأثير في الكامل (ج ٩ ص ٤٠١) «كان ملازماً للجهاد، ديّناً خيّراً، يكرم العلماء ويعظّمهم، وهو الذي جدد مشهد قبر علي بن موسىٰ الرضا وأحسن عمارته».

(٣) العالم الإسلامي والاستعمار ص ٣٠٥.

باكستان، فقد كان أوّل من نادىٰ بضرورة انفصال المسلمين عن الهندوس.

وقد كان ـ رحمه الله ـ يتقطّر أسىٰ ولوعة علىٰ حال المسلمين، وخصوصاً الشباب منهم، يقول:

«إنَّ الشباب المثقف فارغ الأكواب، مظلم الأرواح، يبني الأجانب في ترابهم الإسلامي كنائس وأديارا..». ويتّجه إلىٰ العرب قائلاً: «أسفاً علىٰ الخمول والجمود يا عُمّار البادية، كنتم أمّة واحدة، فصرتم أمماً...».

ويقول في موضوع آخر: المسلم القويّ الذي كان تكبيره يذيب الأحجار، انقلب وجلاً من صفير الأطيار....

ويُذكر أنّ أجداد إقبال كانوا من البراهمة، وأسلم أحدهم عند اتّصاله بمسلم صوفي[١]

وممّا لا شكّ فيه أنّ الدكتور إقبال كان صوفياً، وكان يقدّر الرياضة الصوفية، ليس فقط لصفاء النفس والروح، وإنّما كمصدر للعلم الإلهي[٢]، وتحصيل المعرفة والعلم بالله.

وتاريخ الرياضة الصوفية في الإسلام كما يؤكّد إقبال أنّها تجعل الإنسان كما قال الرسول ﷺ: «يتخلّق بأخلاق الله»[٣].

وإذا كان معظم المستشرقين قد ردّوا التصوف إلىٰ عوامل خارجية، فإنّ إقبال قد فَنَّد هذه المزاعم بقوله:

«... ونسوا أنّ أيّة ظاهرة عقلية أو تطوّر عقلي في أمّة، لا يكون لهما معنى، ولا يُفهمان إلاّ في ضوء الظروف العقلية والسياسية والدينية

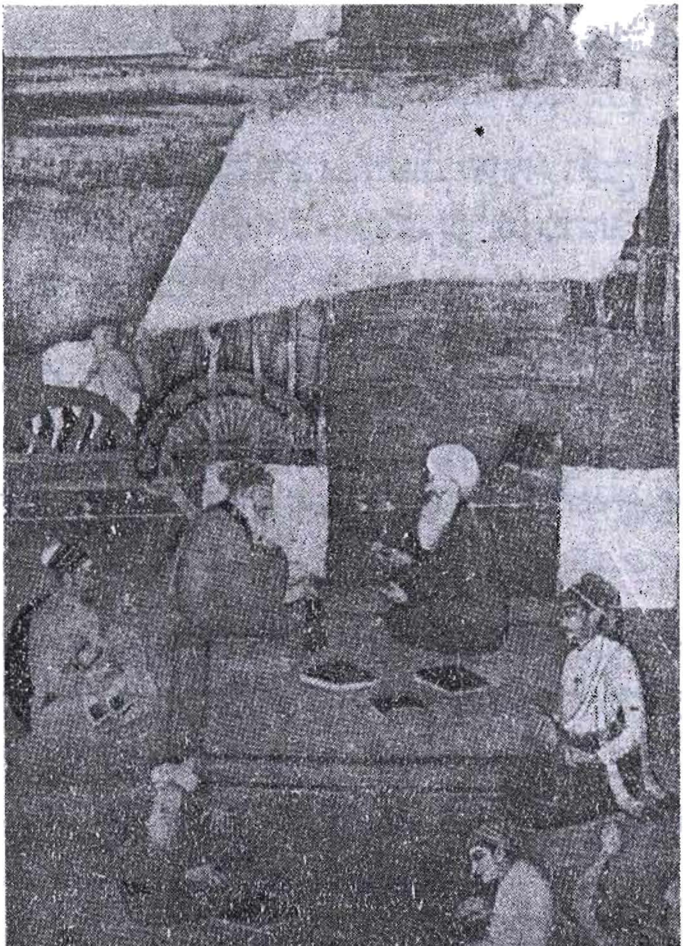
---

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٤٠١ (الهامش).

(٢) تجديد الفكر الديني في الإسلام ص ٢٢.

(٣) الفكر الإسلامي الحديث ص ٤١٨.

والاجتماعية، التي عاشت فيها هذه الأمّة قبل ظهور تلك الظاهرة»[(١)].



أورنجزيب الملك الصالح يزور مع أولاده أحد الأولياء الصوفيين
ويجلس أمامه في غاية الخضوع وقد لبس عباءته وترى الكتب بجانب الصوفي

(اللوحة مستعارة من كتاب: تاريخ الإسلام في الهند)

(١) مقدمة المنقذ من الضلال للدكتور عبد الحليم محمود نقلاً عن تطور الفلسفة للدكتور إقبال ص ٩٦.

١٣ـ الإمام شامل ورفاقه (روسية)

وفي روسية، وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر، خاض أصحاب الطريقة النقشبندية الحرب المقدّسة، وقادوها ضد الغزاة البوذيين[١]، فضلاً علىٰ أنّها كان لها أيادٍ بيضاء في الدعوة إلىٰ الإسلام في تلك البقاع.

وفي نهاية القرن الثامن عشر، كانت النقشبندية في القوقاز المحرّك الأساسي لمقاومة الجَبَلِيين للغزو الروسي[٢].

وأوّل صوفي داع لها في القوقاز الشيخ منصور **أوشورما**، وهو أوّل من خاض الجهاد ضد الروس، وحثّ علىٰ الحرب معه الشاشان والداغستانيين، وبعد أن أحرز انتصارات باهرة، أسره الروس، وحُكِمَ عليه بالسجن المؤبّد ومات في سجنه سنة (١٧٩٣ م)[٣].

وكان المرشد النقشبندي الشهير بعد الشيخ منصور هو الإمام:

شامل الداغستاني (. . .ـ١٨٧١ م) وهو علىٰ نمط الأمير عبد القادر الجزائري، وكان البَطَلان الصوفيان الكبيران، قد التقيا في إحدىٰ المناسبات علىٰ أرض مصر.

وفضلاً علىٰ كون «شامل» عالماً وزعيماً دينياً، كان يتمتع بعبقرية عسكرية عظيمة نادرة، في إدارة الحروب وتحريك الجيوش[٤].

ومع ذلك، كان يصف نفسه: «أنا شامل أحقر المحاربين»[٥]. كان

---

(١) المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي ص ١٠١.
(٢) ربانية لا رهبانية ص ١٢٧، وانظر: حاضر العالم الإسلامي ج ٢ ص ١٩٠.
(٣) المسلمون المنسيون ص ١٩٦.
(٤) انظر: بطولات من أرض القفقاس ص ٥٠ وما بعدها.
(٥) صقور القوقاز ص ١٦٣.

ـ رحمه الله ـ كثير التضرُّع والابتهال إلىٰ المولىٰ عز وجل، ودائم التوسّل بالأولياء والصالحين، وكان يقول:

«الدعاء الذي تقوّيه الأفعال يقبله الله».

تقلّد الشيخ شامل أمور الجهاد، وحقّق انتصارات عظيمة علىٰ الروس، وألقىٰ الرعب في قلوبهم، وجلاهم عن قسم كبير من البلاد، وكانت عُدّته من القوّات المسلمة ـ علىٰ ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية ـ ستين ألف رجل، وكانت الغابات وجبال داغستان المنيعة هي معاقل حكمه[1]

فجرَّدت روسية له جيوشاً جرَّارة، مما اضطرَّ هذا البطل الفذّ أن يُسَلِّمَ مكرهاً للرّوس، بعد عملية خداع أُعِدَّت له. فتمَّ نفيه إلىٰ المدينة المنوّرة، وتوفي فيها سنة (١٨٧١ م)

فَشِل الإمام شامل لأنّ نجاحه كان مستحيلاً، إذ كان عليه منذ البداية أن يكافح ليس ضد روسية فقط، وإنما ضدّ عدوّ أسوأ بكثير، وهو التفرُّق الداخلي[2]

ولنختم هذه الترجمة بهذه الأنشودة، التي كان شامل يرددها في حلّه وترحاله، وهي تدلّ علىٰ تشبّعه بروح الصوفية:

يا عباد الله، يا أهل الله
ساعدونا باسم الله
مدّونا بعونكم
فربّما ننجح برحمة من الله
يا أقطاب يا متصلون
يا مختارون يا أسياد

---

(١) ج ٣ ص ١١٦.
(٢) احتلال الروس للقفقاس ص ٤٨٩.

يا الله بجاه أوليائك

أعطنا ما نتمنّى من غايات

بجاه طٰه سيّد الأكوان

وبجاه علي أقدس الخلائق

أنت يا نور عيون الحقيقة

باسم الإله الذي اصطفاكم

والذي منحكم الأنوار[1]

وممَّن حارب إلىٰ جانب «شامل» رفيقه غازي مولىٰ النقشبندي[2]، والشيخ الحاج قاسم، وقد أُطلق عليه: «الدرويش». وكان في رؤوس الجبال ينصح ويعظ، ويصف لمريديه روعة الشهادة في سبيل الله.

ولنستمع إلىٰ هذا الحوار الجميل، الذي جرىٰ في أحد كهوف جبال القوقاز:

يُجيب الحاج قاسم علىٰ سؤال محاوره: «... قلت لك إنّي درويش، هل يمكن أن يكون للدرويش بيت؟ قبّة السماء لحافي، ووجه الأرض سريري، وكلّ مكان منزل وكلّ ناحية موقد...»[3].

وقد ذكر صاحب كتاب صقور القوقاز: «كان عدد كبير من المقاتلين من الدراويش» وعقّب المترجم علىٰ ذلك بقوله:

---

(١) ن.م ص ٥٢٥ ولم يُعثر للإمام شامل علىٰ غير هذه الأنشودة، فقد كان يقول ـ رحمه الله ـ «أيُّها الجبليون علينا أن نحارب، لا وقت لدينا لتأليف الأغنيات، ولا لرواية القصص، فلنجعل الأعداء يغنون الأغنيات فينا، وستعلمهم سيوفنا كيف يفعلون ذلك، امسحوا دموعكم، واشحذوا سلاحكم». (انظر رواية بلدي لرسول حمزات توف ص ٣٩٩).

(٢) ن.م ص ٢٦٣.

(٣) صقور القوقاز ص ١٠٠.

وكأنّ المؤلّف يريد أن يوضّح أنّ الدراويش ليسوا كسالىٰ ولا اتّكاليين[1].

واختفت النقشبندية لوقت من مقدمة المسرح القوقازي، بعد هزيمة الإمام شامل والحاج قاسم.

فقد استشهد معظم شيوخها في المعارك، ومنهم من أُسر وأُعدم شنقاً، ومنهم من نُفي، وقلة منهم يئس وغادر البلاد إلىٰ الإمبراطورية العثمانية.

بَيْدَ أَنَّ الطريقة استمرت تنشط بشكل آخر في بلاد الداغستان والشاشان، وانتهت مشيخة النقشبندية إلىٰ الشيخ علي خان، الذي اشتهر بورعه الشديد، وأصبح زعيم حرب المغاوير وهو علىٰ رأس مريديه، وبقي كذلك حتىٰ استشهاده سنة (١٩١٧ م). وقد أعقب استشهاده، عمليات طويلة ودامية من القمع للمجاهدين، إلاّ أنّ ذلك لم يحطّم مقاومة الصوفيين، إنّما أعطىٰ حركتها دفعاً جديداً[2].

وإلىٰ جانب النقشبندية، لاقت الطريقة القادرية نجاحاً واسعاً بطابعها الشعبي، ودعوتها إلىٰ التصوف والتقشّف، وإليها يرجع الفضل في نشر الإسلام بين الأنغوش في نهاية القرن التاسع عشر.

وكان مريدوها يعارضون في بداية أمرهم كلّ عنف، لكنّهم ما لبثوا أن حملو السلاح ضدّ التسلّط الروسي، واعتقل زعيمها (كونت حجي)، وقُتل في سجنه سنة (١٨٦٧ م).

ولقد اشتركت القادرية والنقشبندية في الثورة الكبرىٰ، التي أدمت داغستان وبلاد الشاشان في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وقاست كلتاهما من القمع الشديد، واستطاع بعض الأتباع اللجوء إلىٰ الجبال

---

(١) ن.م ص ١٠.

(٢) المسلمون المنسيون ص ٢٠٠ وما بعدها.

العالية، وشنّ حرب المغاوير حتىٰ سنة ١٩٤٧ م. «ممّا دعا الروس أن يتّهموهم بأنّهم مسلمون متعصّبون. في حين أن المريدين، قاموا بما قاموا به، دفاعاً عن عقيدتهم ووطنهم وعرضهم وشرفهم»(١).

تجمع المصادر السوفيتية أَنَّ الجماعات الصوفية، منظّمات جماهيرية، قوية البنيان، وملتحمة بانضباط حديدي، وإطاعة مطلقة من المريدين إلىٰ أسيادهم، وهي ليست مجرّد تقشّفية منفصلة عن الدنيا، بل غدت ملاذ جميع المؤمنين المتصلبين، ويتمركز نشاطهم بوجه عام حول الأماكن المقدّسة، وهي قبور أولياء صوفيين، سقطوا شهداء في معاركهم وهم يقاتلون الغزاة الروس، وتوضح تلك المصادر أن الأماكن الصوفية المقدّسة، أشبه بطائر العنقاء الأسطوري يبعث من رماده حياً باستمرار(٢).

كما أنّ الإسلام المتوازي ـ غير الرسمي ـ المتمثل بالجماعات الصوفية، أشد حيوية ونفوذاً من الإسلام الرسمي بكثير(٣).

وإن المريدية حركة كفاح بطولي من أجل الحرية، تعززها اعتبارات سامية(٤).

وفي ضوء ما تقدم: يظهر بجلاء أَنَّ الأحداث الرهيبة، التي تعرَّض لها المسلمون في بقاع شتىٰ من العالم، ولا سيّما في إفريقية وفي الهند وفي روسية، فضلاً عن وطننا العربي، كان هؤلاء المجاهدون الصوفيون، النجوم الذين يُقتدىٰ بهم في ليل طويل حاولت قوىٰ الشر أن تسدله علىٰ عراقة هذه الأمة وعقيدتها وحضارتها.

---

(١) احتلال الروس للقفقاس ص ٥١٦.
(٢) المسلمون المنسيون ص ١٩٥، ٢٠٧.
(٣) ن.م ص ١٩٥.
(٤) احتلال الروس للقفقاس ص ٢٦١.



الشيخ شامل وأولاده



صورة نادرة تجمع بين الصوفيين الكبيرين الإمام شامل (جالس علىٰ كرسي) والأمير عبد القادر الجزائري (يقف خلفه).

Размер письма 14,6 x 8,4 см. На обороте письма (л. 11) печать - вписанная в овал 6-конечная звезда с именем Шамиля. Письмо не датировано.

(1) [بسم الله الرحمن الرحيم] (2) من امير المؤمنين شامل[1] (3)
الى احمد دب (4) سلاما دائما
(5) اما بعد فان تنظر الى هؤلاء (6) المهاجرين الى كسيات بعين الشفقة
والاعتبار (7) وتعين لهم بما تستطيعون (8) بقدر الطاقة في جميع الامور (9)

وقد قال سبحانه وتعالى ويؤثرون (10) على انفسهم ولو كان بهم خصاصة (11)
وقد امرنا بذلك سائر النواب والولاة (12) فهذا امرنا اليكم من صميم الفؤاد
... وسنلحق بكم ان شاء الله
تعالى [illegible] (12) من يهمك الله سبحانه* فلا تهنوا ولا تحزنوا (13) وانتم
الاعلون ان كنتم مؤمنين* [1]

(10) يوم الخميس ٢١ من ربيع الثاني [1] سنة ١٢٧٦
(11)* ثم وان تلقى عشرة رجال ينتقلون بعيالهم مع محمد من
اهالي چچان من مريديه فلا تتردد[2] عليهم
فالسلام* [3]

انموذج من رسائل الإمام شامل إلى أعوانه ومريديه، وهي مكتوبة بخط يده

الإمام سعيد النورسي (تركية)

وفي تركية، يتجلىٰ جهاد الإمام الصوفي بديع الزمان سعيد النورسي (١٨٧٣ـ١٩٥٨ م) في شتّىٰ صوره وأحواله. «جهاد مع النفس ورغباتها وشهواتها، وجهاد مع أعداء العقيدة بمؤامراتهم ومكائدهم، وجهاد مع أعداء الإسلام من المستعمرين والمستشرقين بطعونهم وشبهاتهم، وجهاد مع المتفرنجين في تغربهم. ثم الجهاد الأصغر أمام العدو في ساحات النضال، الذي أوصله إلىٰ الأسر القاسي المرير، حتىٰ قيّض الله له فرجاً»(١).

ومن المواقف المشهورة للنورسي، دعوته إلىٰ مهاجمة الجيوش الاستعمارية حين دخلت استانبول علىٰ أثر الحرب العالمية الأولىٰ، وكشف للأهالي خفايا دسائس الإنجليز، ومحاولتهم إفساد الحياة المعنوية لدىٰ المسلمين.

ومنها وقوفه بصلابة في وجه الاتّحاديين، الذين خطّطوا في سياساتهم لمحاربة كلّ مظاهر الدين الإسلامي، واللغة العربية.

وقد رفض النورسي دعوات عديدة من بلاد إسلامية للإقامة بها، حجّته في ذلك قوله: (إن الداء والفساد الذي دَبّ إلىٰ جسم العالم الإسلامي، إنّما نبع من هذا المكان بالذات، حيث الخطط الصهيونية، والمؤامرات الماسونية، ولا جدوىٰ في أيّ محاولة تكون بعيدة عن مكمن الداء)(٢).

وعن بداية سلوك النورسي طريق التصوف، يقول: إنّني قرأت كتاب (الغوث الشيخ الجيلاني) «فتوح الغيب» فجذبني قوله: أنت في دار الحكمة، فاطلب لك طبيباً. ففتح ذلك الكتاب عيني، وعمل في نفسي

---

(١) عجالة مقتطفة من حياة بديع الزمان ص ٣٩.
وانظر: اللمعات من رسائل النور ص ١٩٠ وما بعدها.

(٢) من الفكر والقلب ص ٢٦٩. د. سعيد رمضان البوطي.

عمليات جراحية شديدة، فاستمعت لورده ومناجاته فاستفضت كثيراً[١].

كان يرىٰ النورسي: أن المرور من الظاهر إلىٰ الحقيقة علىٰ وجهين:

أحدهما: أن يدخل الطريقة فيقطع المراتب بالسير والسلوك، **والوجه الثاني**: هو أن يمضي إلىٰ الحقيقة مباشرة.

لكنّه استدرك ذلك ليقول: إنّ هذا الطريق القصير العالي، خاصّ بالصحابة والتابعين[٢].

وعن غاية مقصد الطريقة يقول هذا العلاّمة المجاهد:

«انكشاف الحقائق الإيمانية والقرآنية، في نتيجة سير وسلوك روحاني، بقدم القلب، في ظل المعراج الأحمدي، وتحت فيئه، . . . وهي سرٌّ إنساني، وكمال بشري علوي، وإنّ مفتاحها الذكر والتفكر . . .».

ثم يقرّر النورسي:

«إنّ الولاية حجة للرسالة، والطريقة برهان للشريعة. ومع هذه الأهمية فقد ذهبت بعض الفرق الضالة إلىٰ جانب إنكاره، فصاروا سبباً لحرمان غيرهم من تلك الأنوار»[٣].

وبسؤاله عن أصل الطريقة وأورادها أجاب:

«إنّ رأس هذه الطرق المختلفة، ومنبع هذه الجداول، وشمس هذه السيارات، هو القرآن الكريم. . . وإذا كانت حدثت أمور جديدة من نوع أوراد الطريقة وأذكارها ومشاربها، لا تكون بدعة، وإن سمّاها بعضهم بدعة حسنة، بشرط أن لا تخالف أسس السنّة السنية».

ويتابع النورسي: (إنَّ الدليل علىٰ حسنات الطريقة، أنَّ أهلها يحفظون

---

(١) المكتوبات من رسائل النور ص ٤٦٢.
(٢) ن.م ص ٤٦٣.
(٣) ن.م ص ٥٨٤.

إيمانهم في زمن هجوم أهل الضلالة، فإنَّ مخلصاً عاديّاً صاحب طريقة، يحافظ علىٰ نفسه أكثر من متفنِّن صوري ظاهري، وينقذ إيمانه بواسطة ذوق تلك الطريقة، ومحبّة أولئك الأولياء.

وإنّ سلسلة من المشايخ الذين يقبلهم أقطاباً بحب شديد، واعتقاد متين، لا ينقضها أي قوة أصلاً. ومن لم يكن له حصّة في الطريقة، ولم ينهض قلبه إلىٰ الحركة، ولو كان عالماً محققاً، فقد أشكل أن يحافظ علىٰ نفسه تاماً)[١].

وأخيراً فاتنا أن نقول: إنّ سعيد النورسي عاش هذا العمر المديد من الجهاد المتواصل، بنظام شديد، من الورع والزهد والتقشف، حتىٰ أنّه كثيراً ما كان يقتات بالأعشاب حين لا يتوفر له القوت المطهّر من كل ريبة[٢].

إن حياة هذا البطل وغيره، تدلّ دلالة أكيدة علىٰ أنّ الحركات الفكرية والتجديدية في الإسلام، إنما كانت أثراً لأئمّة التصوف، وجهودهم الضخمة في النهوض بالمسلمين، وإنّه لمن الجحود الأعمىٰ والتعصب المقيت، أن ننكر هذا الأثر وذلك الجهد.



الإمام سعيد النورسي

(١) ن.م ص ٥٨٥.
(٢) من الفكر والقلب ص ٢٤٦.

١٥ـ عز الدين القسّام (فلسطين)

ونعود أدراجنا إلىٰ المشرق العربي، وإلىٰ أولىٰ القبلتين، وثالث الحرمين، ومعراج الرسول الكريم محمد ﷺ.

فأوّل من أطلق صيحة الجهاد مدوِّية في فلسطين علىٰ الاستعمار الإنجليزي، **الشيخ فرحان السعدي** (المولود سنة ١٨٥٨ م) الذي ينتهي إلىٰ عائلة السعدية الجيباوية الصوفية، ولكن سرعان ما أُلقي القبض عليه مع مريديه، فأعدمه الإنجليز وهو صائم[١].

وكان عمره ثمانين سنة.

ويعدّ رائد الكفاح في فلسطين في العصر الحديث، الشيخ:

محمد عزّ الدين القسّام (١٨٨٢ـ١٩٣٥ م).

والده الشيخ عبد القادر القسّام، كان من أعيان بلدة جبلة السورية، المشهور بتقواه وصلاحه، ومن المشتغلين بالتصوف[٢]، أرسل ابنه لمتابعة تعليمه العالي في الأزهر، وبعد إنهاء دراسته غادر القاهرة عائداً إلىٰ مدينته، إلاّ أنّه سرعان ما أدرك كما أدرك قبله الإمام الغزالي والإمام الشاذلي، أنّ الحقيقة لا تنقلها الكتب وحدها، فلا بد من التصوف، ولابدّ

---

(١) مجلة شؤون فلسطينية العدد ١٢٤ ص ٢٢ (آذار لعام ١٩٨٢) ورثىٰ الشاعر الفلسطيني عبد الكريم الكرمي الشيخ فرحان فقال:

قوموا اسمعوا من كل ناحية يصيح دم الشهيد
قوموا انظروا فرحان فوق جبينه أثر السجود
يمشي إلىٰ حبل الشهادة صائماً مشي الأسود

(٢) الوعي والثورة ص ٢٥ وجدير بالذكر أن جد عز الدين القسام قدم من العراق وهو من أصحاب الطريقة القادرية. انظر: (الشيخ عز الدين القسام رجل شريعة وحقيقة وجهاد ص ١٢).

من شيخ له قدم راسخة في الحياة الروحية، فوجد ضالّته ومبتغاه في أقرب الناس إليه، وهو والده، فسلك عليه طريق التربية الروحية، بهمّة عالية لا تلين، وإقبال علىٰ الله شديد. وقد «امتاز القسام منذ صغره بالميل إلىٰ الانفراد والعزلة، الأمر الذي سيؤثّر في مستقبله، وسيجعله أكثر قدرة علىٰ فهم ما يدور حوله من أحداث»[١].

وبعد وفاة والده، قام مقامه، وأصبح كما يترجم له صاحب الأعلام الشرقية: «شيخ الزاوية الشاذلية في جبلة الأدهمية»[٢].

وقد اعتكف في هذه الفترة علىٰ مطالعة كتب القوم، وإلىٰ التدريس والوعظ، وحُبِّب إلىٰ القلوب، ومال إليه الناس، وعند احتلال إيطالية لليبية، قاد مظاهرة طافت شوارع البلدة تندّد بالاستعمار الإيطالي.

وخلال الحرب العالمية الأولىٰ، كان القسام قد وثّق صِلاته بمشايخ الجبل، وأبرزهم المجاهد الكبير الشيخ صالح العلي ت (١٩٥٠ م).

ولمّا احتلّ الفرنسيون ساحل سورية، قاومهم بشدة، ونادىٰ في تلامذته ومريديه: بأنّ الجهاد أصبح واجباً. فأصدرت السلطات الفرنسية عليه حُكم الإعدام. فبقي متخفِّياً فترةً من الزمن، ثم هاجر سنة ١٩٢٠ م متوجهاً نحو فلسطين.

ولم يوقف هذا الشيخ الصوفي[٣] نضاله المقدّس، فأخذ يحثّ علىٰ الجهاد في جوامع فلسطين، وينبّه للخطر الصهيوني، ويوضّح أنّ جهاد النفس، مقدّم علىٰ جهاد العدوّ[٤].

---

(١) ن.م ص ٢٥.

(٢) ج ٢ ص ١٣٩. وسميت «جبلة الأدهمية» نسبةً إلىٰ الضريح الموجود فيها لقطب الزاهدين إبراهيم بن أدهم.

(٣) الشيخ عز الدين القسام رجل شريعة وحقيقة وجهاد ص ١٢.

(٤) ن.م ص ١٤٥.

وقد كان القسام يمزج وعظه الديني بأحاديث ومأثورات، تبيّن المكانة العظمىٰ للشهيد في الجنّة، وكذلك فإنّ الجهاد بالمال لا يقلّ أهمية عن الجهاد بالنّفس.

وحتىٰ يبرهن علىٰ صدق أقواله، «باع بيته الوحيد في حيفا، واشترىٰ بثمنه سلاحاً لمريديه المجاهدين»[1].

وتجدر الإشارة أنّ عز الدين القسام: «انفرد بتنظيم الاحتفال بعيد المولد النبوي في حيفا، علىٰ نحو خاص في إقامة الزينات»[2].

ونستخلص رأيه في الاجتماع علىٰ إنشاد الأشعار والمدائح النبوية، عندما ذكر ـ رحمه الله ـ جواب العلاّمة ابن حجر في هذه المسألة: «إذا كان فيه تشويق للتأسّي بأحوال الصالحين، والخروج عن النفس ورعونتها وحظوظها، والجدّ في التحلّي بمراقبة الحق في كل نفس، ثم الانتقال في شهوده في كل ذرَّة من ذرَّات الوجود. فكلّ المنشدين والسامعين مأجورون مثابون، إن صلحت نيّاتهم، وصفت سرائرهم. وأما إن كان بخلاف ذلك، فهم عاصون آثمون»[3].

واستشهد هذا البطل بعد حصار القوات الإنجليزية له ومن معه، في معركة استمرّت عدّة ساعات، وقد وُجد مع الشيخ بعد استشهاده دعاء كان يضعه في عمامته، وكأنّه يعلّم الناس أنّ الدعاء مقرون في الإسلام بالعمل. ترك القسام للأمة عشرات من الرجال المخلصين، قاموا بالدور الرئيسي في الثورة الكبرىٰ في فلسطين سنة ١٩٣٦ م.

---

(١) الإسلام وحركات التحرر العربية ص ٢٠٤.

(٢) عز الدين القسام ص ٤٥ علي حسين الخلف.

(٣) النقد والبيان ص ٥٥ للشيخان عز الدين القسام ومحمد كامل قصاب.
وقد نقد هذان الشيخان فيه بدع بعض أدعياء التصوف، مستدلّين بذلك من كلام علماء الصوفية المحققين فهما يقولان مثلاً: «قال الشيخ الأكبر قدس سرّه»، «قال العارف الخواص والعارف الشعراني والعارف بالله عبد الغني النابلسي...».



الشيخ الشهيد عز الدين القسام

١٦ـ جهاد أعلام الصوفية في سورية

وينتهي بنا المطاف في سورية، التي وقف فيها العلماء العاملون، ومعظمهم من الصوفية، أو من المعتقدين في التصوف، صفّاً واحداً في وجه الاستعمار الفرنسي.

وكيف لا يكون ذلك، والرسول الكريم ﷺ يقول: «أهل الشام سوط الله في أرضه»، ويقول أيضاً: «ألا إنّ عقر الإسلام بالشام». وجَعَلَ أهلها علىٰ الحق ظاهرين، لا يضرّهم من خذلهم[(١)].

وإذا كان محمد عبده هو الأب الروحي للثورة العرابية، فإنّ محدّث الديار الشاميّة، وأستاذ علماء الشام، ومعتقدهم:

محمد بدر الدين الحسني (١٨٥١ـ١٩٣٥ م)، يعدّ المفجّر الحقيقي للثورة السورية الكبرىٰ (١٩٢٥ـ١٩٢٧ م) وأصله من المغرب، من ذرّية الشيخ الجزولي، ولد في دمشق من أب قادريّ الطريقة. كان فقيهاً، زاهداً، عارفاً بالله، يغوص علىٰ مكنونات علم التصوف بدقّة، وعليه قرأ شيوخ المتصوفة في دمشق[(٢)].

جاء في الأعلام: أنّه كان (ورعاً، صوّاماً، بعيداً عن الدنيا. . .

---

(١) حديث «أهل الشام سوط الله في أرضه» صحيح، انظر: الجامع الصغير للسيوطي.
وانظر أحاديث فضل الشام في: تاريخ مدينة دمشق للحافظ ابن عساكر، ترغيب أهل الإسلام في سُكنىٰ الشام للعز بن عبد السلام، فضائل الشام للربعي المتوفىٰ ٤٤٤ هـ.
وحديث عقر دار الإسلام بالشام، خرجه النسائي في سننه، والإمام أحمد في مسنده.
وذكره نعيم بن حماد المتوفىٰ ٢٢٩ هـ في الفتن ص ١٥٠ وانظر: الترمذي رقم ٢١٩٢ فتن، أبو داود رقم ٢٤٨٣، وحديث «إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق لا يضرهم من خذلهم» أخرجه الترمذي وأحمد وابن ماجه وأبو نعيم.

(٢) تاريخ علماء دمشق ج ١ ص ٤٧٢.

ولمّا قامت الثورة على الاحتلال الفرنسي في سورية، كان الشيخ يطوف المدن السورية، متنقّلاً من بلدة إلىٰ أخرىٰ حاثّاً علىٰ الجهاد، وحاضّاً عليه، يقابل الثائرين، وينصح لهم بالخطط الحكيمة. فكان أباً روحياً للثورة والثائرين المجاهدين)[1].

وقد منع الناس من دفع الضرائب للفرنسيين، أو التعامل معهم، وصار يعلن أنّ الجهاد فرض علىٰ كلّ من يستطيع حمل السلاح. وكان كثير من الثوار ومن بينهم الشهيد حسن الخرّاط، يقابلونه فجر كل يوم، ويأخذون منه تعليمات الثورة[2].

كان ـ رحمه الله ـ بحراً في سائر الفنون، وكانت له في الجامع الأموي دروسٌ عامّة، وأخرىٰ خاصّة، قرأ فيها علىٰ مريديه: شرح إحياء علوم الدين، والرسالة القشيريّة، وشرح الحِكَم العطائية لابن عجيبة، ولطائف المنن للشعراني.

وله من التآليف: «الأنوار الجليّة في شرح بردة مديح سيّد البريّة» قال عنه مفتي الديار المصرية بخيت المطيعي عندما زاره في دمشق: «لو كان عندنا في مصر لحملوه علىٰ الأعناق، ولما تركوه يمشي علىٰ الأقدام».

وقد تميَّز ـ قُدِّست روحه ـ كغيره من الصوفية بالجود والسخاء، والزهد في متاع الدنيا، فلم يخلّف عند موته سوىٰ مكتبة عامرة في بيت متواضع.

وبوفاته فقد العالم الإسلامي عارفاً جليلاً، ومحدّثاً كبيراً، بقي أكثر من نصف قرن في حفظ كلام النَّبي ﷺ كما ذكرت الكلمات التي قيلت في حفل تأبينه.

---

(١) ج ٧ ص ١٥٧.
(٢) عالم الأمة وزاهد العصر بدر الدين الحسني ص ٢٩٢، تاريخ علماء دمشق ج ١ ص ٤٨١.



مُحدّث الديار الشامية الشيخ بدر الدين الحسني

وفي الواقع كان للمغاربة الوافدين إلىٰ دمشق أيادٍ مباركة في نشر العلم، وفي مقاومة الاحتلال الفرنسي، نذكر منهم الشيخ **محمد الشريف اليعقوبي** الشاذلي (الخلوتي) ت (١٩٤٣ م) الذي قاد كتيبة من الشبّان المغاربة في موقعة ميسلون[١].

(١) تاريخ علماء دمشق ج ٢ ص ٥٨٠.

وأفراد من أسرة الكتّاني الشريفة الضليعة في التصوف، **ومحمد بن يَلّس التلمساني الشاذلي** ت (١٩٢٧ م)، الذي قارع الفرنسيين، وكان مُرّاً عليهم رغم كبر سنه، ولذلك أودعته الشرطة الفرنسية في سجن القلعة[١].

وقد خلّف عدداً من المريدين من أبرزهم اثنان: **الشيخ محمد الهاشمي الشاذلي** (١٨٨٠-١٩٦١ م)، الذي كان يمضي جزءاً من وقته للتدريب على السلاح، لمقاومة العدوان مع ضعف جسمه، وكبر سنه[٢].

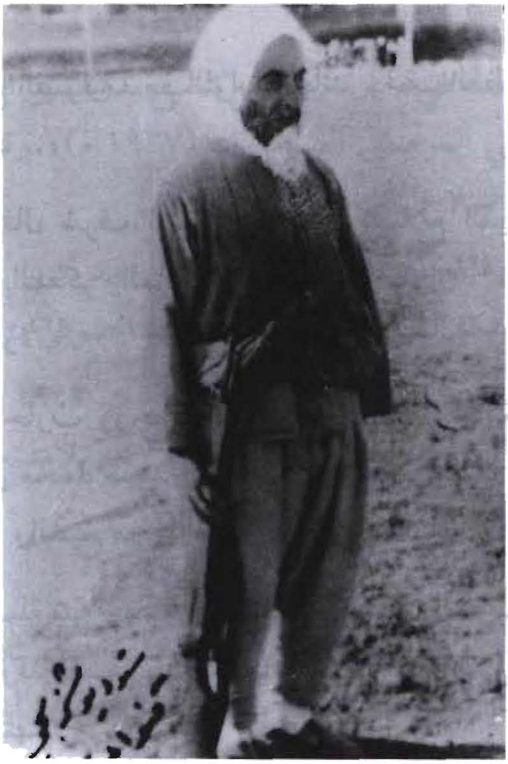
والشيخ **محمد صالح كيوان** ت (١٩٦٨ م)، الذي كانَ ينقل المؤن والذخائر للثوّار[٣]، ومنهم أيضاً: الأمير **عزّ الدين الجزائري** حفيد الأمير عبد القادر الجزائري، الذي دوَّخ الفرنسيين في منطقة الغوطة، قبل التضييق عليه وحصاره واستشهاده سنة (١٩٢٧ م)[٤].

وقد وجد المغاربة في سورية، وطنهم الثاني، فسُعدوا في إقامتهم بها، ولمسوا من أهلها كلّ حب واحترام.

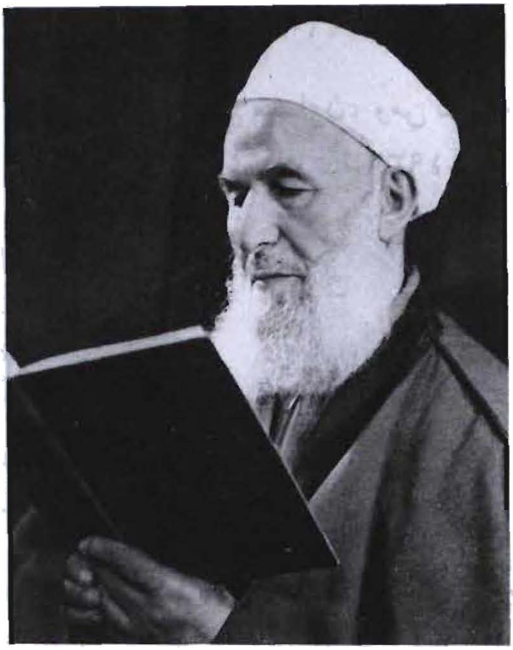
وكان قد شكّل مجلس رابطة علماء دمشق، برئاسة الشيخ: **محمد أبي الخير الميداني** (النقشبندي) (ت ١٩٦١ م) لجنة لبحث قضية الجزائر، والمذابح التي يقوم بها الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي[٥].

---

(١) ن.م ج ١ ص ٤٢٧.
(٢) حقائق عن التصوف ص ٦٢٢، تاريخ علماء دمشق ج ٢ ٧٤٩.
(٣) تاريخ علماء دمشق ج ٣ ص ٣٣٦.
(٤) انظر: الوثيقة رقم (٣٧٨) تاريخ ٢٢/ ٥/ ١٩٢٧. (مركز الوثائق التاريخية بدمشق).
(٥) تاريخ علماء دمشق ج ٢ ص ٧٢٦.



الشيخ محمد الهاشمي زعيم الطريقة الشاذلية يحمل السلاح



وأبرز تلاميذه الشيخ محمد سعيد البرهاني

وهبّ شيوخ الصوفية، مع الثوّار والقائد يوسف العَظمة إلىٰ ميسلون، للدفاع عن البلاد. .

فمنهم من نال شرف الشهادة هناك، **كصلاح الدين أبي الشامات (الشاذلي)**[1]، والمفكّر والعالم بالله **عبد القادر كيوان**[2]، والفقيه الصوفي **محمد توفيق الدرّة**[3].

ومنهم من حارب ورجع برضاء الله، نذكر: الجامع لعلوم الشريعة والحقيقة سيّدي **محمد سعيد البرهاني**[4]، شيخ الطريقة الشاذلية بدمشق (ت ١٩٦٧ م)، والشيخ **محمد صالح الخطيب** (القادري)[5].

وكان من جملة شيوخهم من نظَّم لمعركة ميسلون، **عبد القادر القصّاب** ت (١٩٤١ م) وقد ندب نفسه عندما قامت الثورة السورية، للدفاع عن النصارىٰ وحمايتهم[6].

ولا أظنّ أنّه يخفىٰ علىٰ أحد، الأعمال البطولية التي قام بها الشيخ: **محمد الأشمر** (النقشبندي)[7] (١٨٩٢ـ١٩٦٠ م).

وكان قد بدأ جهاده الدؤوب في ميسلون، ومن ثَمَّ تزعَّم فرقة الميدان، وقاد الثوّار في معارك الغوطة، وشارك سنة ١٩٣٦ م في ثورة فلسطين،

---

(١) الإسلام وحركات التحرر العربية ص ١٥٢.
(٢) ن.م ص ١٥١.
(٣) ن.م ص ١٥١.
(٤) الأعلام ج ٦ ص ١٤٥.
(٥) تاريخ علماء دمشق ج ٢ ص ٩٦٣.
(٦) انظر: الإسلام وحركات التحرر العربية ص ١٤٨، تاريخ علماء دمشق ج ١ ص ٥٣٩.
(٧) وقد سلك الطريقة النقشبندية علىٰ الشيخ أمين الزملكاني الكردي ت (١٩٢٧ م) انظر: تاريخ علماء دمشق ج ٢ ص ٧٣٠.

وقد كان علىٰ صلة في معاركه هذه مع الشيخ بدر الدين الحسني[١] والشيخ محمود الشيباني الموصلي الصوفي ت (١٩٣٧ م)، وقد أمدَّ هذا الأخير الثوّار بالمال والسلاح[٢].

وممَّن رافق المجاهد الأشمر في معاركه، وتردَّد بين دمشق وغوطتها، الشيخ حسن حَبنَّكة الميداني، الفقيه والواعظ الصوفي ت (١٩٧٨ م)[٣].

وللشيخ محمد علي الدقر (التيجاني) ت ١٩٤٣ اليد الطولىٰ في التحريض علىٰ مقاومة المستعمر الفرنسي، ومن تلامذته من لقي وجه ربه وهو شهيد.

ولْنصغ إليه وهو علىٰ منبر جامع السنانية بدمشق:

«يا إخواننا، اللصّ دخل الدار، وهو يطلب منكم ثلاثة أشياء: دينكم ومالكم وعرضكم»، وعندما سُئل من هو هذا اللصّ ؟ أجاب: إنّه فرنسة، وبتأثيره هبَّت دمشق وغوطتها[٤].



الشيخ محمد علي الدقر

---

(١) ن.م ج ١ ص ٤٨١.
(٢) ن.م ج ٣ ص ١٣٩.
(٣) ن.م ج ٣ ص ٣٩٧.
(٤) مذكرات المجاهد يونس خنشور (مركز الوثائق التاريخية بدمشق) وانظر: الإسلام وحركات التحرر العربية ص ١٤٦.

نماذج من صور مجاهدي صوفية دمشق



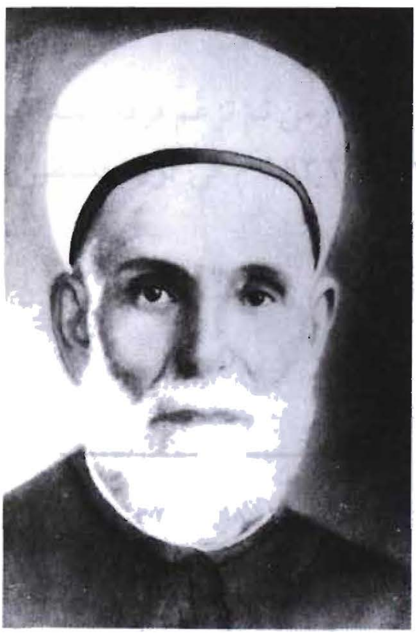
الشيخ أحمد الحارون



الشيخ محمد الأشمر



الشيخ أبو الخير الميداني



الشيخ محمد الشريف اليعقوبي



الشيخ حسن حبنكة



الشيخ عبد القادر قصاب



الشيخ مكي الكتاني



الشيخ إبراهيم الغلاييني

ونقرأ في كتب التراجم، عن أسماء كثير من المجاهدين منهم علىٰ سبيل المثال لا الحصر: شيخ مشايخ الصوفية **أمين سويد** ت (١٩٣٦ م)، من مجاهدي الغوطة[١]، وتلميذه العلاّمة العارف بالله **محمد صالح فرفور** ت ١٩٧٣ م الذي اشترك في الثورة علىٰ فرنسة بنفسه وماله، وقد نجا من الموت المحقق عدة مرات[٢]، ومنهم **محمد حجازي الكيلاني** (ت ١٩٤١ م)، وكانت له زاوية، صارت فيما بعد مركزاً لتجمع المجاهدين خلال الثورة السورية[٣]، **ومنهم محمد هاشم الخطيب** (القادري) ت (١٩٥٨ م) الذي صحب الشيخ بدر الدين الحسني، في رحلته للتهيئة للثورة والحثّ عليها[٤].

ولا يغرب عن بالنا من علماء الصوفية الذين خاطروا بأرواحهم، وأَمَدُّوا الثوّار بالمال والسلاح والدواء ليلاً، أمثال: الطبيب الشيخ **أبي اليسر عابدين** (النقشبندي) ت (١٩٨١ م)[٥]. والعارف بالله **أحمد الحارون** الرفاعي ت (١٩٦٢ م)، وقد شارك في إحدىٰ المعارك وجُرح[٦]، والشيخ المجاهد **سعيد الأحمر** ت (١٩٨١ م)، وهو من مشجّعي مجالس الذكر والصلاة علىٰ النّبي ﷺ في دمشق.

---

(١) الإسلام وحركات التحرر العربية ص ١٦٢.
(٢) الزاهر في الحديث العاطر ص ١١٠.
(٣) تاريخ علماء دمشق ج ١ ص ٥٥٠.
(٤) تاريخ علماء دمشق ج ٢ ص ٧١١. والشيخ هاشم من أصحاب الشيخ الصوفي توفيق سوقية ت (١٩٦١ م) والذي كان قاضياً في تدمر أيام الفرنسيين، ثم ما لبث أن ثار عليهم. انظر: تاريخ علماء دمشق ج ٣ ص ٢٩٦.
(٥) ن.م ج ٢ ص ٧٥٤.
(٦) إمام السالكين وشيخ المجاهدين أرسلان الدمشقي ص ١٧٧.



سماحة المفتي العام الأسبق الطبيب الشيخ محمد أبي اليسر عابدين ـ رحمه الله ـ
في زيارة للجبهة السورية عام ١٩٦٢م



الشيخ محمد صالح فرفور يتدرب على السلاح، وذلك مع إخوانه العلماء عام ١٩٥٦ م.

ولا ننسىٰ المجاهدين في مدنٍ سورية أخرىٰ، وفي طليعتهم علاّمة «حماة» في الفقه والتصوّف الشيخ **محمد الحامد** (النقشبندي) ت (١٩٦٩ م)، الذي كان أوّل من دعا إلىٰ تطهير البلاد من المستعمرين الفرنسيين، وله مجموعة خطب مكتوبة تحثّ علىٰ الثورة[١].

وغيره كثير لا يتّسع المجال لذكرهم هنا، سجّلوا بحروف من نور أمجاداً وبطولاتٍ، لابدّ للأجيال أن تعيها. .



بعض مشايخ صوفية دمشق يتدربون على السلاح للدفاع عن الدين والوطن والأمة.

* * *

(١) انظر: العلامة المجاهد محمد الحامد (سلسلة أعلام المسلمين).

الفصل العشرون

الخاتمة

وفي الختام نجمل الكلام:

بأنّ الفضل الأوّل في تكوين تلك الفئات يعود إلىٰ المدرسة الروحية الخالدة التي أنجبت القوّاد العِظام، والبارزين الأعلام، أمثال نور الدين وصلاح الدين والظاهر بيبرس وابن تومرت ومحمد الفاتح وعبد القادر الجزائري وعمر المختار وعثمان النيجيري وعمر السنغالي وشامل الداغستاني والخطّابي والقسّام وبدر الدين الحَسَني وأحمد بن عرفان الشهيد وغيرهم.

وقفنا من خلال عرضهم التاريخي، علىٰ نماذج رائعة، من التجرّد والتفاني والإخلاص والربّانية، وعلىٰ صور روحية قتالية، ومُثُل عليا صادقة، لعلّ أقلّ ما تُوصف به، أنّها تصلح قدوة وأسوة حسنة، لو دأب أبناء هذا الجيل علىٰ دوام النظر فيها.

إنّهم علىٰ كلّ حال، ورثة تلك النماذج من السلف الصالح، أمثال خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وسواهم.

ويرحم الله الإمام البوصيريّ القائل فيهم:

همُ الجبالُ فَسَلْ عنهم مصادمَهم ماذا رأىٰ منهمُ في كلِّ مُصطدمِ

هؤلاء جميعاً، لم يكن جهادهم بالمال والروح في ساحات القتال، إلا

فروعاً لشجرة هذا الجهاد الأساسي للنفس، بصقلها وتطهيرها من أدرانها، لحملها علىٰ الجهاد الأوّل الذي أشرنا إليه.

وهؤلاء نصروا الله في ذوات أنفسهم، بمجاهدة الشيطان والهوىٰ، فنصرهم الله في معاركهم وحروبهم، وثبّت أقدامهم.

وبعدُ... إنّنا اليوم بحاجة ماسّة إلىٰ إعادة كتابة تاريخ أبطالنا، والتركيز علىٰ الناحية الروحية، التي فجَّرت فيهم طاقات عظيمة، قلّما نجد لها مكاناً في النفوس الضعيفة، ممّن فاتتهم هذه التربية، وهذا التوجيه الديني القويم، من أولئك الذين عمّروا دنياهم بالشهوات، وخرَّبوا آخرتهم بالهوىٰ المتبع، فكرهوا الانتقال من العمران إلىٰ الخراب.

ونحن اليوم بحاجة ـ كما يقول أحد الباحثين ـ إلىٰ معركة نفسيّة، روحيّة، تاريخيّة، تُخاض مع الداخل، لم يسبق لها مثيل في تاريخنا المعاصر، لأنّ عدوّ الداخل أشرس بألف مرة من عدوُّ الخارج والانتصار عليه أصعب[١].

وفي نفس السياق يذكر الدكتور سعيد رمضان البوطي:

أنَّ الخطر الأكبر والرهيب في حياة المسلمين، ليس العدو الداهم الديار، إنّه نفوسنا التي بين جنبَيْنا، فكيف يتحقّق نصر المسلمين، إذا كانت ألسنتهم وأقوالهم في واد من الدعاوي والشعارات، ونفوسهم تائهَة في واد آخر من التنافس علىٰ الدنيا والتسابق إلىٰ أهوائها[٢].

إنَّ التاريخ لَيشهد أنّه عندما تمسَّك المسلمون بروح الإسلام، ترقّوا وعزّوا، وكانت لهم الغَلَبة، والمكانة المهيبة بين الأمم.

فهكذا كان الصحابة، وهكذا كان التابعون، وهكذا كان الأبطال صفّاً

---

(١) انظر: مجلة الوحدة (المغربية) عدد خاص عن العرب والتنوير العدد ٨١ لعام ١٩٩١ ص ١٢ وما بعدها.

(٢) باطن الإثم ص ٤٥.

واحداً، وإيماناً مضيئاً، وجهاداً متتابعاً، ونهجاً روحياً واضحاً، لا يعرف الجدل والفرقة والانقسام.

وإذا علمنا أنَّ الدعوة الصريحة إلىٰ معاداة التصوف ورجاله، ورمي أهله بالبدع، وبألفاظ ما أنزل الله بها من سلطان، وليدة العصر الحديث، أدركنا زيف وبطلان من نادىٰ بهذه الدعوة، وهم قرناء الشيطان وحلفاء الخسران، لأنّ الطائفة الظاهرة علىٰ الحق، والتي أخبر عنها الرسول الكريم ﷺ، لم تنكر علىٰ المسلمين عقائدهم خلال القرون الإسلامية المتتالية.

وإنَّ ما ظهر لنا نحن الضعفاء، لم يكن ليخفىٰ علىٰ المجتهدين والعلماء الأكفياء(١).

والطامّة الكبرىٰ أنَّ فريقاً من أعداء الروح الإسلامية، يتستّرون تحت غطاء الكتاب والسنّة، ويحرّفون الكَلِمَ عن مواضعه، بينما الحقائق القرآنية، وكلام الرسول ﷺ براء منهم ـ مقارنة مع أفعالهم ـ براءةَ الذئب من دم يوسف.

ولنا بعد ذلك أن نتعجّب من بعض أولئك المتشدّقين، المتّخذين من جهالتهم أو تجاهلهم، سبيلاً للدسّ علىٰ إخوانهم في الدين والوطن. خادمين بذلك الدوائر الاستشراقية، التي تبنَّاها الاستعمار والتي تهدف بالأساس ـ عن طريق توجّه مدروس ومحكوم ـ إلىٰ إنكار المقوّمات الروحية في ماضي هذه الأمّة، محاولاً بذلك استئصال تراثها وتاريخها وعقيدتها.

---

(١) لو كان عند أعلام الصوفية أدنىٰ عوج ـ كما يزعم البعض ـ لم يثنِ عليهم معاصروهم من الأئمة المشهورين، ممن عرفوا بأنّهم لا يخافون في الله لومة لائم، كالإمام أحمد في ثنائه علىٰ معروف الكرخي، وأبي تراب النخشبي، والسري السقطي، وأبي حمزة الصوفي. وكذلك ثناء العز بن عبد السلام علىٰ أبي الحسن الشاذلي، ومحيي الدين بن عربي، والشهاب السهروردي صاحب (عوارف المعارف).

ليلفت الانتباه عن روح الإسلام، إلىٰ الغلوّ والتطرّف والتفرقة، جرياً علىٰ قاعدة استعمارية معروفة: «فرِّق تسدْ».

كلّ ذلك بأساليب خبيثة ماكرة.

حتىٰ وصل به الأمر إلىٰ تحريف كلمة الجهاد، يبغي من وراء ذلك إشعال نيران الفتنة، وأن يقاتل بعضنا بعضاً، وأن تسود دوماً روح النزاع والتضليل والتكفير والتشريك، بين أبناء الدين والوطن الواحد.

والحقّ أنَّ الاستعمار الغربي في بلاد المسلمين، لم يُحدِث من الخراب في الأرض وفي الأجسام، ما أحدثه في القلوب والأرواح والأفهام.

فقد أصبح المسلمون، بما تسرَّب إلىٰ بواطنهم، يجهلون أنفسهم، ولا يعرفون من حقيقة أمرهم شيئاً.

وقد تبيَّن لنا من سَرْد ما تقدَّم في طيَّات هذا الكتاب، كيف عمد بعض الدعاة، إلىٰ تشويه ناحية مهمّة في ميدان التصوف، فيما يَعْسُر فهم ذلك، علىٰ غير المطّلع المتضلع في دراسة هذا العلم، والإحاطة به.

هذا الميدان الذي صال وجال فيه كثير من الكتَّاب المحدَثين، عرب ومستشرقون، لهو دليل مقنع، علىٰ وجوب بذل الجهود الممكنة، لتلافي أيّ تشويه في التعاليم الصوفية والكشف عن جوانبه المضيئة بصورة صحيحة، كما يقول الدكتور سيّد حسين نصر[١].

إنّ فهم التصوف اليوم يتطلب دراسة تاريخية للحياة الروحية الإسلامية، وذلك بالرجوع إلىٰ المصادر الأساسية، بعيداً عن المؤلّفات التي طالعنا بها العصر الحديث، فجاء أغلبها استشراقاً، بعيداً عن الواقع والحقيقة.

---

(١) الصوفية بين الأمس واليوم ص ١٥.

إذ ليس التصوف خمولاً ولا انهزاماً ولا سلبية كما ادّعوا، وليس التصوف تواكلاً وتقاعساً وهواناً كما زعموا، وليس التصوف علوماً دخيلة، وسَبحاً فلسفياً كما أرادوا.

بل التصوف قوّة وبأس ونضال، ونفس ملهمة عاملة، إنّه تصعيد بالحياة إلىٰ أعلىٰ، وارتفاع بالقيم الإنسانية إلىٰ ماهو أرفع وأسمىٰ.

علىٰ أنّنا نغترّ بزينة الحياة الدنيا، وبريقها الزائف، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فمن أعمىٰ الله بصيرته، أنساه عيب نفسه، وسلّطه علىٰ الصالحين من عباده.

ومع هذه البراهين القاطعة، والحجج الساطعة، حصحص الحقّ، وظهر الدليل، وزهق الباطل، ووضح السبيل.

وبعد ذلك فلابدّ من وجود راغب ومعتبر، ومتأمّل ومستبصر، مع وجود من قال فيهم الشاعر:

لقد أسمعتَ لو ناديت حيّاً ولكنْ لا حياة لمن تُنادي

ولو اقتصر الأمر علىٰ ما ذكر الشاعر لهانت المصيبة، ولكن كما قال الإمام أبو حامد الغزالي: إنّهم كصخرة في فم واد، فلا هي شربت، ولا تركت الماء يصل إلىٰ الزرع.

فيا أيّها المكابر، انزل عن مركبك العالي، فماذا بعد الحقّ إلا الضلالِ(١)، ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣].

---

(١) قال الغزالي رضي الله عنه في فيصل التفرقة ص ٣٥: «اعلم أن الحق والضلال وسرهما، لا ينجلي للقلوب المدنسة بطلب الجاه والمال وحبهما، بل ينكشف دون ذلك: لقلوب طهرت عن وسخ أضرار الدنيا، ثم صقلت بالرياضة الكاملة، ثم نورت بالذكر الصافي، ثم غذيت بالفكر الصائب، ثم زينت بملازمة حدود الشرع. حتىٰ أفاض عليها من مشكاة النبوة، وصارت كأنها مرآة مجلوة. . .».

ودع عنك الملحدين في أقوالهم، المزخرفين لطلاب الدنيا خرافات جدالهم، ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وتذكّرْ قول الرسول ﷺ: «الكِبْر بطر الحق»[١] أي عدم الانقياد للحقّ الذي كان عليه سلف هذه الأمّة، وأولياؤها الصالحون، وعلماؤها العاملون، وأبطالها الميامين[٢].

وقد حذَّرنا سبحانه وتعالىٰ، ونبيّه الكريم، من اتّباع غير سبيل المؤمنين، فقال عزَّ شأنه: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] وقال أيضاً: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وثبت عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «إن الله لا يجمع هذه الأمة علىٰ ضلالة»[٣]. وقال أيضاً: «ثلاث مهلكات: شحّ مطاع، وهوىً متّبع، وإعجاب كلّ ذي رأي برأيه»[٤].

وقد أجاد الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ في وصف هذه الفئة المؤمنة:

إنَّ لله عبــــــاداً فُطنــــــا ... طلَّقــوا الــدنيـا وخـافـوا الفتنـا
نظـــروا فيهـــا فلمّـــا علمـــوا ... أنّهـــا ليســـت لحـــي سَكنـــا
جعلـــوهـــا لجّـــة واتّخـــذوا ... صـالــحَ الأعمـال فيهـا سُفنـا

---

(١) الجامع الصغير، حديث رقم ٦٤٥٣.

(٢) قال الفقيه الحنفي الحصفكي في الدر المختار ج ١ ص ٤٣، بعدما أورد أن الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه كان صاحب العلم والطريقة:

«فيا عجباً لك يا أخي، ألم يكن لك أسوة حسنة في هؤلاء السادات الكبار، أكانوا متّهمين في هذا القرار والافتخار، وهم أئمة هذه الطريقة، وأرباب الشريعة والحقيقة، ومن بعدهم في هذا الأمر فلهم تبع، وكل ما خالف ما اعتمدوه مردود مبتدع».

(٣) الحديث أخرجه مسلم.

(٤) رواه الترمذي والنسائي.

ويكفيهم ثناء المولىٰ عز وجل: ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

هؤلاء المجاهدون، قد مرَّت الأحقاب، وتتابعت القرون، ومصابيح عظماء الأرض، وملوك المال، تنطفىء مصباحاً بعد مصباح، وبقيت مصابيح المجاهدين وحدها تتّقد، وترسل النور، وتبعث الهدىٰ، لأنها مصابيح لله وبالله، وحسبهم أنّهم إذا ذُكِرُوا ذُكِرَ الله، وتلك سمة الخالدين.

وأخيراً يمكن أن نقول:

إنَّ التصوف جزء هامّ من الأجزاء التي تألّف منها تراثنا وعقيدتنا، خضع كما خضع غيره من مظاهر الحياة الإسلامية لعوامل النشوء والارتقاء، ولمقتضيات التراجع والانحطاط. علىٰ أنَّ هذا لا يعني أنّ الحياة الروحية الإسلامية، لم تعدم بعض النفوس الصافية، والقلوب الطاهرة، التي كانت وما تزال تظهر من حين إلىٰ حين.

لكن وإن كمل إيمان هؤلاء الأفراد، وصحَّ يقينهم وإخلاصهم، فإنّ ذلك لا يكفي في تحصيل الأثر العام، الذي ينبغي أن تكتسبه الأمّة بمجموعها، من إسلام حي، نتيجته الطبيعية السيادة والعزّة والكرامة.

ومهما يكن من أمر، فإنّ هذا البحث، يفتح آفاقاً جديدة، ويحتاج إلىٰ دراسة واسعة، لأنّ مثل هذه الدراسة، لن تعمّق فهمنا واحترامنا لروح ديننا الحنيف، وأصالة تراثنا فحسب، ولكنّها سوف تعمّق وعينا بأنفسنا، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وهذا مطلب بالغ الأهمية في هذه المرحلة من تاريخنا.

والآن نختم كتابنا هذا، بكلام لأحمد الشرباصي، المدرّس في الأزهر الشريف:

(هذا هو التصوف الجليل النبيل، أضاعه أهله، وحاف عليه أعداؤه

الصرحاء، وشوّه جماله أدعياؤه الخبثاء، علىٰ الرغم من عِظَم رجاله الماضين وأبطاله. وقد تطاول عليه بالتحريف، قومٌ نَكِلُ حسابَهم إلىٰ الله. وقد علّمتنا التجارب والدراسات، أنَّ الحقَّ إذا لم يجد أهلاً، ولم يفز بمؤيّد أو مستجيب، انطوىٰ وتوارىٰ، حتىٰ يهيّىء الله له من يذكر به. . .

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

يا أبناء الإسلام: إنّ التصوف يحتلّ من أخلاقكم وتاريخكم جانباً كبيراً، وقد ضيّعتموه، فحسبُكم ما كان، وأقبلوا علىٰ التصوف ففيه غذاء ودواء والله الهادي إلىٰ سواء السبيل).

تمّ الفراغ من هذا الكتاب في آواخر شهر رمضان المبارك سنة (١٤١٥) من الهجرة النبوية الشريفة.

اللهم اكشف حجاب الغفلة عن قلوبنا، وأخرجنا من ظلمات أنفسنا، ووفقنا لما تحبّ وترضىٰ، واعصمنا من فتن الدنيا، وثبّتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، واحشرنا في زمرة أوليائك المتّقين، تحت لواء سيّد المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

* * *

المصادر والمراجع

أ

- ابن عربي: لآسين بلاثيوس. (ترجمة عبد الرحمن بدوي، بيروت ١٩٧٩).
- أبو الحسن الشاذلي الصوفي المجاهد والعارف بالله: لعبد الحليم محمود. (القاهرة ١٩٦٧).
- أبو يزيد البسطامي: لعبد الحليم محمود. (بيروت د. ت).
- إجازة الشيخ ابن عربي للملك المظفر: لابن عربي. (مخطوط رقم ٦٢٨٤، مكتبة الأسد).
- احتلال الروس للقفقاس: لجون باديلي. (ترجمة صادق عودة، عمان ١٩٨٧).
- أحداث التاريخ الإسلامي بحسب ترتيب السنين: لعبد السلام الترمانيني. (دمشق ١٩٨٨).
- أحمد عرابي الزعيم المفترى عليه: لمحمود الخفيف (مصر ١٩٤٧).
- أحمد بن عرفان الإمام المجاهد الشهيد: لسعيد الأعظمي (دمشق ١٩٧٨).
- أحمد الفاروقي السهرندي: لأحمد محمد عبد الوهاب. (رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة الأزهر ١٩٨٨).
- إحياء علوم الدين: للغزالي. (دار الفكر، دمشق ١٩٩٤).
- إحياء المقبور من أدلة جواز البناء على القبور: لأحمد بن صدّيق الغماري. (دار التأليف، مصر د. ت).
- أخبار الدول وآثار الأول: لأحمد بن يوسف القرماني (طبع على هامش الكامل في التاريخ، بغداد ١٨٦٥ م).
- أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين: للصنهاجي. (الجزائر ١٩٧٤).
- أدب الزهد في العصر العباسي: لعبد الستار السيد متولي. (مصر ١٩٨٤).
- إذا هبت ريح الإيمان: لأبي الحسن الندوي (بيروت ١٩٩٢).
- الإستقصا لأخبار المغرب الأقصىٰ: لأحمد الناصري السلاوي. (الدار البيضاء ١٩٥٤).

ـ الإسلام الحي: لأحمد زكي أبو شادي (القاهرة ١٩٥٥).
ـ الإسلام والثقافة العربية في مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب: لأنور جندي (ط الرسالة، مصر د.ت).
ـ الإسلام وحركات التحرر العربية: لشوقي أبو خليل. (دمشق ١٩٧٦).
ـ الإشارات إلى معرفة الزيارات: للهروي. (دمشق ١٩٥٣).
ـ الإصلاح والنهضة: لمحمد كامل الخطيب (دمشق ١٩٩٢).
ـ أضواء على الطرق الصوفية في القارة الإفريقية: لعبد الله عبد الرزاق إبراهيم (القاهرة ١٩٨٩).
ـ إعانة الطالبين: للدمياطي (بيروت ١٩٣٧).
ـ أعز ما يطلب: لمحمد بن تومرت (ت عمار طالبي، الجزائر ١٩٨٥).
ـ الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة: لعز الدين بن شداد (دمشق ١٩٧٨).
ـ الأعلام: لخير الدين الزركلي (بيروت ١٩٨٩).
ـ الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام: لعباس المراكشي (الرباط د.ت).
ـ الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية: لزكي محمد مجاهد (مصر ١٩٤٩).
ـ الأعمال الكاملة: لمحمد عبدة (ج٣ في الإصلاح الفكري والتربوي والإلهيات، بيروت ١٩٧٢).
ـ إمام السالكين وشيخ المجاهدين أرسلان الدمشقي: لعزة حصرية (دمشق ١٩٦٥).
ـ الإمام الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لوفاته: (بحوث ومقالات، جامعة قطر ١٩٨٦).
ـ الأمير محمد عبد الكريم الخطابي بطل الشمال الإفريقي: لمحمد عبد المنعم المحامي ومحمد عبد الوارث الصوفي (القاهرة ١٩٥٨).
ـ انتشار الإسلام بين المغول: لرجب محمد عبد الحليم (ط دار النهضة، مصر د.ت).
ـ الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام: لعلي أحمد (دمشق ١٩٨٩).
ـ الأنس الجليل في رحلة القدس والخليل: لمجير الدين الحنبلي (عمان د.ت).
ـ الأنوار القدسية في مقدمة الطرقية السنوسية: لأحمد الشريف السنوسي (استانبول ١٣٤٢ هـ).

ب

- باطن الإثم الخطر الأكبر في حياة المسلمين: لمحمد سعيد رمضان البوطي (ط الفارابي، دمشق د.ت).
- بدائع الزهور في وقائع الدهور: لابن إياس الحنفي (القاهرة ١٩٨٢).
- البداية والنهاية في التاريخ: لابن كثير (بيروت ١٩٦٦).
- البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع: للشوكاني (القاهرة ١٣٤٨ هـ).
- بطولات من أرض القفقاس: لعوني عبيدي (عمان ١٩٩٤).

بغية الطلب في تاريخ حلب: لابن العديم (دمشق ١٩٨٨).

- بيان الجهاد لأهل الوداد: لعبد الغني النابلسي (مخطوط رقم ٤٠٠٨، مكتبة الأسد).
- البيان والتبيين: للجاحظ (القاهرة ١٩٤٨). (القاهرة ١٩٥٦).

ت

- التاج المكلل من مآثر الطراز الآخر والأول: لصدّيق القنوجي (بيروت ١٩٨٣).
- تاريخ الإسلام في الهند: لعبد المنعم نمر (بيروت ١٩٨١).
- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية: لابن الأثير (القاهرة ١٩٦٣).
- تاريخ بغداد: للخطيب البغدادي (ط دار الكتب العلمية، بيروت د.ت).
- تاريخ دمشق: لابن عساكر (المجلد ٤٣، دمشق ١٩٩٣).
- تاريخ السودان الحديث: لضرار صالح ضرار (بيروت ١٩٦٨).
- التاريخ العثماني: لحكمة قفلجملي (ترجمة فاضل لقمان، دمشق ١٩٨٧).
- تاريخ علماء دمشق: لمطيع الحافظ ونزار أباظة (دمشق ١٩٨٦).
- التاريخ الكبير: لابن عساكر (دمشق ١٣٠٣ هـ).
- تاريخ المغرب الحديث والمعاصر: لمحمد خير فارس (دمشق ١٩٨٢).
- تاريخ الملك الظاهر: لعز الدين بن شداد (الرياض ١٩٨٣).
- تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية: للسيوطي (مصر ١٩٣٤).
- تتمة المختصر في أخبار البشر: لابن الوردي (بيروت ١٩٧٠).
- تجديد الفكر الديني في الإسلام: لمحمد اقبال (مصر ١٩٦٨).
- تحفة ذوي الألباب فيمن ولي دمشق من الملوك والنواب: للصفدي (دمشق ١٩٩١).

ـ تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر: لمحمد عبد القادر الجزائري (الاسكندرية ١٩٠٣).
ـ التذكرة الأيوبية: لموسى بن يونس الأنصاري (مخطوط رقم ٧٨١٤، مكتبة الأسد).
ـ التراث الروحي للتصوف الإسلامي في مصر: لمحمد عبد المنعم خفاجي. (مصر ١٩٦٧).
ـ تراجم رجال القرنين السادس والسابع: لأبي شامة (ويعرف بالذيل على الروضتين، بيروت ١٩٧٤).
ـ تربية الأولاد في الإسلام: لعبد الله ناصح علوان (بيروت ١٩٨١).
ـ ترجمة ابن عربي من كلامه: جمع محمود غراب. (دمشق ١٩٨٣).
ـ ترجمة الشيخ رسلان: للذهبي (مخطوط رقم ٤١٣٤، مكتبة الأسد).
ـ الترخيص بالقيام لذوي الفضل والمزية من أهل الإسلام، للنووي (دمشق ١٩٨٢).
ـ ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام: للعز بن عبد السلام (دمشق ١٩٩٢).
ـ ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب: للمرتضى الزبيدي (دمشق ١٩٧١).
ـ التشوف إلى رجال التصوف: لابن الزيات التالدي (الرباط ١٩٨٤).
ـ التصوف الإسلامي الثورة الروحية في الإسلام: لأبي العلا عفيفي (القاهرة ١٩٦٣).
ـ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق: لزكي مبارك (القاهرة ١٩٥٤).
ـ التصوف الإسلامي منهجاً وسلوكاً: لعبد الرحمن عميرة. (القاهرة ١٩٨٢).
ـ التصوف العربي الإسلامي: لعبد اللطيف الطيباوي. (بيروت ١٩٢٨).
ـ التصوف عند ابن سينا: لعبد الحليم محمود (دار العروبة، القاهرة د.ت).
ـ التعرف لمذهب أهل التصوف: للكلاباذي (بيروت ١٩٩٣).
ـ تعريف الخلف برجال السلف: لأبي القاسم الحفناوي. (الجزائر ١٩٠٦).
ـ تهذيب الأسماء واللغات: للنووي (دار الكتب العلمية، بيروت د.ت).
ـ تهذيب تاريخ دمشق: لعبد القادر بدران (بيروت ١٩٧٩).

ث

ـ ثورة الأوراس ١٨٧٩ م: لعبد الحميد زوزو (الجزائر ١٩٨٦).
ـ ثورة المقراني: للزبير سيف الإسلام (الجزائر ١٩٨٥).

ج

ـ الجهاد الإسلامي في غرب إفريقية: لأحمد محمد كاني. (القاهرة ١٩٨٧).

ـ الجهاد في التفكير الإسلامي: لأحمد شلبي (القاهرة ١٩٦٨).
ـ جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقية ضد الاستعمار الفرنسي: لإلهام ذهني (الرياض ١٩٨٨).
ـ الجواهر السنية والكرامات الأحمدية: لعبد الصمد المصري (طبع على الحجر، مصر ١٢٧٧ هـ).
ـ الجواهر المضية في طبقات الحنفية: لعبد القادر القرشي (حيدراباد ـ الهند ١٣٣٢ هـ).

ح

ـ حاضر العالم الإسلامي: للوثروب ستودارد (تعليق شكيب أرسلان، القاهرة ١٣٥٢ هـ).
ـ الحدائق الوردية في أجلاء السادة النقشبندية: لمحمد الخاني (دمشق ١٣٠٦ هـ).
ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة: للسيوطي (مصر ١٩٦٧).
ـ الحركة الصوفية في الإسلام: لمحمد علي أبو ريان (القاهرة د. ت).
ـ الحركة الوطنية الجزائرية: لأبي القاسم سعد الله (بيروت ١٩٩٢).
ـ حضارة الإسلام وحضارة أوربة في إفريقية الغربية: لنعيم قداح (دمشق ١٩٦٥).
ـ حقائق عن التصوف: لعبد القادر عيسى (دمشق ١٩٩٣).
ـ حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي: لمحمد رجب النجار (سلسلة عالم المعرفة الكويتية ٤٥).
ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: لأبي نعيم الأصبهاني. (بيروت ١٩٨٥).
ـ حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر: لعبد الرزاق البيطار (دمشق ١٩٦٣).
ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة: لابن الفوطي (بيروت ١٩٨٧).
ـ الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام: لأمينة بيطار (دمشق ١٩٨٠).

د

ـ دراسات في تاريخ إفريقية الغربية: لعبد الكريم غرايبة (دمشق ١٩٦٠).
ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: لابن حجر العسقلاني (القاهرة ١٩١٦).
ـ الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب: لابن الشحنة (دمشق ١٩٨٤).
ـ الدعوة إلى الإسلام: لسير توماس أرنولد (مصر ١٩٧١).

ـ ديوان خطب ابن نباته: شرح: طاهر الجزائري (بيروت ١٨٩٣).

ذ

ـ ذيل مرآة الزمان: لليونيني (حيدر آباد ـ الهند ١٩٥٥).

ر

ـ ربانية لا رهبانية: لأبي الحسن الندوي (بيروت ١٩٧٨).
ـ رجال الفكر والدعوة في الإسلام: لأبي الحسن الندوي (الكويت ١٩٧٤).
ـ رجال ومواقف تحت راية الإسلام: لبسام العسلي (دمشق ١٩٨٣).
ـ رحلة ابن بطوطة: لمحمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة (بيروت ١٩٧٨).
ـ رحلة ابن جبير: لابن جبير الكناني (دار صادر، بيروت د. ت).
ـ رسالة باسم الملك الناصر (في الدفاع عن ابن عربي): للفيروزأبادي (صاحب القاموس) (مخطوط رقم ١٣٤٦، مكتبة الأسد).
ـ الرسالة القشيرية في علم التصوف: للقشيري (القاهرة د. ت).
ـ روح القدس في محاسبة النفس: لابن عربي (دمشق ١٩٨٥).
ـ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: لأبي شامة (دار الجيل، بيروت د. ت).
ـ روض الرياحين في حكايات الصالحين: لليافعي (المطبعة الإبراهيمية، مصر د. ت).
ـ الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر: لابن عبد الظاهر (الرياض ١٩٧٦).
ـ روض المناظر في أخبار الأوائل والأواخر: لابن الشحنة (طبع على هامش الكامل في التاريخ، مصر ١٣٠٣ هـ).
ـ رياض الجنة أو معجم الشيوخ: لأبي الحسين الصيداوي (طرابلس، لبنان ١٩٨٧).

ز

ـ الزاهر في الحديث العاطر عن الوالد الفاخر: لمحمد عبد اللطيف فرفور (دمشق ١٩٨٧).
ـ الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي: لمحمد حجي (رسالة دبلوم، الدار البيضاء ١٩٨٨).
ـ الزهد: لأحمد بن حنبل (دار الدعوة، الاسكندرية ١٩٨٧).

ـ زهد الثمانية من التابعين: لابن أبي حاتم (إدارة البحوث الإسلامية، بنارس ـ الهند د. ت).
ـ الزيارات أو زيارات الشام: لابن الحوراني (دمشق ١٩٨١).

س

ـ السلطان محمد الفاتح: لمحمد مصطفى صفوت (القاهرة ١٩٤٨).
ـ سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر: للمرادي (مصر ١٣٠١ هـ).
ـ سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي: للمكي (القاهرة ١٣٨٠ هـ).
ـ سنا البرق الشامي: للفتح بن علي البنداري (بيروت ١٩٧١).
ـ السنوسية دين ودولة: لمحمد فؤاد شكري (مصر ١٩٤٨).
ـ سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام والجزيرة: لعبد القادر نوري (بغداد ١٩٧٦).
ـ سير أعلام النبلاء: للذهبي (بيروت ١٩٨٦).
ـ سيرة الغزالي وأقوال المتقدمين فيه: لعبد الكريم عثمان (دمشق د. ت).

ش

ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: لمحمد بن محمد مخلوف (مصر ١٣٤٩ هـ).
ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: لابن العماد الحنبلي (طبعات متعددة).
ـ شرح حديث النزول: لابن تيمية (بيروت ١٩٧٧).
ـ شرفنامة: للبدليسي (مترجم عن الفارسية، بيروت ١٩٨٧).
ـ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب: لأحمد بن إبراهيم الحنبلي (العراق ١٩٧٨).
ـ الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية: لطاش كبرى زاده (بيروت ١٩٧٥).
ـ الشيخ عز الدين القسام رجل شريعة وحقيقة وجهاد: لأحمد حمزة عبد الباقي وأمينة أحمد يحيى (عمان ١٩٩٤).

ص

ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا: للقلقشندي. (بيروت ١٩٨٧).
ـ صفة الصفوة: لابن الجوزي (طبعات متعددة).
ـ الصعلكة والفتوة في الإسلام: لأحمد أمين (مصر ١٩٥٢).

ـ صقور القوقاز: لسلجوق قللي (ترجمة محمد حرب، جدة ١٩٩٢).
ـ صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام: لألبير شاندور (ترجمة سعيد أبو الحسن، دمشق ١٩٨٨).
ـ الصوفية بين الأمس واليوم: لسيد حسين نصر (بيروت ١٩٧٥).

ط

ـ طبقات الأولياء: لابن الملقن (بيروت ١٩٨٦).
ـ طبقات الأولياء: للسخاوي (مخطوط رقم ١٦٦٢٧، مكتبة الأسد).
ـ طبقات الخواص من أهل الصدق والإخلاص: للزبيدي (الدار اليمنية ١٩٨٦).
ـ طبقات الشاذلية الكبرى: للحسن الكوهن الفاسي (مصر ١٣٤٧ هـ).
ـ طبقات الشافعية: للأسنوي (بيروت ١٩٨٧).
ـ طبقات الشافعية الكبرى: لتقي الدين السبكي (مصر ١٩٦٤).
ـ الطبقات الكبرى: لابن سعد (بيروت ١٩٥٧، ١٩٩٠).
ـ الطريقة الشاذلية وأعلامها: لمحمد أحمد درنيقة (بيروت ١٩٩٠).

ع

ـ العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي: لأنور جندي (بيروت ١٩٨٣).
ـ عالم الأمة وزاهد العصر بدر الدين الحسني: لمحمد رياض المالح (دمشق ١٩٧٧).
ـ عبرة أولي الأبصار في ملوك الأمصار: لإسماعيل بن الأثير. ت نهى محمد عبدة (رسالة ماجستير غير مطبوعة، جامعة دمشق ١٩٩٢).
ـ العبر في خبر من غبر: للذهبي (بيروت ١٩٨٥).
ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر . . . لابن خلدون. ويعرف بتاريخ ابن خلدون (بيروت ١٩٧١).
ـ العثمانيون في التاريخ والحضارة: لمحمد حرب (دمشق ١٩٨٩).
ـ عجالة مقتطفة من حياة بديع الزمان سعيد النورسي: جمع محمد زاهد الملازكردي (بيروت ١٩٨٤).
ـ العز بن عبد السلام وأثره في الفقه الإسلامي: لعلي مصطفى الفقير (الجامعة الأردنية ١٩٧٧).

ـ عصر الدول والإمارات (مصر): لشوقي ضيف (القاهرة ١٩٩٠).
ـ عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس: لمحمد عبد الله عنان (القاهرة ١٩٦٤).
ـ العلامة المجاهد محمد الحامد: لعبد الحميد طهماز. (دمشق ١٩٨١).
ـ عمر المختار نشأته وبيئته الأولى: لحبيب وداعة الحسناوي (جامعة الفتح، ليبيا د.ت).
ـ عيون الأخبار: لابن قتيبة (القاهرة ١٩٧٣).
ـ عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: لأبي شامة (دمشق ١٩٩٢).

غ

ـ غربال الزمان: ليحيى بن أبي بكر اليماني (تحقيق محمد ناجي زعبي).
ـ غربة الإسلام بواسطة صنفي المتفقهة والمتفقرة من أهل مصر والشام وما يليهما من بلاد الأعجام: لعلي بن ميمون الحسني (مخطوط رقم ٧٨٢٨، مكتبة الأسد).

ف

ـ فتاوى العز بن عبد السلام: للعز بن عبد السلام (دمشق ١٩٨٦).
ـ فتح الأسماع في شرح السماع: للقاري (مخطوط رقم ٧٦٦٧، مكتبة الأسد).
ـ الفتوة: لابن المعمار الحنبلي البغدادي: (ت: مصطفى جواد، بغداد ١٩٥٨).
ـ الفتوة في الإسلام وصلة الفتوة بالتصوف: لإبراهيم حسن الجمل. (ط نهضة مصر ١٩٩٢).
ـ الفتوحات المكية: لابن عربي (دار صادر، بيروت د.ت).
ـ الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: لمحمد البهي (القاهرة ١٩٥٧).
ـ فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات: لعبد الحي الإدريسي (بيروت ١٩٨٢).
ـ فوات الوفيات: لابن شاكر الكتبي (بيروت ١٩٧٣).

ق

ـ قواعد الأحكام: للعز بن عبد السلام (القاهرة ١٩٦٨).
ـ قواعد التصوف: لأحمد زروق الشاذلي (دمشق ١٩٦٨).

ـ قوت القلوب: لأبي طالب المكي (المطبعة الميمنية، مصر ١٣١٠ هـ).
ـ قيام دولة الموحدين: لمراجع عقيلة الغناي. (بنغازي، ليبيا ١٩٧١).

ك

ـ الكامل في التاريخ: لابن الأثير (دار صادر، بيروت ١٩٦٥).
ـ كشف المحجوب: لأبي الحسن الهجويري (القاهرة ١٩٧٦).
ـ كشف النور عن أصحاب القبور: لعبد الغني النابلسي (مخطوط رقم ١٣٧٧، مكتبة الأسد).
ـ كنوز الأولياء ورموز الأصفياء: لأبي الليث الزيلي الحنفي (مخطوط رقم ٢٩٧٢، مكتبة الأسد).
ـ الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية: لعبد الرؤوف المناوي (مصر ١٩٣٨).
ـ الكواكب الدرية في السيرة النورية: لابن قاضي شهبة (بيروت ١٩٧١).

ل

ـ اللمعات من رسائل النور: لبديع الزمان سعيد النورسي (بيروت ١٩٨٥).
ـ لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية: للشعراني (حلب ١٩٩١).

م

ـ محمد أحمد المهدي: لتوفيق أحمد البكري (القاهرة ١٩٤٤).
ـ محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب: لسعد زغلول عبد الحميد (بيروت ١٩٧٣).
ـ محمد الفاتح: لسالم الرشيدي (جدة ١٩٨٩).
ـ المسلمون في الهند: لأبي الحسن الندوي (دمشق ١٩٦٢).
ـ المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي: لألكسندر بينغسن وزميله (ترجمة عبد القادر ضللي، دمشق ١٩٨٩).
ـ المسلمون والاستعمار الأوربي لإفريقية: لعبد الله عبد الرزاق إبراهيم (سلسلة عالم المعرفة الكويتية ١٣٩).
ـ مشاهير علماء الأمصار: لابن حبان. (القاهرة ١٩٥٩).
ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب: لعبد الواحد المراكشي (مصر ١٩٤٩).
ـ معجم البلدان: لياقوت الحموي. (بيروت ١٩٧٧).

ـ معرفة الله والمكزون السنجاري: لأسعد علي. (بيروت ١٩٨١).
ـ المغرب العربي: لصلاح العقاد (القاهرة ١٩٦٢).
ـ المغني: للموفق بن قدامة المقدسي (القاهرة ١٩٨٦).
ـ مفاهيم يجب أن تصحح: لمحمد بن علوي المالكي (دار جوامع الكلم، القاهرة د. ت).
ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: لابن واصل (مصر ١٩٥٣).
ـ المقاصد في العقيدة والتوحيد: للنووي. (دمشق ١٩٩٣).
ـ مقدمة التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر: لمحمد الطيب القادري (تحقيق هاشم العلوي، بيروت ١٩٨١).
ـ المكتوبات من رسائل النور: لبديع الزمان سعيد النورسي (بيروت ١٩٨٦).
ـ من ضيع القرآن: لشوقي أبو خليل (دمشق ١٩٨٦).
ـ مواقع النجوم: لابن عربي (مصر ١٩٦٥).
ـ المواقف في الوعظ والتصوف والإرشاد: للأمير عبد القادر الجزائري (دمشق ١٩٤٥).
ـ المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام (جامعة دمشق ١٩٧٨).
ـ موسوعة التاريخ الإسلامي: لأحمد شلبي (القاهرة ١٩٨٤).

ن

ـ النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة: لابن تغري بردي (مصر د. ت).
ـ نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والآثار: لمحمود مقديش (بيروت ١٩٨٨).
ـ النصائح المهمة للملوك والأئمة: لعلوان الحموي الشاذلي (مخطوط رقم ٧٣٥٧، مكتبة الأسد).
ـ النقد والبيان: لمحمد كامل قصاب وعز الدين القسام (دمشق ١٩٢٥).
ـ نهاية المطالب في أنساب فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب (أبحاث حققها صلاح الموصلي، دمشق ١٩٧٥).

و

ـ الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي إفريقية: لمحمد ماهر حمادة (بيروت ١٩٨٠).
ـ ورثة الأنبياء: لابن رجب الحنبلي (القاهرة ١٩٨٧).

ـ الوسيط في تراجم أدباء شنقيط : لأحمد الشنقيطي (مصر ١٩١١).
ـ الوصايا : لابن عربي (مؤسسة الأعلمي، بيروت د.ت).
ـ وصية الموفق بن قدامة : للموفق بن قدامة المقدسي (دمشق ١٩٩٤).
ـ الوعي والثورة : لسميح حمودة (دار الشروق، الأردن د.ت).
ـ وفيات الأعيان وأنباء الزمان : لابن خلكان (بيروت ١٩٧٧).

ي

ـ اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر : للشعراني (دار المعرفة، بيروت د.ت).

مراجع متنوعة

أ ـ المذكرات المحفوظة في دار الوثائق التاريخية بدمشق.
ب ـ الدوريات :
١ـ التراث العربي (دمشق).
٢ـ حضارة الإسلام (دمشق).
٣ـ دراسات تاريخية (دمشق).
٤ـ الدوحة (قطر).
٥ـ شؤون فلسطينية (عمان).
٦ـ عالم الفكر (الكويت).
٧ـ عالم المعرفة (الكويت).
٨ـ العربي (الكويت).
٩ـ الوحدة (المغرب).

* * *

الفهرس

* * *

هذا الكتاب

... ردّ فيه (المؤلف) ماشاع عن الصوفية من خمول وكسل، ومن مظاهر الضعف والتواكل، وأبان ما في حياتهم من بذل الجهد في مدافعة الشرّ، واستجلاب الخير، وفي جهاد النفس، والجهاد القتالي، وما عندهم من فروسية واستعمال السلاح في ساحات الوغى ومعارك الالتحام ...

للصوفية فوق ذلك جوانب كثيرة عليّة، ومزايا سنيّة إنسانية، وهي ما عمد إليه المؤرخ المدقق في بيان بطولاتهم تلك، ونشرهم لنور الإسلام في مجاهل إفريقية، وأواسط آسية وشرقيها، وبين شعوب كانت وثنية تائهة فاهتدت، ومخرّبة فبنت وشادت، وجاهلة فتعلمت وسادت ...

من مقدّمة د. اليافي